

نائج فلسطين

تأليف
عمر الصالح البرغوثي خليل طوحي

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس: ٥٩٣٦٣٧٧

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناسر
مكتبة الثقافة الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق البشر الصادق الأمين، وبعد ..

خير وصف لقضية فلسطين، توصف به فى إيجاز، أنها مأساة، يتناسى أهل الرأى فى سياسة العالم كيف نشأت، فيتعذر عليهم أن يهتدوا إلى حل لها. والجمهور، فى غير الشرق، لا يدرك عن قضية فلسطين إلا أن هناك شعباً أصيلاً، هو الشعب الفلسطينى العربى، يعلن أنه ظلم ولا يزال يظلم، وفى كل يوم يأتى له ظالمه بمضاعفات جديدة، يصفها بأنها مسكنات مؤقتة لمعضلة مستعصية الحل.

وهناك مهاجرون يهود، يقيمون فى فلسطين من نيف وعشر سنوات، يقولون إن البلاد هى بلاد أجدادهم الأبعدين. فهم إذن أهل البيت. أما الذين ولدوا فيه، واستقروا فيه، بعد آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم، أجيالاً بعد أجيال دون انقطاع، فهم فى وطنهم، الذى لا وطن لهم غيرد، غرباء عنه، لأنهم ليسوا يهود. وما فلسطين إلا لليهود. لأن اليهود، قبل عهد المسيح، إنما نشأوا فى فلسطين !!

صحيح أنهم رحلوا عنها.

فأصبح منهم البريطانى الصرف. والفرنسى الصرف. والألمانى الصرف.

والرؤسى الصرف. وهكذا. وأصبحوا، فى البلاد التى رحلوا إليها، من أزمان بعيدة. يعتبرون فيها من المواطنين، يتمتعون، دون تمييز مجحف بهم، بجميع الحقوق السياسية والمدنية والاجتماعية التى يتمتع بها إخوانهم المواطنون الآخرون. حتى إن كثيرين منهم تولوا فى البلاد التى استقروا فيها رئاسة الوزراء.

إلا أن اليهود، دون غيرهم من المواطنين. يجب فى نظر الصهيونيين أن يكون لكل فرد منهم، إلى جانب وطنه السياسى، الذى يشاطره إياه غيره من المواطنين، وطن روحى رمزى فى فلسطين. لأن فلسطين هى أرض الميعاد بالنسبة لليهود. فيجب أن تباح الهجرة إلى فلسطين لكل من رغب فى ذلك، مهما كانت جنسيته السياسية ولونه القومى، بشرط واحد أن يدين باليهودية فىمن بالصهيونية. وهذا، من الوجهة السياسية، استناداً إلى وثيقة صدرت من حاب واحد، هو جانب الحكومة البريطانية، عرفت "بتصريح بلفور" وسجلت فيما بعد فى قرار أصدره مجلس "عصبة الأمم" بإثبات انتداب بريطانيا العظمى على فلسطين.

فلهذا نقدم للمكتبة العربية كتاباً جديداً وهو تاريخ فلسطين رداً على الإدعاءات الإسرائيلية، وعودة الحق لصاحبه، والله الموفق ..

الناشر

مقدمة

لما رأينا الأمة العربية جادة في بناء جامعتها التي لا تقوم إلا بإحياء تاريخها عمدنا إلى وضع تاريخ فلسطين لما له من الأهمية التاريخية ولأنه يجب على كل إنسان أن يدرس تاريخ بلاده وأمته ثم تاريخ الأمم الأخرى وقد إستطردنا في البحث عن شرقي الأردن وسورية والعراق والحجاز ومصر وما هبط إلينا من الأمم الغربية ليستفيد منه الطالب ويستعين به الأستاذ فلم نفرط في اختصار الحوادث الأجنبية كما انا لم نسهب في تفصيل أخبار العرب ونفخنا فيه من الروح الوطنية المفرغة في قالب التاريخ الذي كنا نظنه سهل المأخذ قريب المتناول فالفيناه صعب المرام بعيد المنال تعجز الأفكار عن إستجلاء مشاكله وتجمد القرائح في تدقيق متناقضه لا سيما أن تاريخ العرب غامض لم ينخله الناقدون وقد تخلله فترات من الزمن لم يسجلها المؤرخون ولم تكشفها الحفريات والنقوش فلا جرم إن اشتبه علينا الخطأ بالصواب لرغبنا في سرعة إنجازه لأننا بحاجة ماسة إليه وإنا شاكرون كل من نبهنا لإصلاح أو تكريم بستر عورة فما الكمال إلا الله ونرجوا الله أن يجني مواطنوناً منه نفعاً وهو الموفق للصواب .

" المؤلفان "

القسم الأول

في تاريخ فلسطين من بدئه حتى الفتح العربي الإسلامي

الفصل الأول

في تاريخها قبل الفتح اليهودي

(١) حدود فلسطين التاريخية والسياسية

ورد في التوراة عبارة تدل على حدي فلسطين الشمالي والجنوبي وثبتت أنها كانت "من دان إلى بئر سبع" . ودان إسم لأحد أسباط اليهود أو إحدى قبائلهم التي سكنت عند تل القاضي الذي ينبع نهر الأردن قريباً منه. وبئر السبع مدينة واقعة جنوبي فلسطين. أما حد فلسطين الغربي فهو البحر المتوسط الذي لا يتغير. وأما الحد الشرقي فمختلف فيه والحقيقة أنه كان يتقلص أحياناً إلى نهر الأردن وأحياناً يمتد حتى الصحراء والخط الحجازي وذلك بحسب الظروف وتقلبات السياسة .

حدودها السياسية الحالية

لم تتم الآن المفاوضات بين إنكلترا وفرنسا لوضع الحدين الشمالي والشرقي بين سوريا وفلسطين غير إنه يمكننا أن نعتبر خطأً من رأس الناقورة (وهي نقطة على البحر شمالي عكا يطلب فيها جوازات السفر) إلى شمالي صفد فنجعله حداً شمالاً. والبادية حداً شرقياً كما ورد في صك الانتداب والبحر المتوسط حداً غربياً. وشمالي الحفير ورفح حداً جنوبياً.

(٢) مساحتها

لا يمكن أن نبت القول في تقدير مساحة فلسطين لأن حدودها الشمالية والشرقية لم تعين حتى الآن ولو إنا ذرناها من الشمال إلى الجنوب لكانت ٢٤٠ كيلو متراً تقريباً. أي إنا إذا سرنا كل يوم ثماني ساعات وقطعنا في كل ساعة منها خمسة كيلو مترات نجتازها من الشمال إلى الجنوب في ستة أيام. على أن القطار يستطيع أن يطويها فيما بين ٧ أو ٨ ساعات ويتراوح عرض فلسطين ما بين ١١٠ كيلو مترات إلى ١٦٠ فهو على ذلك نصف طولها تقريباً. أما مساحتها فتساوي ثلث مساحة سوريا الممتدة من جبال طورس حتى رفح ومن البادية إلى البحر المتوسط .

(٣) أسماؤها :

كانت فلسطين ولا تزال جزءاً من سوريا لا يفصلها عنها حد طبيعي ولا يبعدها عامل جنسي أو تاريخي لذلك لم يفرد لها المؤرخون اسماً مستقلاً بل كانوا ينسبونهم إلى الشعوب والقبائل التي سكنتها. وأهم أسمائها التاريخية هي:

أ- أرض كنعان: وهذا أول اسم سميت به نسبة إلى الكنعانيين الذين هم أسرة سامية. وكانت في عصرهم تشمل جزءاً كبيراً من سوريا حتى حمص وحمه .

ب- فلسطين: أطلقت اليونان والرومان هذا الأسم عليها نسبة إلى سكانها الفلسطينيين الأقدمين الذين لم يتوطنوا إلا الساحل ما بين يافا وغزة وكانت "فلسطيناً" لا تشمل سوى هذه البقعة الضيقة فقط ولبقاعها الأخرى أسماء خاصة بها. فيظهر من ذلك أن تسمية جميع البلاد بفلسطين هو من باب تسمية

الكل بأسم الجزء.

ج- أرض الميعاد: سماها اليهود أرض الميعاد زعماء منهم أن الله وعدهم بها في أيام إبراهيم وفيما بعد ذلك أيضاً. وقد أمتازت علماء التوراة في ذلك فرقين فرقة تقول أن النبوات تمت وإنقضى زمنها. وفرقة تقول أن الله سيعطي البلاد لليهود بعد أن يتصرفوا.

د- الأرض المقدسة: يسميها مسيحيو الغرب بهذا الاسم لتقدسها بمن ولد فيها وزارها من الأنبياء والرسل والمصلحين. وكذلك دعا المسلمون "إيليا" القدس وبيت القدس لأنها مهد الأنبياء ولأن النبي أسري به إليها ليلاً.

(٤) تأثير موقعها الجغرافي على تاريخها :

أن علمي التاريخ والجغرافيا صنوان متلازمان وتوأمين لا يستغنى أحدهما عن الآخر. ومن تغلغل في البحث وتأمل في تأثير المناخ على طبائع السكان أمكنه أستنتاج فوائد جمة ومنافع ذات قيمة واتضح له أن سكان المناطق الحارة كالسودان وغيرهم يغلب عليهم الخمول والجمود فيظلون سحابة نهارهم نائمين في ظل نخيلهم وأجواف كهوفهم خلافاً لسكان المناطق الباردة الذين يقضون أوقاتهم في الجد يخوضون غمار العمل بنشاط لا مثيل له بين أبناء المناطق الحارة. وكما أن للمناخ تأثيراً على طبائع السكان كذلك للموقع الطبيعي علاقة كبرى في تاريخ الأمم والأفراد وتطورهم. فمصر لولا النيل لكانت صحراء مجربة ولما أشرقت عليها شمس هذه المدينة الزاهرة وتجارة نيويورك العظيمة لم تتسع ويحكم بناؤها إلا على أساس موقعها الجغرافي. ولولا

ما لموقع القسطنطينية من علو الشأن لما طمعت فيها الدول وتاقت إليها نفوس الفاتحين. ولقد كان موقع إنكلترا في جزيرة من أكبر العوامل التي جعلتها تعتني بشأن بحريتها حتى أصبحت ذات أسطول ضخم ملكت به البحار وكانت به الدولة البحرية.

وهكذا فلسطين فأننا لا نفهم تاريخها جيداً إلا بعد أن نعرف موقعها الجغرافي وحالتها الطبيعية ولذلك نقول: فلسطين أقليم صغير واقع في المنطقة المعتدلة الشمالية بين بحرين كبيرين الأول الرملي في شرقها والثاني المائي في غربها. بل هي جسر بين آسيا وأفريقيا وأوروبا وطريق عمومي لسكان وادي النيل ودجلة - مهدي مدنية العالم القديم - بل خط إتصال بينهما ولذلك كان كلاهما ينزع لاختضاعها كي يجهز على خصمه ويأمن من شره وغاراته. هي محطة بين الشرق والغرب تتنازع عليها الأمم القديمة والحديثة كي تسيطر على طرق التجارة كانت لا تزال ساحة حرب وميدان قتال للدول القديمة والحكومات الحديثة. فكم من قائد ظفر في سهولها وآخر سقط جيشه أسيراً وخر قتيلاً أو هزيماً. فكأنها ساحة أعدت لمبارزة القواد والعظماء أمثال: بنوخذ نصر وصحوتيس* (طتميس والإسكندر وبومبي ويوليوس وأغسطس وتيطس وكسرى وأبو عبيدة وصلاح الدين وقلب الأسد والسلطان سليم وبونابارت وإبراهيم باشا وليمان فون ساندرس باشا والنبى نسل إليها الجنود من آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا وأستراليا وزيلاندا الجديدة فكانت مسرحاً يمثل فيه

* هذا على حسب اللفظ السامي القديم. وأما الشكل "طوتيس" فهو مأخوذ عن التحريف الأفرنجي.

أجناس البشر بلباسهم الوطني رواية عالمية للفلسطيني الذي لم يخرج من بلاده .
شاهد سكان الكرة الأرضية من غير أن يركب لذلك الأهوال أو يتحمر
المشاق والمصاعب كأنه طاف الأقطار .

تعاقب في توطن فلسطين والحكم عليها جميع أجناس البشر من سمي
ومغولي وأرياني لم تقطنها أمة واحد بل كانت في سائر أدوارها أما مندمجة
سوريا أو ملحقمة بمصر ولئن إستحال عليها في الماضي أن تكون بلداً مستقداً
لموقعها الجغرافي وصغر مساحتها وتخالف سكانها فستكون في مقبل الأيام
كذلك أما متصلة بمصر أو مرتبطة بالعراق . والماضي مرآة الآتي وهو أشبه به
من الماء بالماء .

(٥) سكانها:

إن جميع التواريخ القديمة مظلمة فلا يعول عليها ما لم يؤيدها العقل
والعلم والحفريات والآثار وأقدم تاريخ لفلسطين يبتدى من ٣٥٠٠ ق.م .
بشهادة الحفريات المكتشفة أخيراً في جازر "أبو شوشه" وهي قرية قرب
الرملة وقد قام بهذه الحفريات بين سنة ١٩٠٢م و ١٩٠٥م جمعية إنكليزية
The Palestine Exploration Fund يرأسها الأستاذ مكالستر
Macalister وذكر هذا الأستاذ أنه قد سكن فلسطين قديماً أقوام غير
ساميين وبرهن على ذلك بما نطقت به الآثار وشهدت له الرسوم والأحجار .

وتلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وهذا ما أستنتج من الآثار المذكورة :

١- كان سكان جازر (أبو شوشه) قصار القامة يتراوح طولهم ما بين ٥ أقدام و٤ بوصات و ٥ أقدام و٧ بوصات .

٢- كانوا من أبناء العصر الحجري فزاولوا زراعتهم وجميع أعمالهم وحربهم بادوات صوانية كالفأس والمنجل والحراب .

٣- دجنوا الحيوانات الأهلية كالبقرة والماعز والخراف والخنزير وربوا هذه الحيوانات في مغاورهم .

٤- كانوا يقطنون الكهوف التي لا تزال موجودة حتى الآن ولكن بعد ألف سنة من ذلك العهد أي سنة ٢٥٠٠ ق.م. تدفق على فلسطين سيل عرم من سكان العراق وأواسط جزيرة العرب فنزلوا بها وعمروها وشادوا فيها المدن وها نحن نقص نبأ أهم الشعوب التي سكنت فلسطين .

أ- الكنعانيون :

هم قبيلة سامية نزحت من جزيرة العرب وأوت فلسطين وكانت لغتهم القومية اللغة العبرانية التي إقتبستها أمة اليهود منهم بعد أن تركت لغتها. وكانت مساكن الكنعانيين الأولى في منخفضات الأرض ولذلك سموا كنعانيين لأن معنى "كنعان" في لغتهم الأرض المنخفضة. وكانت بلادهم واسعة الأطراف يحدها شمالاً مدخل حماه شمالي لبنان وشرقاً بادية الشام وجنوباً بادية العرب وغرباً البحر المتوسط عكفوا على الزراعة والتجارة زمناً طويلاً حتى

أتت إليهم اليهود فحاربتهم وتغلبت عليهم وأحتلت مدنهم المسورة ولأن ديانتهم كانت وثنية حرمت اليهود الزواج منهم والإمتزاج بهم. وكثيراً ما ورد ذكر الكنعانيين في التوراة. قال في سفر التكوين ص ٣ : ١١ أن الكنعانيين سكنوا في البلاد وأن إبراهيم سكن معهم. وقد ورد أيضاً في التوراة ذكر حروبهم مع اليهود في أريحا وجبعون وبيت أيل ولكن اليهود لم تستأصلهم فمنهم من ذهب إلى الشمال ومنهم من بقي في البلاد فسيطرت دماؤهم في عروق السكان وتمثلوا في سواهم من الأمم الأخرى .

وقد وجد في الكرنك أسماء ١١٩ مدينة من المدن الكنعانية التي إحتلها صحوتميس فرعون مصر حين غزا البلاد وانتصر على أعدائه ومن هذه المدن صور ويافا وعكا.

ب- الحثيون :

قبيلة انفصلت من تركستان نحو سنة ١٧٠٠ ق.م. وأنهالت على فلسطين وهم فرع من شجرة مملكتهم المؤسسة في شمالي سوريا وآسيا الصغرى. وكانت عاصمة الحثيين "ختي" التي تسمى اليوم "بوغاز كوي" وحارب الحثيون فراعنة مصر ويؤيد هذا القول ما شوهد من النقوش والرسوم المحفورة على الأعمدة في هيكل الكرنك في مصر. وقد حاربهم عرمسيس ١٤ سنة فلم يتمكن من إخضاعهم ولذا أضطر إلى محالفتهم. أما الملك ستي الثاني فإنه حار بهم وقهرهم.

والحثيون الذين سكنوا فلسطين هم بقايا أولئك الذين حاربوا المصريين

وسكنوا بين القدس والخليل. وأمتد ظلهم زمناً إلى بيت أيل ونابلس. وذكر أن إبراهيم شرى مغارة المكفيلة (حرم الخليل وقبور الأنبياء) من الحثيين ودفن فيها زوجته ساره وبعض بنيه وأحفاده. وأنهم أنجبوا بعضاً من العظماء مثل أوريا الحثي الذي كان ذا بأس في جيش داود.

ج- اليوسيون

جل ما نعرفه عنهم أنهم سكنوا القدس ولكن لم يعرف أصلهم حتى الآن. وقيل إنهم بطن من الكنعانيين. وكانت القدس تدعى قديماً ببوس فلعلهم سموا اليوسيين نسبة إليها. ولما جاء اليهود من التيه بقيادة يشوع بن نون وأحتلوا البلاد حاولوا إستملاك القدس فعجزوا عنها وظلت في أيدي اليوسيين إلى أن حاربهم داود فحاصرهم وهدم أسوارها ودخلها عنوةً وجعلها عاصمة ملكه وضرب على اليوسيين الجزية حتى أيام سليمان. وقد ذكر في التوراة أن داود أشترى بيدر أرونة اليوسي (ساحة الحرم الآن) ليبني هناك هيكلًا فلم يتوفق غير أن أبنه سليمان أنجز هذا العمل. ومن ملوكهم أدوني صادق وملكي صادق .

د- الفينيقيون

هم فرع من الأقوام الذين سكنوا فلسطين وأبوا الخضوع لغيرهم من الشعوب القوية التي هاجمتهم فظلوا يقاومونهم. ولما عجزوا عن حماية بلادهم وعز عليهم الإستسلام والطاعة لأعدائهم انسحبوا إلى الشمال وكانوا يترقبون الفرص لإسترجاع منطقتهم وإستخلاصها فكانوا في ذلك مع العبرانيين

كالأسبانيول مع العرب حين هاجهم العرب فأعتصموا بالجبال وظلوا ينتهزون الفرص حتى سنحت فأنقضوا على أخصامهم وأستعادوا ملكهم غير أن الفينيقيين لم يفوزوا كالإسبانيول في نهاية أمرهم. أما الفينيقيون فأنهم وأن لم يسكنوا فلسطين فقد كانوا من بقايا أهلها وتاخموا حدودها وأثروا على تاريخها. وقد ظهر في نقوشهم المكتشفة حديثاً أنهم كنعانيون لذلك حق لنا البحث عنهم لما لهم من الشهر الفائفة والذكرى الحميدة في العصور الأول ولأنهم كانوا شعبة من الأمة السامية ولغتهم شقيقة لغتنا بشهادة نقوشهم وحروف هجائهم ولا ريب أنهم كانوا أعظم أشهر الأمم القديمة التي سكنت سوريا وفلسطين مع أنهم أكتفوا بالساحل ما بين طرابلس الشام وحيفا. ومن أهم مدنها صور وصيدا وبيروت وطرابلس. وقد كان الفينيقيون وملكهم حيرام حلفاء سليمان فعاونوه على بناء الهيكل ونقلوا إليه الخشب مع احراج لبنان عن طريق البحر إلى يافا. وكان لهم مهارة فائقة في البناء "المعمار" والصناعة التي كانت مفقودة عند اليهود وتزوج آخاب ملك إسرائيل إيزابيل الفينيقية رغم نواهي دينه وإرادة شعبه إذ كان محرماً عليهم أن يخالطوا سواهم لأنهم شعب الله الخاص على زعمهم وغيرهم أمم وهذا لعمري منتهى التعصب الجنسي. فرغبة الملوك في محالفتهم ومصاهرتهم دليل بين على عظمتهم وأرتفاع شأنهم. ولقد ورد ذكرهم في أنجيل مرقس عند قوله إن امرأة فينيقية طلبت من المسيح أن يشفي أبنيتها .

تجارتههم : كانت بلاد فينيقية حلقة اتصال بين قوافل العراق والشام ومصر ولذلك كان أهلها دعاة المدنية المصرية والسبب الأقوى في نشرها ونقلها إلى

جميع الأقطار التي ذهبوا إليها. ولأن بلادهم كانت ضيقة يكتنفها البحر من الغرب والجبال من الشرق لذلك اضطروا إلى مزاولة التجارة فحاضوا من أجلها لجج البحار واقتحموا الأهوال والأخطار وكان ذلك عليهم أمراً هيناً لأنهم جاوروا البحر وعرفوه وأجرأ الناس على الأسد أكثرهم رؤية له. وقد تدرجوا في أسفارهم البحرية من جزيرة أرواد إلى قبرص ورودس ومصر والأرخيل الرومي واليونان وشمال أفريقيا ومرسليا وأسبانيا وإنكلترا. أسسوا مستعمرة عظيمة في شمالي أفريقيا (قرطجه) التي زاحت رومية وهددت كيائها أما صناعتهم فكثيرة أهمها الزجاج الملون والأرجوان والنحاس. وأما خدمتهم للمدينة فمنها نشر الحروف الهجائية التي أعطوها لليونان فتداولوها بينهم ثم وزعوها على الأمم الأوروبية.

ومنها اختراع المقاييس والعيارات للوزن. وكانت ديانتهم وثنية منحطة ومن آلهتهم "بعل" و"عشتاروث" و"مولوك" التي كانوا يذبحون لها أولادهم ويقدمون لها قرابين .

هـ- الفلسطينيون :

من الواجب علينا أن نعرف تاريخ الفلسطينيين أكثرهم لأننا ورثنا أسماءهم وامتلكنا بلادهم ووطنهم فرأينا لذلك أن نسهب في ذكر تاريخهم إسهاباً لا يمله القارئ ولا يشف كثيراً عن جمود ذلك العصر المظلم فنقول:

ليس الفلسطينيون من أسرتنا السامية وإنما هم من الشعب الأرياني وعلى الغالب أنهم قدموا بلادنا من جزيرة كريت عن طريق آسيا الصغرى

"الأناضول" أو عن طريق مصر عندما قاتلهم رعمسيس وقهرهم وأسكنهم الساحل ما بين يافا وغزة ولما عظم شأنهم حاربوا مدينة صور وهدموها ومن مدنهم العظيمة غزة وأسدود وعسقلان وعقرون "عافر" وجت. وكانوا وثنيين يعبدون الأصنام والتماثيل وكان عندهم صنم يدعى داجون نصفه الأعلى شبه إنسان والأسفل كالسمكة وكان له هياكل كثيرة في إسدود وغزة وعسقلان وبيت دجن التي سميت بإسمه وهي بقرب يافا ولعل مجاورتهم البحر هي التي جعلتهم يرجحون عبادة الأسماك على سواها من معبودات الوثنيين .

دخلوا البلاد وأستولوا على غربها وجنوبها بعد مجيئ اليهود بستين سنة وقد تنازع الأمتان البلاد وأستمرت بينهما الحروب سنين عديدة وكانت اليهود تستطلع أخبار الفلسطينيين من جبل النبي صمويل الواقع (على بعد ٧ كيلو مترات من شمال القدس الغربي) وترقب من السهل سائر أعمالهم ولم يقو فريق منهما على إخضاع الآخر فأستطال الخصام وأستفحل الشر وغرست البغضاء في النفوس وحقد الفلسطينيون على أعدائهم وحاربوهم في عقر دارهم "مرج ابن عامر" وهزموهم هزيمة منكرة حتى أن شاوول ملك اليهود من شدة غيظه قتل نفسه على جبل جلبوع شرقي مرج بن عامر قرب جنين فأخذ الفلسطينيون جثته وجثة ولده يوناثان وعلقوهما على أسوار "بيسان" في الغور شرقي المرج.

ظهر من الفلسطينيين جبابرة منهم جليات "طالوت" الذي قتله البطل الفتي داود بحجر من مقلاعه قبل أن كان ملكاً أو نبياً. أمتدت المشاحنات بين

الأمّتين وظهر شمشون أحد قضاء بني إسرائيل فحاربهم وأزعجهم ولكنهم أخيراً أسروه وقلعوا عينيه وحسوه حتى مات في غزة وقبره هناك معروف تحول إلى جامع شرقي المدينة ويقال به "أبو العزم شمشون الجبار" .

أمتزج الفلسطينيون بغيرهم فأنقروا وتحولوا كما تحول سواهم من الأمم الغابرة إلى أجناس وعناصر أخرى أما اليهود فلكونهم عاشوا منفردين معترلين الأمم الأخرى وحرّموا التزاوج مع غيرهم وحافظوا على جنسيتهم الأصلية بحرصهم على قواعد الدين ظلوا إلى يومنا هذا منتشرين في سائر أقطار الكرة الأرضية يحنون إلى فلسطين ويطلبون الرجوع إليها كما ورد في شعر ابن اللّاي الأندلسي الذي كانت روحه تطير من الأندلس على أجنحة أشعاره وترفرف فوق صهيون وفلسطين قبل ٨٠٠ سنة. ومن أعجب الحوادث التاريخية أنهم يطلبون الرجوع إليها والتوطن فيها بعد أن تركوها ١٩ قرناً وما ندري ماذا يكون جواب الأمم التي سكنت فلسطين قبل اليهود وبعدهم إذا إستشرناهم في أمرها وسألناهم عن هو الأحق. والبحث عن الفلسطينيين بحث واسع وأن أراد التفصيل في ذلك فليراجع كتابي الأستاذين جورج آدم سميث ومكالستر فأنهما قد وفيا هذا الموضوع حقه .

و- القبائل الأخرى:

(١) الأدوميون: أولاد عيسو بن إسحق وكانت منازلهم جنوب البحر الميت كانوا قبائل وفرقاً وقد حاول شاوول أن يتغلب عليهم في القرن العاشر ق.م فلم يحل بطائل. ولما تولى داود أخضعهم وأحتل بلادهم وجعل

عليها حامية من جنده فهمّ أحد قوادهم في عصر سليمان أن يخلع الطاعة فلم يفلح وظلوا تحت سيطرة الإسرائيليين إلى أيام يهوشا فاط فمالوا أعداءه وأعانواهم على حربه ولما حمل نبوخذ نصر على أورشليم أعانوه على نهبها وذبح أهلها فكافأهم وأيد سلطتهم في أدوم ووسع حدودها من تخوم مصر حتى البحر المتوسط فداهمهم الأنباط "العرب" وملكوا بلادهم وكان بذلك أنقراض ملكهم دولتهم. ومن مشاهيرهم هيرودس الأدومي حاكم فلسطين ومساعد الرومان في تأييد نفوذهم أيام المسيح وقد لعب دوراً هاماً في التاريخ كما سيأتي.

(٢) المؤآبيون: من أبناء لوط ومنازلهم بين نهر أرنون "الأزرق" وتبوك وعربات مؤآت قبالة أريحا التي أستولوا عليها فوضع سبط بنيامين الجزية عليهم مدة ١٨ سنة في زمن ملكهم الذي قتله آهود .

(٣) العمونيون: من ذرية لوط نسل ابن عمي ومساكنهم في جهة السلط وعمان والزرقاء .

(٤) العماليق: كانت مواطنهم صحراء سينا بين المصريين والفلسطينيين والكنعانيين ومن ملوكهم كدرلعومر وهم القوم الجبارون الذين حاربوا بني إسرائيل وتغلبوا على جدعون وشاؤول حتى امتدت سلطتهم إلى جوار نابلس ولم يكن لهذه القبائل حكومات منظمة أو إدارات مرتبة بل كانوا أشبه شئ بقبائل جنوبي فلسطين وشرقي الأردن مثل الترابين والتيها والعزازمة والجبارات والعدوان وبني صحر والحويطات وغيرهم.

فكانت كل قبيلة تلتف حول شيخها وهو الحاكم والقاضي والقائد وقد
عنوا بأمر الزراعة وتربية الماشية وشن الغارة والسلب والنهب ولم يكن
لأحد سلطان عليهم ولا دين لهم يرجعون إليه فالقوي يأكل الضعيف
ومن شعر لعجزه وآنس في خصمه القوة أضطر أن يتخذ له حليفاً ليتقوى
به شأن القبائل البدوية في يومنا هذا.

(٥) الأنباط: وهم أمة عربية جرفت بقايا الأدوميين وأسست ملكاً في وادي
موسى وقد غزاهم إنطيوخوس سنة ١٣٢ ق.م فإرتدّ مخذولاً ولما
حاصرهم ديمتريوس أطلّ عليه أحدهم وخاطبه قائلاً: "لماذا تقاتلنا ونحن
مقيمون في بادية أتحار بوننا لفرارنا من الرق؟ فإنسحب ديمتريوس برجاله
وشيدوا حكومة منتظمة بملوك ووزراء وضربوا النقود ومن عظماء
ملوكهم الحارث الثالث الذي تغلب على البقاع بسوريا وملك دمشق
سنة ٨٥ ق.م وساعد هركانوس المكابي على أخيه أرسطو بولس .

والحادث الرابع: وهو هو هيرودس أنتيباس الذي حارب الحارث
لتزوجه على أبنته وكانت أبنه الحارث تحب هيرودس فتزوج عليها زوجة أخيه
هيروديا أبنه أرسطو بولس فشق ذلك عليها وذهبت إلى بيت أبيها الحارث
وذكرت له الخبر فإستشاط غضباً وحارب هيرودس فانتصر عليه إنتصاراً كبيراً
ولم ينج هيرودوس منه إلا الفرار. وقد أمتدت مملكة الأنباط حتى شملت من
الغرب جزيرة سينا ومن الشرق حوران وحدود العراق وبلغت من الجنوب
وادي القرى. وظلت بلادها مركزاً تجارياً بين جميع الأقطار المعمورة وكانت

وسائل النقل موفرة لديها كالسكك الحديدية الأوربية والأميركية في القرن العشرين وأخيراً حمل عليهم الأمباطور تراجان فبدد شملهم وقضى على مدينتهم سنة ١٠٦م فأندمجوا في غيرهم وأصبحوا أثراً بعد عين. ومن أعظم مدنها بطرا وبصرى وأذرع وعمان وجرش والكرك والشوك وأيله والحجر وصلخد ومادبا ودمشق .

وعدد ملوكهم ١٨ منهم عبادة الأول، عبادة الثاني ومالك والملكة خلد، الملكة شقيلة، ريبال، الملكة جميلة، وهذا مما يثبت أنه كان للمرأة في العصور الأولى مثلما كان للرجل من الحقوق والواجبات.

الفصل الثاني

اليهود في فلسطين

(٦) الدور القبائلي - أو دور البداوة:

اليهود قبيلة سامية هاجرت من العراق "أور الكلدانيين" سنة ٢٠٠٠ ق.م برئاسة إبراهيم الذي صار نبياً وتسمى بعدئذ إبراهيم. ساروا في الطريق التي يسلكها اليوم المسافرون بين العراق وسوريا شمالي نهر الفرات حتى وصلوا شمال سوريا ثم انعطفوا إلى الجنوب حتى أنتهوا إلى أرض كنعان "فلسطين" وكان إبراهيم يرتاد البقاع الخصبة ليرعى ماشيته وقد ورد ذكره كثيراً في الكتاب المقدس وقدم أبنة إسحق ذبيحة - على رأي التوراة وعلماء المذهب الحنفي - على جبل موريا مكان الحرم الشريف الآن .

أما مدينة حبرون فقد أهمل أسمها القديم وسميت بالخليل نسبة إلى إبراهيم الذي دعي خليل الله لأنه سكن هناك وأشترى مغارة المكفيلة (حرم الخليل) وفي الجنوب الغربي من المدينة قرب قرية الظاهرية واد كبير ومرعي واسع يقال له "وادي إبراهيم" يزعمون أنه كان يرعى مواشيه فيه ولا يزال حتى الآن وقفاً تنفق غلته على وظائف الحرم الخليلي .

ولد لإبراهيم أبنا إسمايل من جاريته هاجر وإسحق من زوجته سارة التي كانت من قومه العراقيين فولد لإسحق يعقوب الذي دعي بعدئذ إسرائيل

وأصبح اليهود ينتسبون إليه ويعتقدون أنهم تحدروا من صلبه .

خلف يعقوب ١٢ غلاماً فاضطرهم مجاعات فلسطين المتوالية لإنتجاع مصر ملتجئين إلى حوض نيلها الخصب حيث إستعبدتهم هناك الفراعنة غير أن النقوش والألواح المصرية أغفلت خبر الإسرائيليين ولم تذكر عنهم شيئاً كما أن كثيراً من نقدة التاريخ أغفلوا ذلك أيضاً. وأنكروا ذهاب بني إسرائيل إلى مصر ولذلك يجمال بنا ألا نتسرع في الحكم بل ننتظر ما سيكتشف في مصر وسورية بالحفريات والآثار عليها تهدينا إلى معرفة الحقيقة والصواب .

ظل الإسرائيليون مشردين إلى أن نبغ فممنهم موسى فأرسله الله نبياً إلى قومه فأنقذهم من غربتهم وعاد بهم إلى أرض كنعان عن طريق الجنوب الشرقي .

كان موسى نبياً ورجلاً عالماً بل مشرع اليهود الكبير ومصلح عقائدهم وإليه تنسب الوصايا العشر التي هي مصدر الأخلاق ونواة الأديان وأنا نثبتها ههنا وان كانت حفريات العراق الأخيرة تدل على أن الشريعة اليهودية وأكثر النواميس العبرانية مقتبسة من الشرائع الحمورية لكونها أقدم من موسى وها هي الوصايا المذكورة:

(١) لا يكن آلهة أخرى أمامي.

(٢) لا تصنع تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما .. إلخ.

(٣) لا تنطق بإسم الرب أهلك باطلاً.

(٤) أذكر يوم السبت أي أعمل ستة أيام واسترح اليوم السابع.

(٥) أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض.

(٦) لا تقتل.

(٧) لا تزني.

(٨) لا تسرق.

(٩) لا تشهد على قريبك شهادة زور.

(١٠) لا تشتت بيت قريبك ولا شيئاً مما له.

ويظهر من الوصية الأولى أن اليهود أسبق شعوب فلسطين التوحيد وأن موسى أول من قال "لا إله إلا الله" بخلاف غيرهم من الشعوب العربية والبابلية والمصرية الذين اتخذوا من دون الله آلهة كثيرة ونعتها كل فريق بما يناسب أقليمه وبيئته.

وإذا سلمنا بنص التوراة وأقوال المؤرخ الشهير يوسيفوس نجد أن قائد بني إسرائيل الذي فتح فلسطين كان يشوع بن نون وهو الذي عبر بجيشه وأحتل مدينة أريحا من الكنعانيين. ولكن لا يذهل القارئ ولا يتوهم أن جيش اليهود كان منظماً مدرباً كالفيالق المصرية بل كان أشبه بقبائل ألح عليها القحط وخافت عدواً ففزعت إلى الرحيل وأمت أقليماً آخر تتلمس فيه الحياة لتنقذ نفسها من براثن الجوع والهلاك. ولذلك كانت كل قبيلة من اليهود وقتئذ خاضعة إلى أميرها منقادة إلى زعيمها على أنهم كانوا كثيراً من الأحيان

يتمردون على مرشديهم وقوادهم ويتدمرون منهم لما يرونه من وعودهم الخلابه وهذا مما يدل على أن الطبائع البدوية لا تخضع لأحد إلا مكرهه مرغمة.

نعم احتل اليهود فلسطين بجحد السيف وبقسوة شديدة ولكن ذلك الإحتلال لم يكن منظماً ولم يستطيعوا أن يبيدوا جميع أعدائهم إذ أن الفلسطينيين ما أنفكوا عن مقاومة اليهود حتى أواخر أيامهم وقد أزعجتهم قبائل المديانيين (شعب عربي ورد ذكرهم في القرآن حيث يقول " وإلى مدين أخاهم شعيباً ") وضيق عليهم مذاهبهم. فيروى عن شيخ يهودي اسمه جدعون أنه كان يدرس قمحه في المعصرة ليخفيه عن أعين المديانيين ولا يأمن من أن يبقيه في البيدر. وقد نحت بنو إسرائيل الكهوف والمغاور وبنوا الحصون أتقاء من شرهم وتخلصاً من غاراتهم ومع هذا فلم يظفروا بأمنيتهم إذ أن المديانيين والعمالقة وأهل المشرق كانوا كلما حان وقت الحصاد ينهبون زرعهم ويأكلون ثمارهم .

وقد شدد زعيم الإسرائيليين جدعون في تحريم المديانيين وفقاً للشرعية اليهودية فلم ينجح وظل اليهود محتكين بهم وتزوجوا بناتهم وتركوا يهوه إلا هم وعبدوا آلهة البلاد وأصنامها فضعفت بذلك الرابطة اليهودية وأنحلت العصبة القومية وظلوا قبائل متفرقة فعجزوا عن إبادة الخيران والسكان مع محاولتهم ذلك حتى أنهم جبنوا عن رد هجمات القبائل البدوية التي يمكننا أن نشبهها للقراء بالغارات التي تحدث شرقي الأردن ولا باعث لها إلا أخذ الشار

أو حب الغزو والتغلب .

(٧) عصر القضاة:

كان بنو إسرائيل كلما أنتابتهم الصدمات ينبت فيهم رجال عظام "القضاة" فكان الشدائد كانت محكاً لهم تميز منهم الخبيث من الطيب وتظهر من بينهم معدن الرجل العظيم فينتخب قاضياً لسبط ثم يجتمع عليه بعض شيوخ الأسباط فيولونه أمرهم وتبقى الإدارة الداخلية لهم وحكم القاضى ينفذ في الجميع ولم يكن هذا المنصب وراثياً بل كان منحة تتارى في أحرازها همم الأبطال وربما تعددت القضاة في آن واحد فيجتمعون ويحاربون أعداءهم. ودامت مدة حكمهم من سنة ١٥٩٥ ق.م. - سنة ١٤٢٠ ق.م. وتيمماً للفائدة نذكر هنا بعض مشاهيرهم.

(أ) جدعون: وهو من قرية عفرة وربما كانت طيبة بني سالم وتبعد عن رام الله ١٢ كيلوا متراً لجهة الشرق الشمالي وقد حارب المديانيين وأراح قومه من شرهم (سفر القضاة ص ٦ : ٨،٧) وحاول أن يجمع كلمة اليهود تحت لواء سلطته إلا أن عراقتهم في البداوة وفقد شعور الاتحاد والتضامن من نفوسهم جعل ذلك عليه مستحيلاً .

(ب) شمشون : وهو من قرية صرعا الحد الفاصل بين السهل والجبل وهي من بلاد الخليل "العرقوب" واقعة بين القدس والرملة ويمر بها الخط الحديدي. وكان شمشون جباراً ذا بأس وقوة وله مواقف مشهورة في محاربتة الفلسطينيين الذين كانوا أخصاماً الداء لقومه اليهود (سفر القضاة ص ١٣) وينسبون سبب

قوته إلى استرسال شعره فإذا طال قوي وأن قصر ضعف ويقال أنه نزل يوماً إلى أشقلون "عسقلان" وقتل ثلاثين رجلاً فلسطينياً وأخيراً أسره الفلسطينيون ومات في غزة كما ذكرنا.

(ج) صموئيل: ولد في قرية الرامة "الرام" التي تبعد ٩ كيلو مترات عن القدس لجهة الشمال الغربي وكان كاهناً تولى القضاء سنة ١١٤١ ق.م. على كل أسباط بني إسرائيل وبقي قاضياً زمناً طويلاً واشتهر بعدله واصلية رأيه وإصابة أحكامه وإخلاصه وأمانته وغيرته على مصلحة أمته وهو آخر القضاة وأول من اجتمعت عليه كلمتهم ثم أوحى إليه بالنبوة. وبعد أن مضى عليهم ٤٠٠-٥٠٠ سنة أدركوا أضرار التفرقة وعرفوا منافع الوحدة والتضامن فاقبسوا من جيرانهم وقلدوهم في ادارتهم ومالوا إلى الحضارة ونسوا البداوة فاتحدت أمياهم وأتفقوا على أن يقيموا منهم ملكاً فطلبوا إلى النبي صموئيل أن يختاره لهم فمسح "توج" شاوول وكان يؤنبه إذا حاد عن سنة الله وشريعته لأن رئيس السلطة الروحية مسيطر على رئيس الحكومة الزمنية .

(د) دبور: كثيراً ما قامت النساء بأعمال خطيرة فظلمهن المؤرخون وغضوا من شهرتهن ولكننا نذكر بعض من أشهر منهم فنقول: كانت دبورة فتاة من سبط إفرايم ومن سكان قرية عطارة عند بناء المعلوف (بين القدس ورام الله) فكانت تجلس تحت نخلة وتقضي لشعبها ثم صارت نبية وقادت الجيوش لما جبن باراق اليهودي عن محاربة سيسرا الكنعاني فجندت عشرة آلاف مقاتل ونهدت بهم إلى جبل طابور شرقي مرج ابن عامر وحاربت الكنعانيين

وكسرت جيشهم وبدت شملهم ولقد حجت شهرتها أسم زوجها لفيدوت حتى أصبح يعرف بها وينسب إليها. أن عمل دبوره هذا لا يقتل عن عمر بواديسيا (Boadicia) البريطانية التي حرّضت قومها ضد الإحتلال الروماني بل يشبه عمل جان دارك الفرنسية التي أخرجت الإنكليز من فرنسا ويمثل مجازفة زنوبيا العربية ملكة تدمر التي قاومت سلطة الرومان واستماتت في حماية بلادها والذود عن ملكها ونظير هؤلاء كثير في النهضة الإسلامية فعائشة أم المؤمنين قادت جيشاً عرموماً وحاربت به علماً في العراق "وقعة الجمل" والفارعة أخت الوليد الشاري وغزاة زوجة شبيب الخارجي واخت ضرار .

(٨) اليهود كأمة:

لما دخل بنو إسرائيل البلاد كانوا فرقاً وأحزاباً لا رابطة تجمعهم ولا عصبية توحدهم بل كانوا منقسمين إلى اثني عشر سبطاً "قبيلة" كل سبط يستمد قوته من نفسه فكان يهددهم أعداؤهم الكنعانيون وبيطش بهم الفلسطينيون ويذلهم المديانيون إلى أن علموا وتحققوا أن لا خلاص لهم إلا إذا اتحدوا وأشتركوا جميعهم في الدفاع عن كيانهم وأن لم يفعلوا آل أمرهم إلى الفناء والدمار .

هذه حالة طبيعية في الأمم متى رأت كيانهما الإجتماعي مهدداً تتحد كلمتها لدفع الضرر العام الذي يشمل جميع أفرادها فإذا زال السبب العامل رجعوا إلى شيمتهم الأولى. مرّ على بني إسرائيل ٥٠٠ عام والدهر يلقي عليهم عظاته ويعلمهم أن لا قيمة للشعب المتخاذل أمام الجمع المتماسك مجبور على

أن يتطور بحسب زمانه فيكثر في زمن كانت فيه الغلبة للكثير ويتعلم في عصر سادت فيه العلماء ويجمع المال في قرن حظي فيه الأغنياء ففقهوا هذه العظة واتفقوا لأول مرة وطلبوا إلى النبي صموئيل أن يختار لهم ملكاً فمسح عليهم شاوول* سنة ١٠٩٥ م أميراً عاماً على جميع إسرائيل وبقي لكل سبط أمير خاص يحكم شعبه خاضعاً للسلطة العليا .

(أ) شاوول: كان أول ملوك الأمة اليهودية ولكنه لم يتخذ مركزاً ولم يختط عاصمة لأن حياته كانت عسكرية وحلقات حروب متصلاً بعضها ببعض فلم تمنحه الأعداء فرصة لتكوين أمته وأحداث لوازمها فكان لا يفرغ من جهة إلا انصرف إلى أخرى ولا يصدر عن غزو قوم إلا غزا آخرين. فحارب العمونيين واستأصلهم ثم قاتل العماليقة والموآبيين والأدوميين وخضد شوكتهم وقلّ حدّهم. أما الفلسطينيون فكانوا خصومه الألداء الذين قاوموه وجاوزوا حدودهم الساحلية وتوغلوا في البلاد العبرانية حتى قرية مخماس الواقعة شمال القدس الشرقي والحواء على العبرانيين فهزموا شاوول وجيشه في مرج ابن عامر فقتل نفسه خوف أن يأسره إخصامه الناقمون عليه. وقد دلت الحفريات الأخيرة في تل الفول أن شاوول لم يحكم إلا جزءاً صغيراً من فلسطين .

(ب) داود: ولد في بيت لحكم وكان له عدة أخوة ثم رعى الغنم في حدائقه وهي مهنة الأنبياء. فإبراهيم وموسى ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم)

* كان شاوول من أصغر أسباطهم وأحد أسرهم وأنما أجمعوا عليه لما كان فيه من الوسامة والجسامه ولأنه كان يفرغ القوم طولاً واشتهر باليسالة والأقدام .

رعوا الغنم وأطلق هذا اللقب الجميل "الراعى الصالح" على السيد المسيح. فكان الله يجرب الإنسان برعاية الغنم قبل إرساله نبياً فإن رآه رؤوفاً أميناً أرسله إلى البشر ولا ريب أن كل راع يحتاج إلى ثقة رعيته التي تطالبه بالإخلاص لها. فإن لم تتوفر فيه هذه الشروط نزعوا منه ثقتهم فعاد بالخسران المبين.

كان داود مخلصاً لرعيته فقتل دَباً وأسدأً على تلال بيت لحم ذباً عن قطيعه. وقتل جليات "طالوت" الجتي زعيم الفلسطينيين دفاعاً عن قومه. وفي إبان فتوته نال ثقة شعبه فكان حاجب الملك "ياوره" وبعد موت شاوول انتخب ملكاً على سبط يهوذا سنة ١٠٥٥ ق.م. وحاربه إيشبوث بن شاوول مع الأسباط العشرة الذين لما أخفقوا في مبتغاهم انتقضوا عليه وقطعوا رأسه وقدموه إلى داود. وبعد سبع سنين ونصف من حكمه توجّ ملكاً على الأسباط كافة وظلت عاصمته الخليل حتى أنتزع القدس عنوة من اليوسيين سنة ١٠٤٩ ق.م. وجعلها مقر مملكته وقضى مدة حياته في الحرب والكفاح يناضل عن أمته ويصد غارات الغزاة ويسكن القلاقل الداخلية والفتوق العائلية لأن المفسدين أغروا أبناءه بشالوم وأطعموه في الملك حتى خرج على والده وحاربه فلاقى جزاء عمله ومات غير مأسوف عليه إلا من أبيه الذي رثاه بشعره الرقيق ونغماته الموسيقية المشهور. ويقال أن قبر داود على جبل صهيون في المحل الذي يسمى "النبي داود" وحارة "الدواهدة" مجاورة لضريحه الشريف. وبعد وفاته مسح ابنه سليمان ملكاً على جميع أسباط بني إسرائيل.

عصر اليهود الذهبي

(ج) سليمان : أن كلمة سليمان مشتقة من سلم ومعناها باللغة الكنعانية "المسلم" ضد المعادي. وبالفعل فإن السلام والأمن سادا طول حياته ومدة ملكه لأن أباه داود كفاه الأعداء بفوزه عليهم وذلك له الصعاب فأسلمه الملك سنة ١٠١٥ هادئاً ساكناً فقام بأعبائه وحول نظره لتوسيع حدود مملكته وبناء مدنيته فتجاوزت ما وراء فلسطين. ويقول كتاب اليهود أن مملكة سليمان امتدت "من الفرات حتى حدود مصر" . فضخمت دولته وعظم شأنه وعقد معاهدات سلمية مع جيرانه ومن حوله من الأمم .

فإذا قابلنا هذه الحالة بحالتهم في عهد جدعون لما كان بنو إسرائيل لا يأمنون على بيادهم وكرومهم من غارة أعدائهم عرفنا فائدة الاتحاد والتآزر.

رعت أيام سليمان وأزهرت حضارتها فكثرت الأموال المقنطرة في خرائه من الجزية المؤداة من خصومه والضرائب التي أثقلت كاهل أمته فانغمس في البذخ والترف فنقمت عليه رعيته هذا العمل ساخطة لتلك الشدة التي كانت من أكبر العوامل الأساسية في انقسامهم إلى مملكتين.

لا ريب أن من أعظم الأسس الاقتصادية لإغناء الثروة هو الأمن الداخلي فإذا أستتب أمنت الناس وتنافسوا في إنتاجها وجدوا في أحداثها ومن تتبع عصر سليمان عرف أن البلاد كانت آمنة مطمئنة ولذلك كثرت الأغنام والمواشي والحجارة الكريمة والرياش الفاخرة والعاج الثمين ولو لم يكن الإنسان أميناً لما استكثر من ملذات الحياة وطيباتها.

أرسل الله سليمان نبياً حكيماً وهذه قصة تبرهن على حسن فراسته وفطنته: سكنت امرأتان في بيت وولدتا في يوم واحد فاضطجعت أحدهما على أنها ليلاً وأماتت فقامت بسرعة وبدلت طفلها الميت بطفل رفيقتها الحي ولما استيقظت أم الولد وجدت الطفل الذي بجانبها ميتاً ولكنه ليس بابنها فغضبت وخاصمت رفيقتها عند سليمان وبعد أن سمع قصص كل منهما فكر قليلاً ثم قال إئتوني بسيف وأمر بشطر الولد الحي إلى قسمين وإعطاء كل امرأة نصفاً فحرّك حنان أمه وقالت أعطوه لها فإني سأحتها به فأجاب سليمان أعطوا الولد الحي لها فأنها أمه وأحق به من غيرها. ويروى أن بلقيس ملكة اليمن قطعت الفيافي والصحراء سنة ٩٢٢ ق.م. رغبة في مشاهدة حكمة سليمان واشتياقاً لرؤية عدله .

وسنة ١٠١٤ ق.م. تزوج إبنة فرعون آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين من الدول المصرية وأعطاهم والدها مدينة جازر "أبو شوشة" بآلة العرس (دوطة) .

ومن أجل أعماله بناء الهيكل الذي صار مهبط آمال الأمة اليهودية وهو شبيه بالكعبة عند عرب الجاهلية من حيث تكوينه الأمة اليهودية وتوحيدها فكما ربطت الكعبة العرب بقريش لكونها قبلتهم كذلك شأن الهيكل عند العبرانيين.

فوجود أثر مقدس بين ظهراي أمة يمهد لها الاتحاد وعدم التفرقة. ولولا المعاهدة السلمية التي عقدت بين اليهود والفنيقيين لما تم بناء الهيكل لأن

الفنيين هم الذين نقلوا إليه الأخشاب من جبل لبنان وساعدوهم في إتقان البناء والنقش والهندسة لأنهم وقتئذ لم يكونوا يحسنون من الصنائع النفيسة شيئاً وقد تم بناء الهيكل في سبع سنوات ويرجح أن أحجاره قطعت من الحجر المسمى مغارة سليمان الآن وهي واقعة تحت المدينة إلى الشرق من باب العمود (راجع تاريخ القدس) .

ومن آثار سليمان الباقية إصطبله الكائن تحت المسجد الأقصى وبرك سليمان الواقعة جنوب بيت لحم وبعض آثار أخرى لا قيمة لها مثل أحجار المبكى فكان هذا العصر خير أيام بني إسرائيل بل واسطة عقد ماضيهم المؤلف من ثلاث خريزات فقط الأولى شاوول والثانية داود والثالثة سليمان وبعد أنظام الخريزة الأخيرة في القلادة أنقطع السمط وتفرقت الكلمة فأنقسمت المملكة وانحدروا في هاوية الانحطاط .

(٩) إنقسام المملكة وخرابها

التاريخ يعيد نفسه ولو أيقظتنا موعظه لما لدغنا من حجر مرتين فإنه ألقى علينا دروساً عملية واثبت لنا مراراً "أن القوة بالاتحاد والضعف مبدأه الانقسام" ولكننا ما زلنا نتغافل عن كل هذا ونؤول الحوادث كما نريد نحن لا كما تريد السنن الطبيعية وربما يستغرب القارئ كيف انقسمت فلسطين إلى مملكتين مع أنها جميعها أصغر وأقل من أن تكون مملكة واحدة ولكن يزول عجه إذا عرف أن سبطي يهوذا وبنيامين عاشا بعيدين عن أسباط إسرائيل العشرة فاختلفت بينهم مذاهبهم واشتجرت بينهم الضغائن وكان كلما بدرت

غنيمة سيما عند تعيين الملوك ينضم يهوذا إلى بنيامين ويختارون ملوكاً من أنفسهم فتغضب إسرائيل لذلك وقد نفروا من شاوول لأنه كان من سبط بنيامين وخافوا بطش داود فاستسلموا إليه مكرهين وأذعنوا إلى سليمان لأنه كان إدارياً حكيماً فضبط جميع إسرائيل وأخلدوا إلى طاعته وفي أواخر أيامه مقتوا حكمه فقسا عليهم وحاول قتل يربعام بن ناباط ففر إلى مصر معتصماً بالملك شيشق وتربص حتى ولي الأمر رجعام الذي كان غراً جهولاً وفضاً قاسياً خشناً فعاشر الفتيان ونبد العقلاء المدربين ونكب عن طريق الحق فسألوه تخفيف ما عليهم من الضرائب والاقلاع عن تبذير الأموال فجابهم قائلاً أنه سيعاملهم بأشد مما عاملهم به أبوه واستمر على المغالظة والجفاء والشدة إلى أن أكبروا عمله وجاهروا بعدائه فسار شيشق من مصر ونزل على القدس فأفتتحها وأختلس أواني الهيكل الذهبية وتوج دخيله يربعام ومن ذلك الوقت انقسمت البلاد إلى مملكتين صغيرتين الأولى "إسرائيل" وهي الواقعة في الشمال من القدس والثانية يهوذا وهي الواقعة بين القدس وبئر السبع .

(١٠) مملكة إسرائيل من سنة ٩٧٥ إلى سنة ٧٢٢ ق.م.

انشطرت البلاد شطرين فكان أول ملوك القسم الشمالي يربعام بن ناباط الذي كبر عليه أن تخرج القدس من مملكته وهي مهبط آمال اليهود وقبلتهم التي يوجب عليهم دينهم أن يحجوا إليها ثلاث مرات في السنة وخاف من الحجاج إن هم أبصروا تلك الآثار الفخيمة وأبهة الملك وعظمته أن تنصرف قلوبهم عنه ويضعف إيمانهم به لذلك عزم على بناء مذبح في بيت إيل لأنه محل

مقدس ليرتاح من هذه الأحلام المزعجة فيأمن على مركزه ويكون قد أَرْضَى بذلك قومه والهاهم عن زيارة القدس وأشغلهم عن التعلق ببلاد عدوه وهذا العمل يشبه ما جرى لعبد الملك بن مروان فإنه بنى الحرم الشريف أثناء ثورة عبداً لله بن الزبير ليستعيض به مؤقتاً عن الكعبة المكرمة وهكذا رجال السياسة وأربابها إذا ضاقت بهم الأمور بعثوا عاطفة الدين وهزوها لتنفيذ مآربهم وبلوغ أمنيتههم. أن يربعم بن ناباط هو أول من نقل عبادة الأصنام والتمائيل من مصر ووضعها في الهيكل لأنه انتحل عبادتها أثناء إقامته بينهم فهو مؤسس عبادة الأوثان وباني حكومة إسرائيل التي تداولها ١٩ ملكاً في مدة ٢٥٤ سنة ولكنهم لم يكونوا من سلالة واحدة بل من أسر شتى وكثيراً ما كان يخرج على الملك قائد أو طامع فيختلس الملك منه ويغتصب عرشه ويستبد بالأمة وهذا منتهى الفوضى والخلاف الذي به تنقرض الأمم فإذا قابلنا نظام الحكومة الإسرائيلية بغيرها من الحكومات جاز لنا أن نقول أنه قام في المملكة الإسرائيلية تسع حكومات لأن كل ملكين كانا من أسرة واحدة فمتى كان ينقرض بيت الملك الأول انتقل إلى أسرة أخرى فيكون معدل حكم كل ملك منهم ثلاث عشرة سنة.

وأي عمل أدل على أنهم لا يصلحون للإدارة والسياسة من كونهم لم يجمعوا على رأي قط بل قضوا حياتهم في الانقسامات والقلقل وفساد النظام. وكانت عاصمة إسرائيل تلوزه ثم نقلوها إلى شكيم فكانوا يصيفون بها ويشتون في يزرعيل "زرعين" فلما ولي الملك عمري أسس مدينة السامرة "سبسطية" وجعلها العاصمة وهي الآن بلدة حقيرة شمالي مدينة نابلس .

لم يكتف اليهود بالانقسام فقط بل طفقوا يناوئون بعضهم بعضاً فمملكة الشمال كانت تجرد جنودها وتهاجم مملكة الجنوب وقد وصلت مرة إلى الرامة "الرام" وحصرت حصنها ولقد بلغ من حقد إسرائيل أن حالفت مملكة آرام في دمشق على محاربة يهوذا ومما هو جدير بالذكر أن إسرائيل تركوا عبادة الله وصبوا إلى عبادة الأوثان المصرية وأصنام أهل البلاد سيما لما اقترن آخاب بالأميرة الفينيقية إيزابل بنت الملك إيثعل الصيدوني فأنها شجعت الناس على عبادة آلهة قومها كبعل وعشروت فعبدوها واستبدلوا الذي هو خير بالذي هو أدنى إلى أن تلاشت مملكتهم لما عجزت عن رد سيل المملكة الآشورية الجارف التي ابتلعها لقمة سائغة وهدمت عاصمتها وأسرت رجالها ونقلتهم إلى نينوى فانقرضت مملكتهم سنة ٧٢١ ق.م. بعد أن حكمت قرنين ونصف .

(١١) السمرة:

قدماً كان أسلوب الاستعمار يختلف عما هو اليوم فكان الملوك إذا غضبوا من أمة حاربوها فإن ظفروا بها يسبون زعماءها وأغنياءها ومفكريها إلى بلادهم ويستبدلونهم بأبناء مملكتهم حتى لا يمضي نصف قرن إلا اندمج كل من سبي بمن حولهم فيعتنقون لغتهم ودينهم وعاداتهم ويصبحون جزءاً منهم ويكون قد ثبت وأفرع من أرسلوهم فتصبح البلاد بلادهم والأهالي شعبهم وهكذا فعل شلمناصر بمملكة إسرائيل فإنه نقل سكانها إلى العراق وأرسل السمرة مكانهم وحذا حذوه أسرحدون فلو إنهما نجحا في خطتهما لصارت فلسطين بقعة من العراق. كان السمرة يدعون كوئين أو كوفيين

لأنهم أتوا من الكويت كما روى ذلك الأب إنسطاس الكرمللي في المشرق
السنة السابعة العدد العاشر وكانت ديانتهم الوثنية ولما سكنوا مدينة السامرة
أنتسبوا إليها فصاروا سامريين وكان عددهم غير معلوم إلا أنهم يقدرون
بعشرين ألف نفس.

هبطوا البلاد ولم يكن فيها سوى الفقراء فأسسوا أمة قوية وكتلة متينة
وقد ثقل عليهم عودة بني إسرائيل فوشوا بهم إلى ملوك الفرس وعارض
رئيسهم سنبلط نحميا عندما حاول بناء سور أورشليم .

وقد حاربوا فسباسيانوس الروماني فأباد أكثرهم. وبعد ما رجع اليهود
من السبي وشرعوا في بناء القدس وترميم الهيكل قاومهم السامرة مقاومة
عيفة. واشتدت العداوة بين اليهود والسامرة حتى أن اليهودي كان إذا أراد
السفر من الناصرة إلى القدس ذهب إلى الغور ومنه إلى القدس كي يتجنب
بلاد السامرة الذين أصبحوا نجسين في نظر اليهود وتظهر هذه العداوة من
حديث المسيح مع المرأة السامرية على بئر يعقوب .

وأما السامرة اليوم فلا يزيد عددهم عن مئة نفس يعيشون في مدينة
نابلس ولا يخالطون أحداً. وهذا أكبر عامل في إنقراضهم لأنهم يقلون كل سنة
عن العدد السابق. ويقوم السامرة كل سنة بتقديم ذبيحة الفصح على جبل
جرزيم. ويدعون إنهم هم شعب الله الخاص لا اليهود. وديانتهم وكتبهم
المقدسة تشبه ديانة اليهود وكتبهم إلا أنها تختلف في نقط معدودات .

(١٢) مملكة يهوذا من سنة ٩٧٥ ق.م. - سنة ٥٨٦ ق.م.

كانت مملكة يهوذا مؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين ولكنهم كانوا أبطالاً أشداء فحافظوا على إستقلالهم أكثر من إسرائيل بمائة وخمسين سنة وإذا تتبعنا دقائق التاريخ لتحرى عن أسباب إنقراض إسرائيل قبل يهوذا نجدها كثيرة منها:

١- تقول التوراة أن إسرائيل ترك عبادة الله وأنصرف إلى عبادة الأوثان فعجل في هلاكهم .

٢- من يدرس التوراة يجد أن سبط يهوذا عرف بالقوة وأشتهرت مشاته لوعورة بلاده كما أمتازت إسرائيل بفرسانها لسهولة أراضيها ووقتئذ كان على المشاة المعول .

٣- الموقع الطبيعي: لو قابلنا القسم الشمالي بالجنوبي نرى الثاني أحسن موقعاً وأعسر مسلكاً وأمن الدفاع فالوصول إلى القدس من الشرق والغرب أو من الجنوب أو الشمال أصعب بكثير من مجابهة السامرة المفتحة الأبواب والتي يكتنفها من الغرب سهل طول كرم ومن الشمال مرج ابن عامر فكأنها كانت محطة سهلة في طريق الحكومات المصرية والعراقية في غدوها ورواحها على أن القدس كانت بمعزل ومأمن من كل ذلك فلا يأتيها إلا من يتقصدها .

٤- تأثير العوامل الاجتماعية والأدبية: امتزجت حكومة السامرة بالأجانب وأقتبست عاداتهم ومالت إلى الحضارة ففرقت وحدتهم وتهدمت

جامعتهم وأضحلت مملكتهم وتلاشت قوميتهم .

٥ - إدعاء الكهنة أن الحضارة كفر فسمموا أفكار العامة وهاجروا إلى مملكة يهوذا وتبعهم خلق كثير فقويت بهم يهوذا وضعفت إسرائيل .

٦ - طمع الزعماء في العرش وتهجمهم على اغتصابه حتى أصبح سلعة يتناولها القوي ويأخذها القدير فينخلع الضعيف ويحرم الجبان ولا حاجة إلى الإسهاب في ذكر هذه المملكة لثلا يملّ المطالع ومن أراد التفصيل فليراجع التوراة "سفري الملوك الأول والثاني" فأنهما أتم وأوسع ما ورد في هذا الباب. كان أول ملوكهم رحبعام بن سليمان وظل بيت الملك يتحدّر من هذه الأسرة حتى إنقراض المملكة فتولى منه عشرون ملكاً. وإنما تقادت يهوذا لهذه الأسرة لكونهم ألفوا الحكم وانتخب منها ثلاثة ملوك متتابعة قبل إنقسامهم فالإعتراف بإبن ملك مشهور أسهل من الخضوع إلى ملك جديد. قضت مملكة يهوذا معظم أيامها في الحروب والقتال لأن كل جيرانها عالنوها وناصبوها العداء فلم تك لتكثرث بهم بل أنها كانت تخشى حكومتي مصر وبابل المتناظرتين والطامعتين في إخضاع سكان فلسطين الذين لم يكن لهم مناص من أتباع إحدى الدولتين لأهمية موقعهم الطبيعي ولكون الحكومة التي كانت تسيطر عليهم كانت تهدد الأخرى التي لا تقرر عينها إلا باستخلاصها من المتغلبن فكان سكان فلسطين إذا انحازوا إلى مصر تغضب عليهم بابل وتغزوهم فتقهرهم وتخضعهم إليها فتحقد عليهم مصر وتسومهم سوء العذاب وهكذا ظلوا ضعفاء

لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فإذا إلتجأوا إلى دولة سخطت عليهم
الآخري وانتقمت منهم. روي أن الملك آحاز أستعان بتغلث فلصر ملك
أشور على قريبه وجاره ملك السامرة إنتقاماً منه لكونه اتحد مع رامين
ملك دمشق لمحاربتة فأعانه تغلث فلصر وخرّب دمشق ثم ضرب الجزية
على مملكتي يهوذا وإسرائيل. فندم آحاز وقلب سياسته وعصى ملوك
أشور بالمصريين فغضب سنحاريب وساق جيشاً جراراً فحاصر القدس
وعسكر بقرب بركة ماملا حتى أذعنوا لحكمه وأعطوا الجزية ولكنهم لم
يفتحوا له المدينة .

أن من تتبع مجرى سياسة يهوذا يجدها تشبه سياسة بعض الدول الحاضرة
الضعيفة التي بينهما نراها اليوم حليفة دولة فإذا هي عدوتها غداً فكأن
المصلحة والفائدة هي العامل الأكبر في تقلب هذه الأحوال فإن مملكة يهوذا قد
انحازت في عهد صديقا قبيل إنقراضها إلى ملوك مصر والتحقت بهم فلما
استعلت بابل على الحكومة المصرية وانتصرت منها سلخت عنها سورية
وفلسطين وضممتها إليها وأتي نبوخذنصر إلى أورشليم ونفى الأشراف وقادة
الرأي في المملكة اليهودية إلى العراق آملاً أن يكون ذلك خضوعاً تاماً لا نزاع
بعده ولكنه لم يمض بضع سنين حتى انتقض اليهود وقلبوا سياستهم ومالوا إلى
مصر فإستشاط نبوخذنصر غضباً من خيانتهم وتلونهم وساق عليهم جيشاً
كبيراً فحاصر القدس ١٨ شهراً وأحتل المدينة عنوة وأعلن الحكم العرفي
فهرب ملكها صديقا إلى أريحا ولكنه لم ينج منهم فأسروه ثم أحرقوا وهدموا
الهيكل ونهبوا أثاثه وسبا أكثر السكان إلى بابل ولم يتركوا من اليهود إلا

الصعاليك وشذاذ الآفاق فأقام عليهم نبوخذنصر جديلاً حاكماً وأسكنه في المصفاة "قرية النبي صمويل" .

فأصبحت البلاد مستعمرة بابلية تقاسي من الظلم أنواعاً فغلا الحقد في نفوس اليهود وهب رجل يهودي اسمه إسماعيل بطائفة من الأشرار الذين كانوا مهاجرين في بلاد عمون فجاسوا خلال فلسطين وقتلوا الحاكم جديلاً وهربوا إلى مصر خوفاً من هجمات بابل المستقبلية وهنا يمكننا أن نقول أن جد اليهود خرج من العراق فمر بسورية وفلسطين وبادية التيه ثم رجع بذريته إلى وطنهم الأول العراق .

لقد سكن اليهود في فلسطين من ١٤٠٠ ق.م. - ٥٨٦ ق.م. أى نحو ثمانية قرون ولكنهم لم يستقلوا مدة إقامتهم إلا وقتاً قصيراً كانوا يختلسونه من ضعف واضطراب القوتين الكبيرتين في دلتى دجلة والنيل ويعلنون إستقلالهم ومع ذلك فلم ينجوا من تحكم مصر وبابل وكانتا تتكلان بهن وتسلبانهم إستقلالهم كلما سنحت الفرصة وقد ظلوا حياتهم خاضعين لجيرانهم فيدفعون الجزية وتنفذ فيهم أوامرهم وكان يكتسحهم من يخالفونه ويحمل ما لديهم من خيرات عائداً بها إلى بلاده. أما السبب الأكبر في انقراض المملكة اليهودية فهو تفرق الكلمة واعتزالهم جيرانهم وعدم امتزاجهم بغيرهم سيما في المعتقدات الدينية التي لم يحافظوا إلا على قشورها فقد عبدوا الأصنام ونسوا الوصايا العشرة وتشددوا في تعصبهم اليهودي واعتقادهم أنهم شعب الله الخاص فقط وزد على ذلك إستحكام النفرة بين الأسر التي عملت على انحلال الأمة

وهلاكها وهل ترجى حياة أمة قبل إصلاح أفرادها .

(١٣) بعض أنبياء اليهود في فلسطين:

لقد ورث الإنسان الأخلاق الفاضلة والسجايا الحسنة منذ القدم فسارت معه وكان كلما عرض عليها الفساد ودب فيها الشر أهاب بها داع من الله ينادي بالإصلاح فيخوف العصي بعذاب جهنم ويعد الصالح بالخير العميم فكان الأنبياء في ذلك العصر دعاة الإصلاح ووسطاء بين الله وشعبه بل متشرعوا العزة الالهية ورسلها الذين حفظوا بشرائعهم الأدبية أكثر من القوانين المدنية التي زادت الجناة ولم تصلح منهم شيئاً .

لا ريب أن رجال الدين لعبوا في العصور الأولى أدواراً هامة لما كانت الممالك "ثيوقراطية" وكان الملك هو الكاهن والحاكم والسلطان وما زالوا فصولاً من تلك الرواية المخزنة في عصرنا الذي انتشرت فيه مبادئ العلوم الصحيحة وإنفصل الدين عن السياسة. كان اليهود يسمون النبي رائياً "يرى المستقبل" ويعلم الغيب فيستشيرونه في نتيجة الحرب ويستوضحونه عن حيوان فقد وشخص مرض كما كان يفعل الرومان واليونان مع كهنتهم فهتف أنبياء إسرائيل يبشرون بأنهم شعب الله الخاص وأنهم أفضل البشر كافة فيوبخون من ارتكب الشر ولو كان ملكاً ويحضون على عمل الخير وعبادة الله الواحد الأحد. وقد نجحت دعوتهم فرفعوا قومهم من الحياة الدنيئة إلى الحياة السامية الشريفة وها نحن ندرج أسماء بعضهم .

(١) ناثان: لم يعد من الأنبياء العظام بيد أن له وقفة رهيبة مع الملك داود لما

شغف بأمرأة أوريا الحثي وطمع فيها ففرق بينها وبين زوجها وأرسله إلى الحرب ثم تزوجها فأتاه ناثان ووبخه على شرهه وظلمه فأعترف بذنبه وقد وردت هذه الرواية في التوراة سفر صموئيل الثاني والإصحاح الثاني عشر وأيدها القرآن الكريم سورة "ص" الآية ٢٣-٢٥ .

(٢) إيليا أو إلياس: ولد شرقي الأردن وقضى حياته في نشر تعاليمه داخل تخوم المملكة الشمالية وقد جاهد في محاربة الأوثان وقاوم الملكة إيزابل الفنيقية زوجة آخاب ملك إسرائيل التي حاولت تعميم عبادة الأوثان وابتدعت لليهود ديانة جديدة فأخذ يفسد عليها عملها ويبرهن على الحادها وسخافة آهتها إلى أن سخطت عليه ففرّ إلى المملكة الجنوبية واجتاز القدس وإستراح برهة في محل "مار إيلياس" الواقع بين القدس وبيت لحم ثم نزل بئر السبع. وقد ورد في التوراة أن الله أمره أن يذهب إلى نهر كريت "واد الفلت" وهو محل يكثرفيه النساك وزاهد الدنيا ومن شاء التوسع فليراجع سفر الملوك الأول ص١٧، ١٨، ١٩".

(٣) عاموس: أن في سرد حياة هذا الرجل مغزى وعبرة لخاملي الذكر والنفس لأنه ولد في قرية تقوع من بلاد الخليل وإبتدأ حياته برعاية المواشي وكان يقول "لست نبياً ولا ابن نبي بل أنا راع وجاني هميز فأخذني الرب من وراء الضان وقال أذهب وتنبأ لشعبي إسرائيل" فامتازت تعاليمه بصفاتها إجتماعية لأن بني إسرائيل كانوا منهمكين في لذاتهم ورفاهيتهم ومعاقرة الخمور والخلاعة والزنى بل أقترفوا جميع الرذائل والموبقات فذهب إلى بيت أيل

وحذر قومه وأنذرهم بالعقاب إن لم يقلعوا عن المعاصي والشهوات ويرجعوا إلى عبادة الله الحق فيكسروا الأصنام ويحطموا التماثيل ومن أعظم صفاته أنه كان يجابه الملوك والأشراف ويؤنبهم ويظهر لهم خطاياهم ويجهر بالحق ومن قوله "بغضت وكرهت أعيادكم، وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم" هؤلاء بعض أنبياء اليهود الذين تنبأوا في فلسطين ومنهم أشعيا الذي عاش في القدس وشهد حصار سنحاريب لها وكان يحرض قومه ليتكلوا على الله دون البابليين ومنهم أرميا الذي ولد في قرية عناتا وهي تبعد خمس كيلو مترات إلى الشمال من القدس وكان يقف على جبل الطور ويرثي أورشليم بأقوال مشجية وقد شاهد جيوش نبوخذ نصر تهدم وتحرق القدس وأسوارها وهيكلها وكان من رأيه أن يحالف اليهود البابليين ويباعدوا المصريين فلم يسمعوا منه حتى كان ما كان من إضمحلال الدولة اليهودية. ومن تتبع تاريخ اليهود في جميع أدوارهم الدنيية يجد أنهم لم يكونوا راسخي العقيدة في التوحيد لأنه ما غاب عنهم موسى أربعين يوماً حتى عبدوا العجل إله المصريين ولما سكنوا فلسطين جنحت نفوسهم إلى عبادة أصنام الكنعانيين والفينيقيين والمصريين وصاهروهم مع أن دينهم يمنع ذلك. وكانوا يسمحون لنسائهم بعبادة الأوثان في بيوتهم فلو كان اعتقادهم متيناً لتغلبوا على غيرهم ولفنوهم ديانتهم وصبغوهم بصبغتهم كما فعل المسلمون.

الفصل الثالث

من نبوخذ نصر إلى بومبي

(١٤) فلسطين في يد الفرس من سنة ٥٣٩ ق.م. - ٣٣٢ سنة ق.م.

غزا الآشوريون فلسطين وافتتحوها فلما سقطت مملكتهم قام مكانها البابليون الذين سبوا اليهود إلى العراق ولما استوى كورش الكبير على العرض أسس على أنقاض الدولتين مملكة الفرس والحق بها فلسطين وسمح لليهود سنة ٥٣٦ ق.م. بالعودة إلى بلادهم الخربة لأنه طمع في فتح مصر والمغرب وأيقن أنه لا يتحقق له هذا الحلم الجميل إلا إذا أرجع اليهود إلى بلادهم ليكونوا له عوناً يتكئ عليه أو مدخراً يستمد منه ما يلزمه لفتح الأقطار التي ينزع إلى استملاكها. فظل حلمه أضغاثاً حتى قام كمبيز وصدق رؤياه ففتح مصر وضمها إلى سلطنته ولعل السبب الذي حمل لويد جورج وبلفور ليعطيا فلسطين وطناً قومياً إلى اليهود هو عين الغاية التي رمى إليها كورش .

طال العهد بفلسطين وهي تابعة للفرس تدفع لهم الرسوم والضرائب وتسهل لجيوشهم الطريق إلى مصر وتقدمهم بالزاد والعلف حتى تم لهم فتح إفريقية وأخضعوا بابل العظيمة ومملكة ليديا في آسيا الصغرى فكأن فلسطين كانت حلقة مفرغة ترتبط بها حلقات أخرى فلما انفصمت تداعت منها كل الحلقات فالتقطها ملوك فارس واستولوا على ممالك الشرق الأدنى في آسيا

وأفريقية ثم نهموا إلى امتلاك أوروبا فحاربوا اليونان في آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وتغلغلوا في بلادهم. وبعد معارك هائلة سطرته التواريخ القديمة معجبة بشجاعة اليونان الممتازة في معركتي ماراثون وثرموبيلي غلب الفرس وانقلبوا مخذولين وهؤلاء عظماء ملوكهم الذين حكموا فلسطين .

كورش ٥٥٨ ق.م - ٥٢٩ ق.م

كمبيز ٥٢٩ ق.م - ٥٢٢ ق.م

داريوس ٥٢٢ ق.م - ٤٨٦ ق.م

زركسيس ٤٨٦ ق.م - ٤٦٥ ق.م

وقد قام غيرهم من ملوك الفرس ولكنهم لم يحدثوا حدثاً ولم يبرزوا عملاً يستحق الذكر فطوينا أيامهم وأخبارهم .

(١٥) اليونان في فلسطين ٣٣٢ ق.م - ٦٣ ق.م

تعدى ملوك الفرس على البلاد اليونانية فايقظوا همة الفاتح الكبير إسكندر المكدوني واهبوا عزيمته فهجم بجيوشه على آسيا وتشوف إلى إمتلاك الشرق والتغلب عليه فكان بدء تنازع شديد بين الفرس حماة الشرق واليونان أبطال الغرب الذين قوضوا ممالك آسيا الغربية واستولوا على أقطارها وحكموا في أهلها بما لا يقاس على ما تقدمه من الفتوحات لأن الحكومات الأشورية والبابلية والمصرية كانت تكتفي بجباية الجزية والخضوع السياسي فقط. أما الحكومة اليونانية فكانت ترمي إلى غاية أسمى وأعظم وهي نشر مدنيته في

الشرق وتلقيح العالم بالأفكار اليونانية والمبادئ الهلنسية Hellenism "هلنزم" .

ولا بأس إذا تجاوزنا حدود فلسطين وذكرنا بإيجاز سيرة الإسكندر منذ نشأته لئلا يكون الكلام مبتوراً فنقول: ولي الملك وهو فتى لم يتجاوز العشرين ربيعاً فساد أثينا ومدن اليونان كافة وهاجم الفرس في ضفة جناق قلعة على نهر غرانيكوس الذي يصب في بحر مرمره فكسرههم وتبعهم إلى شمال سورية قرب خليج إسكندرونه في سهل اسوس وهزمهم شر هزيمة ففر داريوس وترك عائلته وذويه ولكن البطل الإغريقي تربص ولم يتعقب فالة الجيش وأتجه جنوباً إلى بلاد فنيقية ليفتحها ويستعين بسفنها على مدينة صور وكانت آنذاك على جزيرة فطم البحر ووصلها بالبر وبعد حصار دام سبعة شهور فتحها عنوة وإنقزم من أهلها ثم سار جنوباً فسلمت إليه كل البلاد إلا غزة فإن حاميتها العربية قاومتة وصدمته ولكنها خضعت أخيراً فنكل بها .

الإسكندر في القدس

قال المؤرخ يوسيفوس أن الإسكندر ذهب لفتح القدس فقابلته رئيس الكهنة على جبل سكوبس فرحب به الإسكندر وطلب إليه أن يسلمه المدينة فرفض معتذراً أن البلاد فارسية وقد أقسم أهلها يمين الطاعة للفرس فلا يسلمون المدينة إلا بأمر من ملكهم فأكرمه الإسكندر وقدم هداياه إلى الهيكل فإغتاظ أتباعه من هذا الرفق واللين. ولكن هذه الرواية تفتقر إلى اثبات. أما الأستاذ بورتير فقال أن الإسكندر صعد إلى أورشليم ودخلها بوقار واحترام ولم

يضرّ بأهلها وقد استأنف منها السير إلى مصر ففتحها وخلد اسمه ببناء مدينة الإسكندرية ثم كرّ راجعاً ليجهز على الفرس فالتقى الجيشان في أربيل "أربل" شرقي دجلة وجنوب نينوى عاصمة الأشوريين ففرق شمل الفرس وبدد جيشهم وهدم مملكتهم وسجلت هذه المعركة الفاصلة خضوع الشرق لليونان. في ثلاث معارك فقط الأولى غربي الأناضول والثانية قرب خليج الإسكندرونة والثالثة شمال العراق هدم الإسكندر مملكة فارس وشاد على انقاضها إمبراطورية يونانية حديثة شهدت له بالتفوق الفكري والنبوغ العسكري وأنه من أعظم القواد المشهورين مثل يوليوس قيصر وهنريال وخالد ابن الوليد وصلاح الدين الأيوبي ونابليون إلا إنه يمتاز عن غيره ببعده نظره ونزعه إلى مزج الشرق بالغرب وتوحيد العائلة البشرية وقد توخى طرقاً كثيرة لتحقيق أمانيه نذكر هنا أجلاها .

(١) الزواج: تزوج الإسكندر بآبنة داريوس وشوق قواده وأجبر رجال على الاقتزان بالشرقيات .

(٢) تعميم الروح اليونانية: فإنه أمر بنشر شعرهم وفلسفتهم وعاداتهم والبستهم ومسارحهم وفنونهم وألعابهم وآدابهم ولغتهم .

(٣) تجنيد عساكر فارسية وإدخالهم في جيشه وصبغهم بالصبغة اليونانية مما أغاظ عساكر مكدونية وحملهم على ترك الجيش ناقلين .

(٤) مبادلة الأشجار والنباتات الشرقية بما يماثلها من المزرعات الغربية. وقد نجحت هذه الخطة التي كانت تصدر من مدينة الإسكندرية منهل العلم والأدب والشعر وتوزع على الأقطار.

فانتشرت اللغة اليونانية في الشرق قبل المسيح وبعده حتى أن المثهبين كانوا يفتخرون بمعرفتها كتابة وتكلماً حتى أن بعض الأناجيل كتب بلغة سقراط وأفلاطون وأرسطو ولم يكتب بالعبرانية .

ورث الرومانيون فلسطين عن اليونان وعجزت لغتهم اللاتينية عن مباراة اللغة اليونانية التي كانت تشبه في ذلك العصر اللغة الفرنسية والإنكليزية في أيامنا هذه . وأن بين أعمال الإسكندر و نابوليون لمشابهة كبرى لأنهما جاهدا في تنشيط العلم وسعيا في فتح الشرق واستعماراه وحاولا الامتراج بأهله والتقرب منهم .

(١٦) السلوقيون والبطالسة

توفى الإسكندر في بابل سنة ٣٢٣ ق.م وهو في الثالثة والثلاثين من عمره بينما كان ذاهباً لفتح السماء كما زعم فذهب ولم يبق منه إلا شهرته الخالدة وذكره الطيب . فاقسم قواده الأربعة الإمبراطورية بينهم ولا يهمننا منهم سوى سلوقس حاكم سورية وبطليموس ملك مصر لتناوبهما الحكم في فلسطين . أن في التاريخ عبراً مفيدة ومن لم يستفد من هذه العظات فهو ضعيف خامل ليس بأهل للحياة لأن الدهر سفر عظيم صفحاته الأيام ومواده الحوادث . فإذا استقصينا ماضي الفرد والأمة أو الإقليم نجده سواء تتوالي عليهم أحوال متشابهة وحوادث متماثلة فكأنهم يسرون حول دائرة إذا إنتهوا من الدورة الأولى إبتدأوا في الأخرى وهكذا دواليك فالذي لا يزرع شيئاً لن يحصد شيئاً ومن فاته عمل فليتعوض من سواه ولكن فلسطين لم تنتبه لهذه الحقيقة وكانت

كرة تتلقفها العراق ومصر وسورية فتهدمها تارة وتحطمها طوراً وإذا فلتت من واحدة خطفتها الأخرى. فلما التحقت بمصر كما كانت في أيام صحتيس تسامحت معها الحكومة ولم تتعرض لتقاليد الأهلين وأذنت لرئيس الكهنة أن يظل حاكماً دينياً وسياسياً كما كان. وفي هذا العصر ترجمت الكتب المقدسة من اللغة العبرانية إلى اليونانية. فإن بطليموس فيلادلفوس "محب العلم" أخذ سبعين عالماً يهودياً إلى مصر لترجمة التوراة فأحسنوا صنعهم وجاءت طبق الأصل في دقة التعبير وقوة المعنى. ولكن سيطرة مصر على فلسطين لم تدم غير قرنوربع لأن أنطيوخوس الرابع ملك سورية ضمها إلى مملكته سنة ١٩١٨ ق.م بعد معارك قاسية إنتهت بفوزه على الدولة البطليموسية. والغريب هنا أن أهالي فلسطين انقسموا على أنفسهم فبعضهم حاول الانضمام إلى مصر والآخر أراد البقاء مع سورية. وكذلك كانت الحالة في عهد نبوخذ نصر فإنهم انشطروا إلى شطرين أحدهما يطلب سورية والثاني مصر. وإذا قابلنا تلك الحالات بأيامنا الحاضرة نراها متماثلة فإن المؤتمر الفلسطيني الأول المنعقد سنة ١٩١٩ ق.م. انقسم أعضاؤه إلى قسمين طلب بعضهم الالتحاق بمصر والآخرين أرادوا الانضمام إلى سورية. ولو أمعنا النظر قليلاً لوجدنا أن فلسطين لم تستفد من الانشقاق القديم والانتقال شيئاً لأنها كانت تنتقل من نير إلى نير أو من حكم مصر إلى حكم سورية وكلاهما دولة يونانية على أن البطالسة كانوا يراعون شعور الوطنيين أكثر مما فعله السلوقيون .

(١٧) المكابيون:

المكابيون أسرة تنتسب إلى بطل يهودي يسمى يهوذا ويلقب بمكابيوس

وهو جدير بالاحترام لما أظهره من الوطنية وأبداه من الجرأة فاهب بحماسته
صدور بني قومه وأشعل الثورة العامة لدفع ظلم الدولة السلوقية اليونانية
والحركة المكابية مثال من الأمثلة المسطرة في بطن التاريخ والدالة على أن
الروح الوطنية الحقة إذا اختلجت في الصدور لا يقف أمامها قوة ولا يضعفها
بطش وأوضح برهان على ذلك أن شرذمة يهودية غير منظمة قاومت الجيش
اليوناني السوري وانتصرت منه لأن أفرادها أخلصوا في عملهم واعتقدوا
بصحة قضيتهم واستماتوا في سبيل تحقيقها لما رأوا أن أنطيوخوس عبث بهم
وبتقاليدهم واستصغر بلادهم وباع وظيفة الخبر الأعظم إلى يشوع أخي أونياس
اليهودي الذي كان مولعاً بالعادات الغربية وريب المدينة اليونانية فكان ماقثاً
لتقاليد قومه والذي افتتح أعماله بتغيير اسمه يشوع بإسم يوناني ياسون وروج
الملاهي والألعاب والعادات اليونانية المكروهة عند قومه فحسده أخوه أونياس
وذهب إلى أنطيوخوس وشرى منه الرتبة الخيرية بأكثر مما شراها أخوه فعينه
بعد أن عرض عليه شروطاً مجحفة بحق أمته وقبلها اسمه أونياس بمنلاوس. فعمل
أنطيوخوس مع الأخوين يشبه عمل الوزير ابن خاقان الذي كان يعين الوالي
فإن زاد عليه أحد عزل الأول وعين صاحب الزيادة حتى قال فيه الشاعر .

وزير قد تكامل في الرقاعة يولي ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهل الرشى صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة
ولما رجع منلاوس لاستلام وظيفته أبى أخوه أن يسلم إليه المدينة فتحاربوا
ولم يتمكن أحدهما من قهر الآخر فجاء أنطيوخوس من مصر وأعلن الحكم
العرفي فأباح المدينة ونهب الهيكل وعين قائده فيلبس الجائر حاكماً عاماً عليهم

وكانت هذه الضربة أول وميض الشدة والجبروت الذي شرع أنطيوخوس يتمادى في أذكائه فأمر بالغاء الدين اليهودي من أصله وأكرههم على عبادة الآلهة اليونانية وأمر بنصب تمثال لزفس ومذبح في الهيكل لتعز الخنازير عليه وأرغم اليهود على مشاركتهم في طقوسهم وحظر الاختتان وإضطرهم إلى الشغل يوم السبت وكان يجازي كل من خالف أوامره بالقتل وهذا غاية العسف ونهاية الشدة فلما بلغ الظلم أشده لم يصبر عليه اليهود ونهض الكاهن متاتياس وهو من قرية مودين "المدينة" الواقعة شرقي اللد واعتصم بقريته وأخذ معه بنيه الخمسة ومنهم يهوذا مكابوس "جد المكابيين" وبينما كانت الثورة تحتمر في قلبه شعر بدبيب الهمة في نفسه واشتداد العزم بين جوانحه فطفق يبحث عن طريق الخلاص لأمته وإذا برسول يوناني قدم عليه ليكره الأهالي على عبادة الأوثان فغضب الكاهن وفتك به وحرّض الشعب على خلع طاعة اليونان فناوهم مدة ثم خلفه ابنه يهوذا فحارب السلوقيين وظفر بهم في مواقع كثيرة كمعركة بيت عور بين اللد ورام الله وبيت صور قرب مدينة الخليل وكانت النتيجة فوز الوطنيين على الأجانب وتخليص البلاد من الدخلاء فتولى المكابيون الإدارة من سنة ١٦٧ ق. م. إلى سنة ٣٧ ق. م. فلما رجعوا إلى سيرتهم الأولى وشجر بينهم الخلاف والنزاع أخذوا يستعينون بمن حولهم من الملوك فالتجأ هركانوس إلى الحارث العربي ملك بطرا "الحجر" واستصرخه على أخيه أرسطبولوس فلباه وسار لنصرته بخمسين ألف مقاتل وحاصر أورشليم ولكنها لم يتوفق .

الفصل الرابع

الإحتلال الروماني من بومبي إلى عمر بن الخطاب

ورث الرومان "أجداد الإيطاليين" مملكة اليونان ومدنيتهم في الغرب والشرق ونحن نكتفي من هذا البحث بما يتعلق بفلسطين ضارين صفحاً عن أسباب سقوط اليونان وتغلب الرومان فنقول أنه ظهر في فلسطين قائد روماني يدعى بومبي فاكثسحها وقضى على الحكومة اليونانية السلوقية بلا كبير عناء لأن البلاد كانت فوضى فالكلمة متفرقة والأحكام جائرة والحكام منهمكون في ملذاتهم .

دخل بومبي دمشق فخف لإستقباله زعيماً اليهود الشقيقان هركانوس وأرستبولوس غصنا الأسرة المكابية الشهيرة وسعى كل منهما ليكون والياً على فلسطين ولما أن تشاغل عنهما بومبي ولم يصغ لقولهما ظنَّ أرستبولوس أنه جفاه وحده وأمل أخاه فشرع يستعد لمحاربة اليونان ولكن نتيجة عمله كانت وخيمة فزحف بومبي بجيشه إلى القدس وحصرها وفتحها عنوة وولى هركانوس والياً عليها خاضعاً للسلطة الرومانية وأمر بإلغاء الجمع العام وقسم البلاد أقساماً خمسة وجعل لكل منها مجمعاً خاصاً تديره نظارة رومانية .

(١٨) هيرودس:

عاش هيردوس في عصر الرومان كيوليوس قيصر وبومبي وأنطونيوس أما

أبوه أنيباس فمختلف في أصله والأرجح أنه كان أدومياً ومن رجال هركانوس وأعوانه المقربين فدفع به جده وهمته العالية إلى أسمى الدرجات وساعده على ذلك انقسام الأسرة المكابية على نفسها ولما اختلف بومبي ويوليوس قيصر تربص حتى رأى رجحان كفة الثاني فسار بجيش إلى مصر وعضده يقال أنه لولا إنتيباس لما فاز قيصر في معاركه على أنه قتل غير مأسوف عليه. أما ابنه هيرودس فكان رجل حرب شجاعاً مقداماً قوي الإرادة ذكياً حاذقاً نزوعاً إلى العلى توفرت فيه شروط الإدارة وكان عسوفاً يضحى أعظم شئ لنيل غايته وتأييد عرشه سفاكاً فتاكاً فظاً قاسياً فقتل زوجته مريمنة لما وجد منها العطف على قومها وبني جنسها وهو المتدله بحبها وقتل من بنيه ثلاثاً وأمر بقتل أطفال بيت لحم. وكان إذا أراد أمراً فمانعه فيه أحد فتك به ولو كان من ذويه. ولما عين والياً على الجليل كسب ثقة بومبي بحسن سياسته فأمره أوغسطس قيصر على اليهودية فقضى على سلطان المكابيين وابتدأت به الدولة الهيرودسية وقد حاول أن يوفق بين اليهود والرومان ليكون بنوه خلفاءه من بعد فلما حبط مسعاه شايع الرومان وساعد على توطيد حكمهم في فلسطين فأخضع الأمة اليهودية التي أقلقت راحة رومية بثوراتها واضطراباتاتها وله أعمال شاذة في سياسته تأتي على بعضها.

(١) اقترن "بمريمه" ابنة إسكندر بن أرسطو بولس وهي بنت ابنة هركانوس من الأسرة الحسمونية الشريفة ليتصل نسبه بنسب أهل الشرف ويجري دم الملوك في عروق أبنائه (كما فعل السلجوقي مع الخلفاء العباسيين في بغداد) تهوّد وبنى لهم الهيكل وراعى عواطفهم الدينية والقومية فلم يعدوه

إلا أجنبياً غريباً ولم يتقبلوا عطفه إلا بإشتمزاز وكانوا ينفرون منه كلما مال إليهم فتكشف لهم عن عدو في ثياب صديق وعاملهم يعنف واضطهدهم بقوة .

(٢) كان كريماً وهاباً يقدم الهدايا الثمينة والتحف النادرة للرومانيين وهذا ما ساعده على بلوغ أربه وتفوقه على مناظريه.

(٣) كان متجسداً لينا شغفاً بالمدينة الرومانية والعادات اللاتينية يتكيف بحسب الظروف والأحوال بخلاف اليهود الذين كانوا ينظرون إلى المدينة اليونانية والرومانية نظرهم إلى الكفر والأحاد ولقد ترك هيرودس أثراً هجماً في فلسطين.

(أ) قيسارية بنى مدينة قيسارية وسماها قيصرية نسبة إلى مولاه وهي واقعة على شاطئ البحر بين يافا وحيفا مشهورة بمجودة بطيخها ولطافة هوائها.

(ب) رمم مدينة السامرة وعمرها وسماها "سبسطية" وهي كلمة يونانية تعني أوغسطوس لقب القيصر في تلك الأيام.

(ج) بنى قلعة باب الخليل في القدس ولا يزال في أساس البناء الحالي حجارة ضخمة من ذلك الأثر الجسيم.

(د) شاد برج انطونيا "القشلة السفلى" "مدرسة روضة المعارف" وسماها باسم أنطونيوس صديق كليوباترة الشهيرة.

واختط وشيد غير هذه القلاع والأبراج في فلسطين وشرقي الأردن
هياكل لأوغسطوس وحمامات ومسارح في القدس وقيصرية وسبسطية ونقل
الألعاب الرومانية الأولمبية المشهورة في البلاد فهو يشكر على هذه التحفة التي
قابلها اليهود بالقت والإزدراء.

وبعد وفاة هيرودس اقتسم أولاده مملكته ولم تدم طويلاً حتى التحقت
مباشرة بروما وصار يبعث لها بحكام رومانيين. وأما ابنه هيرودس أنتيباس فهو
الذي بنى مدينة طبريا وسماها باسم الإمبراطور طيباريوس .

(١٩) السيد المسيح

لو أردنا أن نفصل تاريخ فلسطين لأجملنا به تاريخ العالم أجمع وأشرفنا
على ماضي سالف الأمم لأنها حلقة اتصال الشرق بالغرب وبما أنا توخينا
الاختصار في هذا السفر فلا مندوحة لنا عن التوسع قليلاً في سيرة المصلح
الكبير السيد المسيح لأنه فلسطيني ويدين بدينه ٥٦٥ مليون نفس^(١). ولد من
أبوين فلسطينيين يوسف النجار ومريم على رأي المسيحيين واليهود إلا أن
القرآن الكريم ينص "أنه من روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم" ومثله عند الله
كمثل آدم" تربى ونشأ في أرض فلسطين وشم عبير أزهارها ونسميها وأكل
من خبزها وشرب من مائها وطاف مدنها وعلم أهلها وأختار تلامذته
"حواريه" الأثني عشر من رجالها وصلب على تل من تلالها ودفن في ترابها

(١) أثناء كتابة هذا العمل.

(هذا رأي المسيحيين واليهود وفئة قليلة من المسلمين) ولكن أكثر المسلمين يعتقدون أنه لم يصلب بل شبه لهم وعرج إلى السماء حياً.

ولد المسيح في بيت لحم في عهد أوغسطس قيصر وفي أواخر حكم هيرودس فعاش في الناصرة التي ينسب إليها النصارى مع مربيه يوسف ومريم الفقيرين .

كانت حياته هادئة قبل أن بلغ الثلاثين وقد زاول حرفة النجارة عند مربيه يوسف فلما بلغ الرجولية شرع يث دعوته وينشر مبادئه وتعاليمه بين قومه وأهله في الجليل وبين بسطاء الناس في الناصرة وحول طبريا ونهر الأردن ثم أنتقل إلى أورشليم مركز التعصب الذميمة والتقليد الأعمى فجاهر بدعوته وصرح بمواعظه وأجلها ما جاء في إنجيل متى إصحاح ٥ و ٦ و ٧ أي عظة الجبل فمنها:

(١) سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً .

(٢) سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم . لأنه ان أحببتم الذين يحبونكم فأجر لكم وإن سلمتم على أخوتكم فقط فأجر لكم فضل تصنعون .

(٣) احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس كي ينظروكم . وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك .

(٤) متى صليت فلا تكن كالمرائين فأنهم يحبون أن يصلوا في الجوامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس. فأنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم.

(٥) لا تدينوا لكي لا تدانوا لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم .

(٦) لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض .

فهذه خلاصة تعاليمه الإجتماعية والدينية إما آيته الذهبية فهي: "فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم أفعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم لأن هذا هو الناموس والأنبياء".

فلم ترق هذه التعاليم في عيون اليهود والبوا عليه الرأي العام وسخروا من أقواله وأتهموه بفريات ثلاث سياسية ودينية وهي:

١- أنه سمى نفسه ملك اليهود.

٢- وأنه قادر على نقض الهيكل وبناءه في ثلاثة أيام.

٣- وأنه سمى نفسه ابن الله.

فقر رواحاً كمتته لأنه كفر في عرفهم. وقد خانته أحد تلامذته يهوذا الأسخريوطي فسلمه إلى اليهود في بستان الجثسيماني وسبق إلى محكمة الوالي الروماني بيلاطس البنطي الذي حكم عليه بالموت .

عاش المسيح على الأرض ٣٣ سنة فقيراً لا يملك من حطام الأرض

قنيطراً لأنه زهد في الدنيا وما فيها وأما المؤرخ يوسيفوس فقد قال: نشأ في أيام بيلاطس رجل حكيم علم مريديه الحق واستمال إليه العدد الكبير من اليهود وغيرهم وهذا الرجل هو المسيح. ولما حكم عليه بيلاطس بالصلب بإيعاز من زعماء اليهود لم يتركه أشياعه ومريدوه وظهر لهم بعد ثلاثة أيام من موته كما تنبأ عنه الأنبياء .

(٢٠) جلاء اليهود ثانية عن فلسطين

طمع هيرودس في تأسيس مملكة يتوارثها نسله من بعده ولكنه أخفق في سعيه كما أخفق نابليون الذي حذوه بعد ثمانية عشر قرناً وقد رمى كل منهما أن يكون جد أسرة مالكة شريفة. استقلت فلسطين في أيام هيرودس استقلالاً داخلياً تحت السيادة الرومانية وقد عجز أولاده بعد وفاته عن إدارتها فألحقها الرومان بمملكتهم كما فعل الأتراك في سورية وفلسطين فان سياستهم الأولى لهذين القطرين كانت على نهج الأقطاع "اللامركزية" فكان أمير الولاية مطلق اليد والتصرف في البلاد يؤدي الإتاوة والقطائع إلى الأستانة. وأن انتاب الدولة حرب يقدم لها عدداً معيناً من الجند.

ثم تبدلت الحالة وأخذت الأستانة ترسل إلى المدن الكبرى مشاهير القواد وعظماء الرجال لتجتذب الناس إليها فترغبهم في طاعتها وتخوفهم بطشها وتسوس البلاد بأولئك القواد حسب ما تشرع لهم من القوانين وما ألفه السكان من عرف وعادة .

وظلت الحال على هذا المتوال إلى أن ولي الملك عبد الحميد فكان يرسل

الولاية والحكام من حاشيته وأعوانه رجال "المابين" وهكذا انقلب حكم الرومان في فلسطين من استقلال داخلي إقطاعي إلى نظام إستعماري وأتخذوا قيسارية "قيصرية" مقراً لولاتهم لقربها من ساحل البحر وللحط من شأن القدس في عيون اليهود. ولكن الرومانيين لم يهنأوا بحكم فلسطين ولم يقوموا عليها على ضيق أقليمها وضعف سكانها الذين ظلت نفرسهم جائشة متحفزة تهيم بذكري إستقلالها وتتغنى بنشيد حريتها. اعترضت هذه اللقمة الصغيرة في حلوقهم ولم يسيغوها فازعجت الولاية واتعبت وأقلقت مدينة نهر التيبر أكثر من الأقاليم التي هي أرحب محلاً وأكثر نفوساً. فلما قدم تيطس ازدردوها وهضمها وقد عز بعض المؤرخين هذا الثبات إلى اعتبارات كثيرة منها:

(١) اعتقاد اليهود أنهم شعب الله الخاص الذي اصطفاه على العالمين فهم الخيار وغيرهم خول فحرمت شريعتهم مخالطة غيرهم لأنهم أرجاس كافرون.

(٢) نشر العادات واللغة والألعاب الرومانية مثل المسارح والملاهي والرقص والخمر والتمثيل مما كان يحرمها الدين اليهودي وينفر منها الأهلون فإذا ما أبصروها تنبهت فيهم العاطفة الوطنية والعصية الدينية وهاجت روحهم القومية فيقاطعونها ويحتقرونها ولو أنهم أقبلوا على ذلك كما نحن نفعل اليوم لتلاشوا في غيرهم من حيث لا يشعرون. ولا يسعنا هنا إلا أن نعجب بانفة اليهود وأقدامهم على محاربة الرومان لما عبثوا بدينهم وذبحوا الخنازير في هيكلهم ونشروا أعلامهم خافقة فوق رؤوسهم موشاة

برسوم النسور (الصور محرمة عند اليهود) .

(٣) إيمانهم بأن الله إلههم وحدهم وأنه قادر على أنقاذهم من حكم الأجانب وقد ابتلاهم بهذه المصائب ليعلم مقدار صبرهم ومتانة اعتقادهم. فرسخت هذه العقيدة في النفوس وكان الإنسان يكلف ربه كل شيء فلم يلبث ان صار يركن إلى رفقاءه ثم إلى الحكومات فليت شعري متى يأتي اليوم الذي يعتمد فيه على نفسه فقط .

(٤) عسف الرومانيون اليهود فأنهم لم ينهجوا معهم نهج الصواب بل سخرُوا منهم ونبذوا شريعتهم وآدابهم فأكبر اليهود هذا العمل وهتفوا قائلين: متى تجمع القلب الذكي وصارماً وانفاً حمياً تجتنبك المظالم

(٥) خوارج اليهود الذين جنحوا للثورة فأخذوا يحرضون قومهم على ركوب هذا المركب الخشن مؤكدين لهم أن الله يساعدهم على تطهير الهيكل والبيت المقدس من نجاسة الرومان.

(٦) بطولة سكان فلسطين الذين ما غزاهم أحد وهم بامتلاكهم أجنبي إلا أسقط في يده وباء بخسران كبير.

(٧) وأن كل أمة لا ترضى أن تحكمها أمة أجنبية عنها ولو طال عليها الأمد. فإذا هي حكمت تدمرت وتحفرت للانتقاض فترقب الفرص لتنتهزها وهذا ظاهر لدينا من حالة أرنلدا والعرب وبولونيا فأنهم لم ينسوا أنهم محكومون لغيرهم وعملوا على ازعاج حكامهم فظفر بعضهم بما تاق إليه

وكذلك اليهود فإنهم لم يرضوا عن إدارة بيلاطس وأكثروا الشكايات عليه مع أنه تزلف إليهم بجلب مياه العروب إلى القدس وأمر بنحت أنابيب من الأحجار الضخمة ليجري فيها الماء. وفي فناء النوتردام في القدس نماذج منها تشهد بعظمة صانعها وقد أخفق لأنه عزم أن يصرف ريع أوقاف اليهود على عمارتها فمانعوه وقد إنتهت ولايته بعزله. وخلفه شخص حسن السيرة فكان نصيبه أسوأ وأنكد من سلفه ولم يجده لينه نفعاً لأن داخلية البلاد كانت في هياج مستمر فكثير قطاع الطريق وأخصبت الفتن. واستحكم الخلاف بين الحكومة والشعب وتجسم في عهد القائد الروماني الذي تعين سنة ٦٤ ب.م لما طمع في أموال الهيكل وهّم بسلبها فقاومه اليهود بكل قوتهم ومنعوه فأمر جنوده بالبطش بهم ونهب بيوتهم فإضطربت لظي الحرب الأخيرة التي أدت إلى خراب القدس وتمزيق الأمة اليهودية. والحقيقة ان هذه الشرارة التي طارت من القدس ليست كافية لا ذكاء الثورة في سائر أرجاء فلسطين لو لم تكن جميع البلاد على تمام الأهبة والاستعداد للوثوب ولو لم تكن نفوسهم هائجة وأرواحهم ثائرة متوقفة على اهتزاز خفيف أو نسمة هواء تحركها فتثيرها كما أشار إلى ذلك نصر بن سيار:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

اشتدت الأزمة في أيام نيرون الطاغية الذي روى لنا التاريخ شيئاً من قساوته وشره وفساد أخلاقه فثار ثائر اليهود وطردهوا الحامية الرومانية من

القدس فأرسل إليهم قائده فاسباسيان بقوة عظيمة ليخمد الثورة وينتقم من مسببها فنزل في قيصرية لأنها كانت ميناء فلسطين وعاصمتها وبذل جهده نحو سنتين حتى أخضع القسم الشمالي من البلاد فاسترد طبريا وجسجلة والسامرة وأريحا وقبل أن وصل القدس فوجئ بوفاة نيرون في رومية فارتد مسرعاً إلى إيطاليا ليتبوأ مكانه وأتاب عنه أبنة تيطس المشهور في محاربة اليهود واستئصال شأفتهم فقدم القدس بجيش يبلغ ثمانين ألف جندي كان فيه فرقة عربية "نبطية" فخيّم على جبل الزيتون ومرتفع سكوبس وعلى تلال المسكوبية والنكفورية وحاصر المدينة التي كانت حصونها قائمة في ثلاثة مواضع :

(١) قلعة هيرودس وبقاياها القلعة الكائنة باب الخليل .

(٢) برج أنطونيا وآثاره لم تنزل في القشلة السفلى شمالي الحرم .

(٣) الهيكل "الحرم" .

قال يوسفوس في تاريخه أنه كان في القدس لما حاصرها تطيس ما يقارب مليون شخص. ونظن أن هذا لا يخلو من المبالغة لكن الرأي الراجح هو أن القدس ازدهمت بالمهاجرين من كل أنحاء فلسطين لاعتقادهم أن الله لا يسمح باعطاء مدينته وهيكله وقدس أقداسه إلى غير شعبه فذكر المؤرخ الروماني تاستس أنه اجتمع يومئذ في القدس نحو ٦٠٠ ألف نفس .

لقد تحمل تطيس العذاب المرقب لفتح القدس لأن اليهود حاربوه بشجاعة فائقة واستماتوا في حفظ بلادهم. وجدير بكل أمة تنزع إلى الإستقلال أن تدفع ثمنه مهما كلفها ولو لا ما حدث بين الأحزاب من الشقاق

لما وصل تيطس إلى أمنيته .

ولكنهم إنقسموا إلى ثلاثة فرق " ١ " حماة الهيكل بقيادة العازار " ٢ " حرس برج أنطونيا وقائدهم يوحنا الجسخلي " ٣ " حفظة قلعة هيرودس ورأسهم سيمون "سمعان" ولو تتبعنا ماضي اليهود وحاضرهم لوجدناه مفعماً بالانقسامات والتحزبات السياسية والدينية التي كانت تمهد السبل لاستبعادهم والتغلب عليهم .

كل امرئ راجع يوماً لشيئته وأن تخلق أخلاقاً إلى حين

فكانوا إذا اتحدوا سادوا فتدب عقارب الحسد في صدورهم فتطوحهم إلى هاوية الخلاف وينال منهم بسهولة ما كان صعباً . وهكذا داهمهم جيش تطيس وهم أحزاب يتخاصمون ويتناظرون فأيقظتهم مجانيقه وآلات حصاره فحاولوا الاتفاق ولكن سبق السيف العذل فطال الحصار حتى مات الناس جوعاً وانتشر الوبأ وسرى المرض من سوء الغذاء ورائحة الجيف المنتنة فرأف بهم وطلب إليهم أن يسلموا المدينة صلحاً ليعاملهم بالحسنى فأبوا وأصرروا على الحرب وكانوا يبنون ليلاً ما يهدم نهاراً ولكن جهادهم لم يغنهم شيئاً وسقطت المدينة السفلى "برج أنطونيا" ثم الهيكل ثم المدينة العليا "القلعة" والتي أبقاها مأوى للجنود . وأمر بهدم برج أنطونيا واحترق الهيكل من يد جندي بغير إرادة تطيس ولكنه أجهز على الأمة اليهودية وقتك بهم بلا عدل ولا رحمة .

ففر أحد الزعماء إلى قلعة "مسادا" وأسر الآخرون وهما يوحنا الجسخلي

وسيمون فسيقا إلى رومية ليسيرا في موكب النصر الذي كان يحتفل فيه بعد عودة قائدهم ظافراً منصوراً فكانت عادة الرومانيين أن يقف القائد المنتظر عند رجوعه إلى رومية في ساحة كمبوس مرتيوس خارج المدينة ويخلعون عليه ثوباً أرجوانياً مزركشاً بالذهب ويتوجونه بنسر ذهبي ثم يحف به القواد والعسكر مكللين بغصون الدفلى فيمر من أمامهم العدو المأسور ولو كان ملكاً أو عظيماً وهنالكَ ينون قوساً لذكرى تلك الفتوحات وكل من يزور رومية يرى قوس تطيس شاهداً على خراب القدس .

يوجد أمام فندق مرقص عمود شاخص نقش عليه كلمات لاتينية فلو تبيناها لقصت علينا حادثة القدس وخبر الفرقة العاشرة الرومانية التي تركت في القدس للمحافظة على آثارها بعد خرابها .

(٢١) قلعة مسادا

على شاطئ البحر الميت قرب عين جدي بنى هيرودس حصناً فوق صخرة عظيمة وحفر له الآبار وشحنه بالذخائر والأرزاق والعدد اللازمة ليعتصم به إذا داهمه الخطر. فلما قضى تطيس على اليهود خف أحد زعمائهم العازار بألف رجل والتجأ إلى هذا الحصن المنيع فلم تحمه البرية على إتساعها ولم تحفظه الحصون المشيدة بمناعتها فقد عقبهم جند تطيس وحصروهم وبينما هم يتوقعون التسليم رأوا ليلاً ناراً مضطربة في القلعة ولما تنفس الصبح صعد جند الرومان على سلالهم فلم يسمعوا ديبياً ولا صوتاً فحاروا في أمرهم إلى أن ظهر لهم امرأتان قالتا لهم قد فاتكم الغنم فإن قائدنا الكبير العازار شعر

بعجزه عن حماية الحسن فطلب إلى رجاله أن ينتحروا خيفة أن يأسرهم أعداؤهم فأستحسنوا نصحه وودع كل منهم زوجته وبنيه وقتلهم بنفسه ثم أنتخبوا عشرة رجال من بينهم من عهد إليهم بقتل الباقيين فأنجزوا عملهم وأختاروا أحدهم فقتل التسعة وأحرق كل ما في الحصن وقتل نفسه ولم يبق هنا إلا نحن وخمسة بنين. فعجب الرومان من هذه الجرأة وكان لسان حالهم يقول أن هؤلاء الرجال العظام هم أبطال الوطنية وخليقون بالإجلال والاحترام. سببت الأمة اليهودية وهدمت عاصمتها وهيكلها مرتين الأولى من البابليين والثانية من الرومانيين فخدمت هممهم وخابت آمالهم بعد أن جاهدوا بأنفسهم وبذلوا أرواحهم دفاعاً عن إستقلالهم .

(٢٢) هدریان

لا ريب أنه يغشى البلاد نغمى وبؤس كما يغشى الأفراد والأمم فبينما نرى القدس عاصمة تصدر منها الأوامر وتبرم فيها الأمور والأحكام إذا هي خراب بباب تعق على إطلالها الغربان ولكن لم يكن يمضي عليها بضع عقد من الزمن حتى ترأها قد استجمعت قواها واسترجعت جدتها فلو قابلنا صدماتها وما انتابها من المصائب بما أصاب غيرها من البلدان والمدن لعجبنا واستغربنا كيف أنها تحدد حياتها بعد أندثارها وغيرها يبيد ويمحق ولكن مكانتها الدينية في نفوس مقدسيها تحملهم على تعميرها وتجيد بنائها بخلاف البلدان الأخرى التي لا يشفع فيها مركز إقتصادي أو سياسي أو ديني.

إن الزمن الواقع بين عهد تطيس والفتح العمري يقرب من ستة قرون

أي ٥٦٧ سنة فهو مجلد ضخم أكثر صفحاته بيضاء لذلك أجهلناها لقلة ما فيها من الأخبار الجلية حباً بالأختصار ومن شاء التوسع فليراجع مظانها في بطون المطولات.

مضى على القدس ستون عاماً وهي خربة وفلسطين ساكنة مهیضة الجناح منهوكة القوى لأن الرومان تنهبوا وعرفوا أن الفتن والقلاقل في فلسطين كانت تنبعث من القدس فحظروا على اليهود الرجوع إلى عاصمتهم إلى أن ولى الحكم الأمبراطور هديران "أدریان" * فجدد عمارة القدس وسماها "إيليا كابيتو لينا" فحنّ اليهود للرجوع إليها ودبت فيهم روح الأنفة والحمية فقام رجل اسمه باركوخب (ابن كوكب) وجاب البلدان وعرف الكهوف والجلال والبطاح والمداخل والمخارج والأماكن الوعرة الصالحة للدفاع ثم لقح الأفكار سراً ببذور الثورة وبعث في قومه صرخة أدعى بها أنه هو المسيح الذي سينقذ أمتة من استعباد الأجانب ويخلصهم من ظلم الرومان فتبعه نفر ليس بقليل أزعج بهم حزمة رومة وأقلقها ثلاث سنوات. فأوفد إليهم هديران قائده الجبال العاتي سفروس الذي أخضع الجزر البريطانية فسحق اليهود وقهرهم في معركة بتبر وكان ذلك آخر العهد بالحروب اليهودية.

قف هنا أيها القارئ هنيهة وتأمل في عظمة الإمبراطورية الرومانية وضخامتها وأذكر اسم القائد سفروس الذي فتك ببرابرة بريطانيا وسل نفسك أين ذهبت تلك الدولة وكيف أقل بدرها؟؟ وكيف ترقى أولئك البرابرة

* المسماة أدريانوبل "أدرنه" على اسمه .

وورثوا تلك الإمبراطورية العظيمة في سعة حكمها وأقطارها !!

(٢٣) قسطنطين وتنصير فلسطين

في أوائل القرن الرابع للمسيح انشقت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين المملكة الغربية وعاصمتها رومية والشرقية وعاصمتها بيزنطية* وهي الحكومة التي كانت مسيطرة على فلسطين فقدمت الملكة هيلانه أم قسطنطين إلى القدس وبنت كنيسة القيامة التي يحج إليها المسيحيون وكنسية بيت لحم "المهد" ومن ذلك العهد تنصر أهل فلسطين فاضطهدوا اليهود وأجلوهم عن البلاد .

وفي القرن الرابع والخامس ب.م أسست الصوامع والأديرة ومنها دير مارسابا المشهور الواقع في الجنوب الشرقي من بيت لحم وكثر عدد الرهبان والساك . ولكن مكروب الفساد وسوس الانحلال دبّ في جسم المملكة البيزنطية فنخر عظامها وعظم الخلاف بين رجال الأكليروس إذ ذهب بعضهم أن السيد المسيح ذو طبيعة ومشينة واحدة وبعضهم قال أنه ذو طبيعتين ومشيتين إلهية وإنسانية، وقال الأريوسيون أن هو إلا رسول ونبي كريم فمالت الحكومة إلى القائلين الطبيعيين واضطهدت كل من خالفهم وبينما هم يتجادلون ويختصمون هجم الفرس على سورية وفلسطين سنة ٦١٤ ب.م واغتصبوها وأغراهم يهود العراق وسورية بالانتقام من المسيحيين فهدموا

* الأساتنة وتدعي أيضاً القسطنطينية نسبة إلى قسطنطين أول أمبراطور تنصر وأمر بتعميم الديانة المسيحية فتبعه خلق كثير وأصبحت الديانة المسيحية دين الحكومة الرسمي .

كنيسة القيامة وقسماً كبيراً من القدس وجاهر يهود انطاكية بالعصيان وقتلوا بطيريكها وكذلك ساعدوا العرب على فتح فلسطين ودلوهم على مدخل قيسارية وهذه طبيعة كل الأمم المغلوبة على أمرها فما دخلت حكومة بلاداً كان فيها يهود إلا كانوا آلة للفتحين سنة الله في خلقه:

إذا لم يكن للمرء في دولة أمرئ نصيب ولا حظ تمنى زوالها
ولما بلغ هرقل ما فعل الفرس جهز جيشاً ونهض من القسطنطينية
وحاربهم وانتصر منهم سنة ٦٢٨ ب.م واسترد سورية وخشب الصليب.
ولكن دولته كانت بالغة من الكبر عتياً وظهر عليها الضعف والفتور فعجزت
عن دفع فيضان الحكومة العربية الفتية وتقلصت إلى داخل حدودها .

(٢٤) آثار اليونان والرومان في فلسطين

شهد التاريخ على فلسطين أنها بلاد احتلال واستعمار فإن لم يكن يهودياً
كان آشورياً أو بابلياً أو فارسياً أو مصرياً أو رومانياً أو يونانياً أو تركياً أو
إنكليزياً ولا نعلم كيف يكون المصير .

فلسطين بلاد أسيوية اغتصبها الغرب من الشرق أزماناً وتناوبتها دوله
فابتدأ هذا المد بالموجة الفلسطينية وتبعها طوفان اليونان ثم فيضان الرومان
وسيل الصليبيين المتدفق وختم بالاحتلال الإنكليزي والوطن القومي اليهودي .
ولكن الشرق لم يقف أمامه صاغراً بل كان يثار منه الكيل كيلين وغزا
أوروبا وأحتلها قروناً متعددة وحكم في أهلها فنشط الفينيقيون إلى إستعمار

بلاد اليونان والكلتين وجزر البحر الأبيض وبريتانيا* ثم غزا الفرس دولة اليونان واستولوا على بلادهم ثم فتح العرب أسبانيا وجنوب فرنسا وجزر البحر المتوسط وانحدر التتر "المغول" من شمال غربي البحر الأسود والقوا هناك حكومات وإمارات وأردف كل هذا بفتوح الأتراك العثمانيين واكتساحهم شرق أوروبا حتى فينا فلو قابلنا المد والجزر في كلتا القارتين لتساويا ولكن ختمت رواية القرن التاسع عشر والشرق قن الغرب سياسة وعلماء وإقتصاداً.

ليست المدة التي بين فتح الأسكندر والفتح الإسلامي قصيرة بل تبلغ ٩٧٠ سنة أي من ٣٣٣ ق.م - ٦٣٧ ب.م وهي كافية لإندغام سكان آسيا بأهالي أوروبا لأنهم الحاكمون ولكن مضى هذا الزمن الطويل ولم يعلق بنا وبلادنا لا النزر اليسير نفرد له فصلاً خاصاً من هذا الموجز:

(١) اللغة اليونانية:

أن كل قائد فاتح يحمل لغته معه حيث سار فتنازع لغة البلاد وتضارعها فيفوز الأنسب ويبقى الأصلح فلما نهض اليونان كان الشرق وتضارعها فيفوز الأنسب ويبقى الأصلح فلما نهض اليونان كان الشرق محموراً ففتحوا مدنه وأقاليمه ونشروا لغتهم الجميلة فانتبذها الأهالي وانحصرت بين الطبقة المتهذبة وفي مجالس الخاصة وأندية الأدباء فقط كما هي اللغة الإنكليزية والفرنسية الآن وعجزت عن مزاحمة لغة أهل البلاد الوطنية وهي اللغة الآرامية ولكنها

* لفظة سامية مركبة من كلمتين بريتا "بلاد" آنيا "أناء التلك" أي "بلاد التلك" أطلق الفينيقيون هذا الاسم على بلاد الإنكليز لكثرة معدن التلك فيها فعلق بهم إلى يومنا هذا .

تغلبت على اللغتين اللاتينية والعبرية الدخيلتين فقد مضى قرن وثلاث على حكم الرومان للبلاد واللغة اليونانية ذات السيادة فدَّون المسيحيون أناجيلهم بها وتفننوا في رسائلهم بآدابها وأهملوا اللغة العبرانية ولغة الحكومة اللاتينية .

(٢) المدن :

شاد اليونان في الشرق الأدنى مدناً كبيرة وعظيمة منها الإسكندرية وإسكندرونة وأنطاكية وجرش وعمان أما المدن الرومانية فهي بعلبك ومن زارها يحني رأسه أعجاباً من تلك المدينة الفائقة والبناء الضخم وقيسارية وسبسطية وطبرية ويروى أن الإسكندر أسس نحو ٦٠ مدينة في الشرق جعلها مراكز لبث الدعوة اليونانية ونشر المدنية الغربية وأسكن بها دعاة اليونان الذي كانوا يبشرون بالروح اليونانية "التفرنج" .

(٣) الروح اليونانية "Hellenism"

ربما كان خير تفسير لكلمة هيلنزم "التفرنج" أي نقل عادات الأفرنج وألعابهم وأخلاقهم ولذلك سعى اليونان جهدهم لجعل البلاد يونانية فبشروا بديانتهم وشوقوا الناس إلى اقتباس عاداتهم وآدابهم فبنوا المسارح وملاهي التمثيل في مدنها ونحتوا تماثيل لمشاهيرهم وآلهتهم فعبدت الأصنام وآثارها باقية في بعلبك فإن صح لنا أن نشابه بين الماضي والحاضر نقول أن كرة القدم والملابس المقصورة والرقص والسينما وغير ذلك يشبه ذات الروح التي توخاها اليونان في عصرهم .

كانت مدينة الإسكندرية وإنطاكية عش الدعوة اليونانية ومنهما تشع

روحهم وتتوزع على سائر أقطار الشرق. فقد نبغ في سورية من الفلاسفة والأدباء نفر غير قليل وزهت المدينة اليونانية ونضجت المعارف وازهرت العلوم في عاصمة البطالسة وكثرت المكاتب والآلات الفلكية لرصد الكواكب وأدوات الهندسة وآلاتها فاليونان أساتذة العالم وأدلاء الشرق ومرشديه ولقد كان لهم عشر مدن في فلسطين تدرس فيها تعاليمهم وتعرض فيها مدنيّتهم فتلاشت من ترفض اليهود وكرههم لها .

وإن من تنقل في أطراف فلسطين وتأمل قليلاً يرى آثار القناطر والطرق والهيكل التي تركها لنا الرومان كنا سنفصله في هذا التاريخ عن مدن فلسطين.

القسم الثاني

الفتح العربي الإسلامي

من عمر بن الخطاب إلى السلطان سليم

(٢٥) العرب في فلسطين إلى السلطان سليم

إن كل من شغل بعلم التاريخ يتجاذبه عاملان قويان. أولهما عام وهو حب العلم وثانيهما خاص وهو رغبة الإطلاع على تاريخ قومه وبلاده فالقسم الأول من هذا الموجز يهم العربي الذي طمع في العلم ورغب فيه أما القسم الثاني فمن الواجب المتحتم على كل عربي أن يمزجه بدمه ونفسه لارتباط تاريخ بلاده بأمته الذي يتعش نفسه ويحييها فأني أعجب كيف يكون المرء وطنياً إذا لم يعرف تاريخ بلاده وسيرة أمته وأبطالها أو لم يتعلم لغتها وآدابها فتصديرنا هذا الموجز بتاريخ الأمم الأخرى ليس لأنها أقدم من أمتنا العربية في سواحل فلسطين الشرقية والجنوبية بل لكونها ملأت صحف تاريخ البلاد أكثر من سواها فالعرب منذ القدم سكنوا فلسطين وكانت فيها مراتبهم ومصايفهم وشيدت فيها منازلهم وحكوماتهم وهذه نبذة مختصرة عن العرب قبل الإسلام في فلسطين نؤيد بها حجتنا:

(١) ورد في التواريخ الموثوق بها إن نرام سين بن سرجون ملك الكلدان غزا فلسطين سنة ٣٨٠٠ ق.م. وصادف في سينا حكومة عربية. ثم حارب

قبيلة مغان "معان" العربية وأسر أميرها وقد ظهر في آثار بابل ما يثبت هذا القول.

(٢) إن سرجون الثاني غزا عرب البادية الذين تعدوا على بلاد السامرة وأخضع قبائلهم ومنها ثمود وهم مديان "مدين" ومساكنهم شرقي الأردن وحارب عباديد وأخذ منهم طائفة وأسكنها في بلاد السامرة .

(٣) في القرن الثامن ق.م. أخضع تغلث فلصر عرب البادية بين فلسطين ومصر وكانت ملكتهم حبيبة فعزلها وولى مكانها أحد رؤسائهم .

(٤) لما جاء الإسكندر إلى فلسطين وحاصر غزة كانت حاميتها عرباً فقاومته أشد المقاومة .

(٥) بشر أحد تلامذة المسيح بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد في أعمال الرسل ص ٢ : ١١ .

(٦) كان الحارث حاكم دمشق عربياً لما دخلها بولس الرسول كما ورد في رسالته إلى أهل مدينة كورنثوس (كورنثوس ص ١١ : ٣٢) .

(٧) لما جاء تيطس لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية.

(٨) التجأ هركانوس المكابي إلى الحارث ملك العرب فأنجده وساعده على أخيه أرسطوبولس .

(٩) إن فيليبس الروماني الذي صار إمبراطوراً في رومية سنة ٢٤٤ ب.م. كان

عربياً من بصرى حوران (راجع جيون)

Every mans's Encyclopedia Vol. 10, p298

(١٠) حكومة تدمر وتمدننها وتجاريتها ونفوذها في الشرق والبلاد العربية (راجع زيدان التمدن الإسلامي) .

(١١) حكومة بطرا "الحجر" في الجنوب الشرقي من فلسطين إلى خليج العقبة وقد حكموا فلسطين وسورية .

(١٢) الغساسنة حكام الشام وحوران وشرقي الأردن الذين عمروا المدن وشادوا القصور والقلاع وهي دولة عربية مسيحية .

ومن استقرأ صفحات التواريخ القديمة وجد كلمة "العرب" تجول في غزواتهم المظفرة ومحارباتهم الكثيرة في فلسطين وحسباً دليلاً إن هاشم جد أبي النبي "صلى الله عليه وسلم" مات في غزة ودفن فيها وأنا نعرض عن دولة اللخمين والهيكسوس وحمورابي واليمن لأنها بعيدة عن بلادنا ولا اتصال لنا بهم. ولكننا نقول إن سكان فلسطين القدماء كالكعانيين والعمالقة الذين أتوا فلسطين من جزيرة العرب ربما كانوا من طوائف العرب البائدة طسم وجديس إذ يصعب على الفكر التصديق بأنقراض قبائل كبيرة برمتها. ولكن يجوز أن تستحيل إلى غيرها وتندغم فيها. فيظهر مما تقدم أن العرب لم يفيضوا إلى فلسطين دفعة واحدة بل دخلوها تدريجاً ثم تدفقوا في عهد الفتح الإسلامي وهذا يحملنا على الترجيح إن مجيء كل فرد أو قبيلة عربية إلى هذه البلاد كان توطئة وتمهيداً للفتح الأخير وفي هذه السطور دليل كاف على أن العرب

سكنوا فلسطين قديماً وشاركوا بها غيرهم قبل الفتح الإسلامي وتمتعوا بها بعده. والمستقبل يتوقف على نشاط الأمة واستعدادها يمليه الأفراد على مدوني التاريخ فلنخذر أن يكون شراً.

(٢٦) النهضة الإسلامية

كان العرب قبل الإسلام مختلفي الاعتقادات ومتفرقي النزعان فمنهم الموحد والمشارك والصائبي وعابد الأصنام ولكنهم أجمعوا على احترام مكة المقدسة فكانوا إذا حجوا إليها يطوفون حولها وينزعون سلاحهم فلا يحاربون فيها ولا في أشهرهم الحرم وقد سماوا أيام الحرب التي حدثت في أحرامهم "الفجار" لأنهم ارتكبوا فيها فجراً. فيظهر أن العرب كانوا وقتئذ في بدء تطور جديد فنفسهم تتحفز للنهوض وتحركها حروبهم الداخلية وتعديات جيرانهم الفرس والأحباش على اليمن ووقعة ذي قار وانتصار العرب من الفرس كل هذا يدل على تمخض فكري وغيان عقلي وتأهب للانتقال السياسي والديني الذي يطرأ على الأمم وتلا ذلك ولادة محمد صلى الله عليه وسلم في سنة ٥٧٠ ب.م. في مكة من قبيلة قريش وهي من أشرف قبائل العرب ولها سداثة الكعبة فيتم صغيراً وكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب فأشتهر بالأمانة والخلق الطيب فسمي بالصادق الأمين فتاجر بأموال السيدة خديجة بين الحجاز والشام على حصة من الربح فأرضاهما بمعاملته وأعجبت به فخطبها وتزوجها وانتفع بما لها .

كان في نفس محمد أسرار محجوبة تحركها العوامل والبواغث الخارجية

فتشيرها ثم تحمد إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة وبعثه الله نبياً فبث دعوته ثلاث سنون بين أهله وعشيرته الأقربين فأسلم له نفر وكان يجتمع بهم خفية في دار الأرقم المخزومي إلى أن أسلم عمر بن الخطاب فقال لهم "علام نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل" فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم إنا قليل وقد رأيت ما لقينا فقال له عمر: والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين حتى دخلوا المسجد فلقبه النبي صلى الله عليه وسلم بالفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل فنزلت الآية ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) فجهر النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته وطاف على القبائل وهو يتلو عليهم ﴿أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) فاضطهدته قريش وطفقوا يكرهون من آمن به على ترك دينهم بدفنهم في الرمل أحياءً ويسومونهم أنواع العذاب وهم على عقيدتهم ثابتون وأن أعظم شرط لنجاح المبادئ الجديدة وطنية كانت أو دينية الجزم بصحة المذهب والثبات عليه مهما إعتراه من الخن. ظلت الدعوة الإسلامية ضعيفة حتى آمن بها أحوال النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار ونصروه عصبية وحباً في الدين ومزاحمة لقريش عليهم يحولون وجهة الحج إلى مدينتهم لأن أحد أبطالهم أبا الهيثم قال يا رسول الله فهل

(١) سورة الأنفال الآية ٦٤.

(٢) سور النحل الآية ٩٠.

عسيت أن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا فقال له أنتم مني وأنا منكم أسلم من سالمتم وأحارب من حاربتم. فلما طال بهم العسف هاجروا جميعهم خفية إلى المدينة ليحتموا بالأنصار إلا عمر بن الخطاب فإنه تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهماً وطاف بالبيت سبعاً وصلى متمكناً وقال:

"شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس من أراد أن تثكله أمه ويستم ولده ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي" فما تبعه أحد ومن ذلك اليوم الموافق سنة ٦٢٢ بدأ تاريخ الهجرة النبوية فنزلت آيات الجهاد وحدثت المناوشات والسرايا والغزوات فجهز النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٨ هـ جيشاً يبلغ عدده ٣٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين وسورية وأمر عليه مولاه زيد ابن حارثة فسار حتى وصل إلى معان فقابلهم الروم بجيش كبير من قبائل العرب المنتصرة لخم وجذام وبلي فتحاربوا في قرية مشارف ومؤتة* من اللقاء فانكسر المسلمون وهزموا وقتل بضعة من قوادهم منهم جعفر الطيار جد آل هاشم في نابلس فلم يثن عزم النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصبر على الغلبة فسار إلى مكة وفتحها وأسلمت قريش ووفدت إليه أمراء الجزيرة مسلمين مؤمنين بدينه الجديد فكان يصحبهم بالقرءاء ليفقهوهم في الدين ويعلموهم الصلاة وقد ساعد على سرعة انتشار الدين الإسلامي نفوذ حكم الأمير في قبيلته فإنه عند ما كان يسلم الأمير تتبعه القبيلة بلا عناء فعم الإسلام الجزيرة كلها ووجه النبي صلى الله عليه وسلم نظره لفتح سورية وفلسطين فجهز

* سميت هذه السرية بسرية مؤتة .

جيشاً وقاده بنفسه إلى تبوك فصالحه أهل أيلة وأهل مقنا راجعاً ثم جهز جيشاً
لثالث مرة سنة ١١ هـ وأمر عليه أسامة بن زيد ففاجأته المنية والجيش على تمام
الاستعداد. وإن محاولة النبي صلى الله عليه وسلم مرات فتح فلسطين وسورية
لحجة بالغة على تطلعه ورغبته في ضمها إلى الجزيرة لأنها جناحها وقادمتها
العراق.

(٢٧) النبي محمد صلى الله عليه وسلم

كان عظيماً في نفسه أميناً في دعوته صادقاً في نبوته جليلاً في شريعته
مصلحاً بأخلاقه وتعاليمه جمع كلمة العرب وأزال التفرقة من بينهم برابطة
جديدة متينة وهي الإسلام الذي لم يكن مقصوراً على كونه ديناً وحسب بل
كان رابطة قومية سياسية إجتماعية ألف بينهم وقذف بهم إلى المعمور ففتحوه
بنواة روحه وغرس عمله وانا نورد هنا طائفة من القرآن الكريم والحديث
الشريف النفيسة المدبجة بالحكمة والفضائل.

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام، ولا تعتدوا
إن الله لا يحب المعتدين﴾^(١)، ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾^(٢) الدين المعاملة. الدين
النصيحة ﴿ومن عفا وأصلح فأجره على الله﴾^(٣) ولتكن منكم أمة يدعون إلى

(١) سورة البقرة الآية ١٨٨.

(٢) سورة العصر

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب
ريحكم﴾^(١) ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشد من الغي﴾^(٢) ﴿من شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر﴾^(٣) « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى »^(٤)
« ليس المسلم الذي يشبع ويجوع جاره »^(٥) وقال في خطبة حجة الوداع:
إستوصوا بالنساء خيراً (راجع نموذج الفضائل الإسلامية). ولما قبض النبي
صلى الله عليه وسلم إرتد العرب ورجعوا إلى دينهم القديم لأنهم أسلموا
عصبية وتبعوا أمراءهم قبل أن يرسخ الدين في نفوسهم أو تعرف القبائل ما هو
الإسلام فقتلوا المعلمين وطرّدوا المفقّهين وأمتنعوا عن أداء الزكاة وأدعى كثير
منهم النبوة فحاربهم الخليفة أبو بكر حتى تابوا إلى رشدهم وأذعنوا للإيمان
بعد جهاد عنيف.

(٢٨) إنفاذ جيش أسامة

ابتدأ أبو بكر أعماله بأن نفذ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
الذي كان مجهزاً بقيادة أسامة بن زيد وعدده بين ٧٠٠-١٠٠٠ وزوّده
بوصية جلييلة وهي صفحة نيرة من أخلاق أبي بكر قال:

(١) سورة الأنفال الآية ٤٦.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٣) سورة الكهف الآية ١٨.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

"لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له".

وقصارى القول إنها خير مثال للوصايا الإنسانية وجديرة بأن تكون قدوة حسنة لقواد جيوش عصرنا المتمدن الذين أمروا بقتل الأطفال وهتك النساء وتخريب البنايات وقطع الأشجار وهدم الكنائس. فسار أسامة بسريته إلى أن وصل أبني بناحية البلقاء شرقي الأردن وأوقع بقبائل قضاة ورجع بعد أربعين يوماً. فأظهر أبو بكر الحكمة بإنفاذ جيش أسامة وهو بحاجة لجند يخمد بهم ثورة الردة ليوهم العرب الذين مر بهم الجيش أن للمسلمين قوة عظيمة لا طاقة لهم بها.

وقد خسر العرب في هذه الغزوات الثلاث ولكن لم تثبط همتهم وكروا بجيش لا بشرذمة طالبين الفتح لا الغارة قاصدين الإستيطان لا الإصطياف.

(٢٩) وقعة اليرموك

صعب على أبي بكر ظفر الروم بالمسلمين فاستنصر العرب واستجاشهم ووجه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء فذهب وصدمه الروم بجموع كثيرة أكثرها من العرب المنتصرة بهراء وتنوخ وخم وسليم وجذام وغسان ونزلوا من دون زيزاء بثلاث مراحل فلما قدم خالد أعروا منازلهم وخطوا بين "فحل"

وزيزاء والقسطل* وبعد قتال فل جيش خالد وارتد مخذولاً فعزله الخليفة وولى مكانه يزيد بن أبي سفيان ومعه وجوه مكة وأشرافها وغايته البلقاء وعزّزه بثلاثة أمراء وهم (١) عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين فأخذ عن طريق المعركة إلى أيله "العقبة" (٢) الوليد بن عقبة ووجهته الأردن ثم استبدله بشرحيل بن حسنة وسلك طريق تبوك (٣) أبو عبيدة بن الجراح وهدفه حمص وطريقه البلقاء وعلياء الشام وأمر يزيد على الجميع وزوّده بوصية وهي:-

"اني قد وليتك لابلوك وأجربك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك .. إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وإبدأهم بالخير وعدهم آياه وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً وأصلح نفسك يصلح لك الناس إلخ".

فسار الأمراء وأوغلوا بجيوشهم وتغلغلوا في إحشاء البلاد فنفرت منهم طوابع الروم ظانين انها غيمة عما قريب تقشع. فلما رأوهم اقتحموا المدن وجاسوا عوراتها هبوا من غفلتهم وجمعوا جيشاً من العساكر والمقاتلة زهاء ١٥٠ ألف مقاتل. ويقول جبون أنه كان في هذا الجيش ٦٠ ألف جندي عربي بقيادة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة. فناجزوا المسلمين وهم متفرقون ليزعزعوا قوتهم ويبلغوا أربهم لأن وقفة قوادهم كانت شبه مثلث رأسه في البلقاء مع يزيد "لحفظ خط الرجعة" وطرفاه الواحد في الجنوب الغربي من فلسطين مع ابن العاص والآخر مع أبي عبيدة في الجنوب الشرقي من حوران

* قرى صغيرة منهدة في شرقي الأردن قرب ماديا .

وفي الوسط "الأردن" شرحيل "خط المواصلات" فقطن المسلمون لمقصد الروم وعرفوا نياتهم فأشار عمرو بن العاص بأن توحد القوى ويستأجعوا إلى أطراف سورية ويستشيروا الخليفة. أما أبو عبيدة فرأى مبادرة الروم ومحاربتهم فخالفوه وأجمعوا على رأي عمرو وعسكروا في اليرموك* وأرسلوا إلى أبي بكر فأشار عليهم بالاتحاد ريثما يأتيهم المدد وأمر خالد بن الوليد قائد جيوش العراق إن يأخذ نصف من معه من الجند وينصرف مسرعاً إلى الشام فامتثل الأمر وسار بقطعة من الجيش فمرّ بتدمر وأغار على جمع من تغلب وكتب وقاتل بني مشجعة وأتى إلى ثنية العقاب. وأغار على غسان يوم عيد فصحبهم ثم وفد على المسلمين في اليرموك فوجد كل أمير يتساند على جنده فقال لهم: إن هذا اليوم يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم." وأشار عليهم بأن يتناوبوا الإمارة العامة ففنعوا منه وولوه أياها فعباهم تعبئة فنية "كراديس كراديس". ووضع نفسه في المقدمة يقودهم إلى الأمام وفي القلب أبا عبيدة وفي الميمنة عمرو بن العاص وشرحيل وفي الميسرة يزيد بن أبي سفيان والقعقاع بن عمرو. وكان قائد الطلائع قباث بن أشيم والقاص أبا سفيان بن حرب يشجع الرجال ويقص عليهم نبأ البطولة والثبات. فلما استعرضوا الروم قال رجل لخالد "ما أكثر الروم وأقل المسلمين" !! فأجابه "ما أكثر المسلمين وأقل الروم إنما تكثر الجنود بالنصر وثقل بالخذلان" وهنالك

* هو نهر صغير يصب في الأردن بعد خروجه من بحيرة طبرية وكلمة يرموك معربة عن اللغة اليونانية "يرومكس" Heiromax .

كان يستعد الجيشان لمعركة فاصلة فأما أن يفوز المسلمون ويسودوا على سورية وفلسطين ومن هناك إلى مصر والمغرب والأندلس أو يردهم الروم على أعقابهم إلى مهدهم وباديتهم. فلما اصطدم العسكران أظهر الروم من البسالة والصبر ما كاد يزيل المسلمين عن موافقهم لولا إن النساء حملن العصي والرماج والعمد وضربن بها وجوه الخيل إذا اللوت وحرضنهم قائلات "إلى أين يا حماة الإسلام" فصمدوا وقد شد الروم على ميمنتهم فكشفوها وسحقوها ثلاث مرات وهم صابرون وأبو عبيدة يتخطى الصفوف فيشجع الجمع ويضمد جروح الجرحى ويعددهم بالنصر إلى أن فازوا وإنسحب الروم من أمامهم معتصمين بيسان تاركين أسلابهم والغنائم. وقد اختلف المؤرخون في عدد الجند فقال ابن الأثير أن جنود العرب كانت ٤٦ ألفاً والروم ٢٤٠ ألفاً أي أن الجندي العربي يقابل خمسة من الروم. وقال المطران الدبس في "موجز تاريخ سورية" أن العرب كانوا ٤٠ ألفاً والروم مئتي ألف ومنهم من بالغ ومنهم من اعتدل والحقيقة أقرب إلى الصحة كلما قل العدد .

كانت هذه المعركة مفتاح النصر ومقدمة للاستيلاء على سورية وفلسطين ربما إن جميع المعارك الحربية التي حدثت بالقرب من هذه البقعة كانت فاصلة فانا نورد هنا بعضها:

- ١- وقائع مجدو: بين مصر والعراق وما كان يلحق فلسطين من عواقبها .
- ٢- وقعة اليرموك: التي زال بها ملك الروم عن الشرق .
- ٣- معركة حطين: بين طبرية والناصرة وهي المعركة التي قضى بها صلاح الدين على الأفرنج وأخرجهم من فلسطين .

٤ - اصطدام الترك بالمماليك في اللجون ورجوعهم القهقري .

٥ - معركة مرج ابن عامر: بين جنين والناصرية التي هزم فيها النبي جنود الألمان والأتراك وأسروا منهم خمسين ألفاً .

كانت نتائج هذه الملاحم الكبرى في تلك البقعة الضيقة قاضية وفاصلة بين المتنازعين فمن فاز ملك البلاد ومن غلب على أمره خسرها ورجع مخذولاً. ولم يك هرقل متوقعاً هذا الإنكسار فلما فل جيشه جنزح وإنسحب إلى شمال سورية وولى أخاه "ثيودور" القيادة العامة وبعث إليه القواد والعساكر وطلب النجدة من قومه ليكرّ ثانياً على العرب ويجليهم عن البلاد. أما العرب فأنهم ولوا بشير بن كعب الحميري مدخل اليرموك كي لا يقطع عليهم العدو خط المواصلات ونشطوا إلى فتح دمشق وقد فاجأهم وفاة الخليفة أبي بكر وإستخلاف أمير المؤمنين عمر. فحاصروا المدينة سبعين يوماً ودخلها خالد عبدة وأبو عبيدة صلحاً. وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي عزل فيه خالد كان قبل فتح دمشق أو بعده والأرجح انه قبله لأن شروط التسليم والمعاهدة ومخاطبة الخليفة كانت كلها باسم أبي عبيدة الذي إستخلف على دمشق يزيد ابن أبي سفيان وإنقلب إلى فحل (آبل) شرقي الأردن لمحاربة رافضة جيش الرومان الذين أووا إلى بيسان فوجد المياه والأوحال والمستنقعات محيطة بالمدينة وقد حجزت المسلمين عن التقدم فكتبوا يستشيرون الخليفة ولا نية لهم بأن يريموا فحل حتى يأتي جوابه فظن الروم بهم ضعفاً وأغرتوهم فوجدوا المسلمين على حذر وقاتلوهم وهزموهم ففاصت أرجلهم في الوحل فأتوا على آخرهم

وكان نصراً مبنياً وسمي ذلك اليوم "ذات الردغة"، فانصرف أبو عبيدة بخالد ومن معه إلى حمص. فلنتركه وشأنه ولنذكر ما تم وجرى في فلسطين .

(٣٠) أجنادين

محل واقع بين بيت جبرين والرملة كما أجمعت على ذلك كتب التاريخ وياقوت وقد اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين ومن يستقصي التواريخ العربية يشبه عليه أنه حدث موقعتان متعاقبتان والحقيقة أنها موقعة واحدة لأن العرب لما قدموا البلاد كان كل أمير مستقلاً غير مرتبط بالآخر فانسابوا في داخل البلاد فلما نشط الروم لمناهضتهم تركوا ما فتحوه وانضموا إلى بعضهم في اليرموك تحت لواء خالد بن الوليد. وبعد انتصارهم ذهبوا إلى دمشق ففتحوها ثم انتشروا ثانية يفتحون ويغنمون فسار عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى بيسان ففتحوها صلحاً. وفتح أبو الأعور السلمي طبرية سنة ١٤ هـ سنة ٦٣٧م على صلح دمشق وان يشاطروا المسلمين المنازل في المدينة وما أحاط بها مما يصلها لينزل فيها القواد. ثم قصد عمرو أشغال حامية الروم وعساكرهم المرابطة في المدن المسورة خشية اجتماعهم فيؤلفوا قوة كبيرة ورأى ان يناضلهم غير مجتمعين فصرح يزيد بن أبي سفيان أخاه معاوية لحصار قيسارية وانطلق علقمة بن مجزّر لحصار غزة وعلقمة بن حيك ومسروق بن

نظن ما ورد في كتب التاريخ كان سهواً وتحديد المكان مغلوطاً وربما كانت أجنادين جنين أو اللجون أو طولكرم على حسب ما ورد في سير الخواص الدالة على أنها واقعة بعد مرج الروم "ابن عامر" حيث تكثر المياه.

فلان العكي لقتال إيليا "القدس" وأبو أيوب المالكي إلى الرملة. ونهض هو جنوباً فأقام على أجنادين وفتحها سنة ١٥هـ سنة ٦٣٧م. وقتل في هذه الواقعة الأمير عون ابن الملك النعمان بن المنذر جد أسرة أرسلان ثم ساحت القواد في فلسطين ففتحوا غزة واللد وسبسطية ونابلس ويافا وعمواس وبيت جبرين. واستعصت الرملة والقدس. وقيسارية وعسقلان فاجتمع معظم الجيش لحصار القدس وقد بلغ ٣٧ ألف مقاتل وكانت السماء ممطرة فنزل خالد بن الوليد مما يلي باب أريحا وعروة بن مهلهل مما يلي طريق الرملة وواصلوا الحصار أربعة شهور .

(٣١) فتح بيت المقدس

عجز الروم وايقنوا أن دولتهم دالت وأنهم مأخوذون سيما والمسلمون يحترمون بيت المقدس ويقدرسونها فلا يسمحون بها لغيرهم فتاجوا بينهم وأقروا على التسليم وطلبوا إلى جيش أبي عبيدة إن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وان يكون المتولي للعقد الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه بذلك فحضر إلى الجابية وقدم عليه رسل إيليا فتلقاهم المسلمون براية الأمان وصالحوهم على الجزية وأمنوهم على القدس وحيزها وهذه شروط المعاهدة: التي كتبت في الجابية كما أوردها الطبري وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان:

"أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها

وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتفض منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء إن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية. ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فأنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان .. فمن شاء منهم قعد وعليهم مثل ما على أهل إيليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصلوا حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله ذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية كتب سنة ١٥ هـ شهد خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان".

أما معاهدة الرملة فهي عين معاهدة بيت المقدس، وقد أورد الإنس الجليل زيادة على هذا العهد منه:

- ١- أن لا تبنى كنائس ولا تتجدد في خطط المسلمين إذا هدمت.
- ٢- أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام بلياليها.
- ٣- أن لا يواروا جاسوساً ولا يكتموا غشاً للمسلمين ولا يمنعوا من أراد الإسلام.

٤- إن لا يبيعوا خمرأ ولا يضروا بأحد من المسلمين .. إلخ

فلعل الزيادة التي ضمنها الإنس الجليل للمعاهدة المسطورة في تاريخ الطبري هي ذبول أضافها عليها الملوك والخلفاء المتأخرون بحسب الظروف وإلا فالطبري أولى بدرجها لأن تاريخه مفصل وقد بناه على الإسناد والتحقيق .

وبعد أن أمضى العهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخص إلى بيت المقدس بشيابه البسيطة وموكبه الديموقراطي لا كما نراه من قواعد وملوك القرن العشرين الذين لا يسيرون إلا بالقطارات الخاصة أو الأتوموبيلات الفخمة بأبهة عظيمة وحاشية مهيبة فقدم المدينة وخيم خارجها إلى أن سلموها فدخلها وزار كنيسة القيامة فلما أدركته الصلاة خرج منها وصلى أمامها حيث كنيسة سيدتنا مريم فأنشئ هناك جامع وأمحي ولم يصل في خشية أن يدعيها المسلمون ويحولوها إلى مسجد .

ثم طلب إلى البطريق "صفرونيوس" أن يريه مكان هيكل سليمان فذهب وأياه ودله عليه فلما شاهده مزبلة قذر وأطلالاً دثرة دهش وأخذ يحفن التراب وينحضه بكفيه فتبعه من معه حتى تصيب عرقاً وأمر ببناء مسجد فوق الصخرة في الحرم الشريف الذي يقدسه جميع مسلمي الأرض ثم أمر علقمة بن مجرز على نصف فلسطين الجنوبي وقاعدته إيليا وعلقمة بن حكيم على نصفها الآخر وعاصمته الرملة ورجع إلى الحجاز عاصمة الخلافة. وبعد سبع سنين فتح معاوية بن أبي سفيان مدينة قيسارية بوشاية رجل يهودي دلّ العرب على نفق فدخلوا منه إلى المدينة وفتحوها وسنة ٢٣هـ فتحت عسقلان ولم يبق للروم

مدينة ولا قرية فزال ملكهم عن فلسطين وأصبحت البلاد عربية في حكومتها وشعبها .

طاعون عمواس

كانت عمواس قرية يزيد بن أبي سفيان وهي اليوم من ناحية بني مالك تبعد ١٧ كيلوا متراً إلى الشمال الغربي من القدس انتشر منها الطاعون فمات أمين الأمة الإسلامية أبو عبيدة وأناب مكانه معاذ بن جبل فطعن وكلاهما مقبور في غور بيسان ويجاورهما قبر شرحبيل بن حسنة. وتوفي أيضاً يزيد بن أبي سفيان. ولما عين عمرو بن العاص أميراً عاماً للجند أمرهم إن يتفرقوا ويتوزعوا على رؤوس الجبال متباعدين عن بعضهم فخف الوباء وإنقطع المرض.

ويقدر مجموع من توفي بهذا الطاعون خمسة وعشرين ألف نفس وليس هذا العدد بكثير لما شاهدناه في الحرب العظمى .

وفي سنة ٦٣٨م تم للمسلمين الفتح فقسموا البلاد إلى أربع ولايات "أجناد" فكانت فلسطين قسمين (١) جند الأردن وعاصمته طبريا وبلادها بيسان وعكا والقلعة (٢) جند فلسطين وحاضرتة الرملة وبلادها القدس وعسقلان وقيساية وأريحا ويافا وعمان (٣) دمشق وبلادها بيروت وصفد وصيدا (٤) الثغور التي فصل العباسيون جزءاً منها سنة ١٧٠ هـ وسموه العواصم وحاضرتها حمص وحلب وإنطاكية وطرابلس. إما مدينة القدس فكان لها إمتيازات خاصة لما لها من الإحترام الديني في نفوس المسلمين وقد التبس

على بعض المؤرخين فظنوها مستقلة عن الرملة والحقيقة إنها كانت تابعة إليها
وسنة ٢١هـ تعين معاوية والي دمشق والأردن حاكماً على البلقاء والأردن
وفلسطين والسواحل وأنطاكية وكليكية ومعرة النعمان ولما إستخلف عثمان
أشاف إليه جميع البلاد السورية فإنتدب معاوية علقمة بن حكيم الكناني والياً
لفلسطين وأبا الأعور السلمي للأردن.

(٣٢) إدارة البلاد وأسباب نجاح العرب في فتوحهم

أ- إدارة البلاد

أبقى العرب البلاد ما كانت عليه فظل أكثر السكان يدينون بدينهم
متصلين برئيسهم الروماني في القسطنطينية كما يرتبط الآن جميع المسلمين
بالخليفة العثماني ويمارسون لغاتهم. فأهل فلسطين كانوا يتكلمون اليونانية
وأهل مصر القبطية وأهل العراق الفارسية واتخذتها الحكومة لغات رسمية في
دواوينها إلى أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان فأبطلها وألغها واستبدلها
باللغة العربية وضرب الدنانير الإسلامية فأصبحت الحكومة العربية وقتئذ
مستقلة إستقلالاً إقتصادياً ولغوياً وسياسياً. فتهافت الأعجام على تعلم اللغة
العربية ليستفيدوا من حرفة الكتابة لأن لغاتهم أهملت فتعربوا ودخل أكثر
العجم في الدين الإسلامي وتدينوا به فأصبحت البلاد عربية إسلامية محضة
يتخللها شذمة قليلة من غير المسلمين .

(ب) أسباب النجاح*

مما يدعو إلى الإعجاب بهمة العرب وأعظامهم تفوقهم على غيرهم بالرغم من عدم انتظامهم فأنهم تغلبوا على الممالك الراقية ودكوا عروش الحكومات المؤسسة التي كان لها الجند المنظم ولديها الحصون المنيعة وبيدها السلاح والذخائر وقد يعلل كثير من المؤرخين هذا النصر وينسبونه إلى عوامل معقولة وأسباب علمية مهدت لهم السبل لمد ظلهم حتى أقصى المعمور وهذه الأسباب :

(١) نشاطهم وخفة أثقالهم واكتفاؤهم بالقليل من الحاجيات ووفرة جمالهم ووسائل نقلهم .

(٢) اعتقادهم المتين في نص الآية ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ولا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾^(١) ومن الأحاديث: « الجنة تحت ظلال السيوف »^(٢)

(٣) مهارتهم وفروسياتهم ونجابة خيلهم وتفوقهم عدوهم في المبارزة واتقانهم رمي النبال.

(٤) عظمة رجال النهضة الإسلامية مثل عمر بن الخطاب وأبي بكر وأبي عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية .. إلخ

* راجع زيدان - تاريخ التمدن الإسلامي .

(١) سورة المنافقون الآية ١١ .

(٢) متفق عليه.

(٥) الصبر والمطاوله وقلة حاجتهم للزاد والعلف الذي كان يبهظ عدوهم فيمل القتال قانعاً بالسلامة .

(٦) العصبية الجنسية فإن القبائل العربية المسيحية التي كانت خاضعة إلى الحكم الروماني الأجنبي صافحت أخوانهم العرب وإنضمت إليهم وحاربت معهم الرومان وهنا رجحت جامعة اللغة على جامعة الدين .

(٧) المحافظة على خط الرجعة فانهم كانوا حريصين على خط رجعتهم حتى لا يقطع العدو وينطوي عليهم فيأخذهم أسرى .

(٨) ظفر المسلمين بالروم في وقعة اليرموك فانه أكسبهم قوة معنوية واحتقروا عدوهم فاستصغروا شأنه وطمعوا فيه.

(٩) ظلم الرومان للسكان وفساد الأحكام حتى نقم الأهالي أحكامهم وملوا ولايتهم وتمنوا تبديلها .

(١٠) اليهود فانهم كانوا آلة نقمة للعرب من الأهالي وأداة إنتقام ودليلاً للطرق شأنهم مع كل فاتح.

(١١) عدل المسلمين والتسوية بين الناس فلم يكونوا يفرقون بين أمير وحقير ورفيع ووضع "ديموقراطية بحتة" .

(١٢) استبقاء الناس على ما كانوا عليه فلم يتعرضوا لدينهم أو معاملتهم أو أحكامهم القضائية والعرفية.

(١٣) وفرة الغنائم فقد فاض على المحاربين بحر من ذهب فكانوا يجنون من فتح البلاد غنى عاجلاً وغنائم جاهزة حتى إن كثيراً من العرب المنتصرة

اعتنقوا الدين الإسلامي وحاربوا حباً في المال .

(١٤) ضعف الفرس والرومان باختلافاتهم الداخلية وعدم إخلاص القواد ملوكهم وأمرائهم والذي يقابل بين فتح سورية ومصر وبين فتح العراق يستغرب كيف خضعت الأوليان واستعصت الثالثة واتعبت المسلمون فظلت بعد فتحها محافظة على لغتها وعاداتها ولم يمض عليها قرن ونصف حتى استبدلت حكومتها الفارسية الوثنية بحكومات فارسية إسلامية فإصطفت الدين فقط وأنفت أن تتعرب كما فعلت الحكومات الأوروبية فأنها تنصرت مع المحافظة على جنسيتها ولغتها والسبب في ذلك أن دولة الرومان كانت مستعمرة لسورية فلما غلبت انحسرت عن البلاد. وظل السكان وأكثرهم العرب فاندمجوا في الحكومة الإسلامية والقومية العربية وأصبحوا أمة واحدة. أما العراق فكانت حكومته فارسية وكان سكانه عجماً فلما سقطت دولتهم ظلوا فرساً فاعتنقوا الدين الإسلامي ولكنهم لم ينسوا استقلالهم فتربصوا حتى سنحت لهم الفرصة فاستعادوا ملكهم وقد حاولوا مرات قلب الحكومة العربية فقتلوا عمر بن الخطاب وتحزبوا لأل البيت وساعدوهم في ثوراتهم ونصروا بني العباس ولا غرض لهم من كل هذا إلا دك الدولة العربية واسترجاع دولتهم الفارسية.

(٣٣) الفتح العربي الإسلامي والخلفاء الراشدون

شرعت الحكومة العربية توسع حدودها وأطرافها فتجاوزت سورية

ومصر وشواطئ افريقية الشمالية والعراق وأيران والأفغان إلى أن توفي عمر بن الخطاب وانتخب عثمان بن عفان فضعف عن ضبط البلاد لتغير الأحوال وتفرق النزعات والآراء فهمم بإدارة المملكة كما يريد مروان بن الحكم ومعاوية بن أبي سفيان فأخذ برأيهما وولى أهله الأمصار وتعصب لقومه فعزل أهل السابقة في الإسلام والشهرة في الفتوح. فاغتم هذه الهفوة يهود الحجاز الذين دخلوا في الدين الإسلامي ليفسدوه ويهدموا أركانه فطافوا الأمصار وقدم زعيمهم الأكبر عبد الله بن سبأ "ابن السوداء" الشام ليوغر الصدور مبشراً بكلمات براءة منها: "إن معاوية يقول المال مال الله إلا أن كل شئ لله يريد أن يحتجته دون الناس ويمحو اسم المسلمين ويتلو الآية ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾^(١) وقال أعجب ممن يقول برجة المسيح ولا يقول برجة محمد وكيف تعصون آل بيت نبيكم" ووضع أحاديث كثيرة وزور كتباً ورسائل أرسلها إلى البلدان يؤلب على عثمان. فإختمرت الثورة ونضجت في أفكار المسلمين فاشتعلت الفتنة واضطربت في كل الأقطار خلاً سورية لأن معاوية كان ساهراً يقظاً فخرج الثوار من مصر والعراق إلى المدينة ناقلين من أعمال عثمان ومطالبين بالرجوع إلى سيرة العمرين وبعضهم يقول أن علياً أحق بالخلافة من سواه فإنبجلت هذه العاصفة عن قتل عثمان واختيار علي مكانه وشذ طلحة والزبير وخدعا عائشة أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم وخرجوا إلى العراق وخالفوا علياً

(١) سورة التوبة الآية ٣٤.

فحاربهم وظفر بهم "في وقعة الجمل فقتل الاثنان وأسرت عائشة وامتنع معاوية بسورية ولم يبايع لعلي وأخذ يتهمة بأنه رأس الضلالة. وأنه هو الذي ألب على عثمان وأوى قتلته فاجتمع بنو أمية حوله وعاضده عمرو بن العاص على أن يعطيه مصر طعمة. فغضب علي وهباً لمقاتلته ومناجزته فالتقوا بصفين سنة ٣٦ هجرية واختلفت بينهم الرسل وتكرر السفراء طمعاً في الصلح فلم يتوفقوا خيراً. وفي سنة ٣٧ هجرية أبتدأت الحرب وقد أظهر جند الأردن شجاعة فائقة. ثم أتفقوا على تحكيم رجلين فصلاً للخلاف ورفقاً بالمسلمين فأختار معاوية عمرو بن العاص داهية العرب ورضي علي بأبي موسى الأشعري. ولما اجتمع الحكمان وتفاوضا كاد عمرو أبا موسى وقال له لنخلع الرجلين حقناً للدماء ويكون الأمر شورى فخدع أبو موسى وقام خطيباً فخلع الرجلين (علياً ومعاوية) ثم قام عمرو فخلع علياً وأقرَّ معاوية فلم ترض شيعه علي بهذا الحكم وافترقوا مختلفين. ومن هنا بدأ أمر علي يضعف ويضمحل وشأنه يسفل وشأن معاوية يعلو حتى قتله ابن ملجم وبايع جنده ولده الحسن ثم إنتقضوا عليه فاستشار الحسن أخاه الحسين في التنازل عن الخلافة فنهاه قائلاً "أياك أن تصدق أحذوثة معاوية وتكذب أحذوثة أبيك" فلم يسمع منه وخلع نفسه بعد ستة شهور من حكمه وبايع معاوية وسلم إليه الكوفة عاصمة أبيه في آخر ربيع الأول سنة ٤١ هـ فسمي هذا العام "عام الجماعة" لأنهم أجمعوا به على خليفة واحد ولكن الخوارج كثروا وعصوا على الخليفة فكان كلما قضى على فرقة تبت أختها وظلت طوائفهم تتعاقب حتى حين. فالطوائف الشيعية والزيدية والدرزية والإسماعيلية والأباضية هي بقية أولئك

الخوارج الذين تكوّنت نواتهم من نفثات ابن سبأ والذين حاربوا بني أمية وبني العباس وكادوا يهدمون الدين الإسلامي لولا أنه كان فتياً ويقوضون الدولة العربية لولا عصبيتها القومية.

(٣٤) نبذة من تاريخ القرآن الكريم

إن للقرآن أهمية كبرى في توحيد كلمة العرب وفتوحاتهم العظيمة نذكر هنا شيئاً عنه:

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدة ٢٠ سنة فكانوا يكتبونه على الرقاع وعظام الأكتاف وعشب النخل واللخاف أو يستظهرونه ويسمون حفظته الحفاظ. ويقسم القرآن بحسب محل النزول إلى مكّي ومدني. أما باعتبار النسخ والمنسوخ فله أقسام: قسم ليس فيه لا ناسخ ولا منسوخ وهو ٤٣ سورة الفاتحة، يوسف، يسين إلخ. وقسم فيه الناسخ فقط وهوست: الفتح، الحشر، المنافقون، إلخ. وقسم فيه منسوخ فقط وقسم فيه ناسخ ومنسوخ وهو ٢٥ سورة البقرة، الحج النور إلخ .

والنسخ على ثلاثة أضرب أحدها ما نسخت تلاوته وحكمه، الثاني ما نسخ حكمه دون تلاوته الثالث ما نسخت تلاوته دون حكمه وكل ذلك تم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فلما قبض وارتد العرب وقتل أكثر الحفاظ في غزوة اليمامة أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بجمعه فتردد ثم جمعه من تلك المخطوطات ومن صدور الرجال. وأبقوه عند أبي بكر حتى مات فأخذه عمر فلما قبض بقي عند ابنته حفصة وفي خلافة عثمان إنتشر

المسلمون في كل الأقطار فذهب القراء في تلاوته مذهب شتى فشهد حذيفة بن اليمانى اختلافاً بين المسلمين في قراءة بضع الآيات ورأى بعضهم يفضل قراءة أبي موسى على ابن مسعود * فأنبا عثمان بذلك وأنذره بسوء العاقبة فبعث إلى حفصة بنت عمر أن يرسلني الصحف لنسخها ونردها إليك فأرسلتها فدعا عثمان أجلة الصحابة وأمرهم أن ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء وقال لهم أن إختلفتم في شئ فأكتبوه بلسان قريش ففعلوا ذلك سنة ٣٠ هـ وكتبوا ستة مصاحف فبعث عثمان بأربعة منها إلى الأمصار مكة والبصرة والكوفة والشام وأبقى اثنين في المدينة. والمصاحف التي نداولها الآن هي فرع عن ذلك الأصل. كتب القرآن بلا شكل ولا أعجام حتى أيام زياد فوضع نقطاً لونها يخالف لون الكلمة "أعجام غير واف" ثم وضع أبو الأسود الدؤلي نقطاً لتمييز بها الاسم والفعل والحرف وربما اقتبس هذا من السريان والكلدان أما صور الحركات التي وصلت إلينا وهي الضمة والفتحة والكسرة فقد وضعها نصر بن عاصم بأمر الحجاج بن يوسف وجعلها أفراداً وأزواجاً. ثم أضيف إليها الحركات الممالة وهي الإمالة (e) والروم (u) والإشمام (o) فكانت لها أوضاع خصوصية وزيدت عليها علامات أخرى مقتطعة من كلمات تؤدي المعنى المراد نحو مد " ~ " صل " ~ " شد " ~ " . ولكن حفي بك ناصف قال في كتابه حياة اللغة العربية أن الشكل موجود قبل الإسلام وأسند حجته بأدلة وبراهين قاطعة. ومن المسلمين من يعتقد إن القرآن

* ومن هنا تفرعت القراءات الشاذة والصحيحة فايبتت الفاسدة ولم يبق إلا القراءات السبع وأشهرها قراءة حفص (راجع الأتقان) .

قديم ومنهم من يقول أنه حادث ومحدث هذه البدعة درهم بن الجعد إما المأمون فقد أمتحن العلماء القائلين بقدمه ونكل بهم المعتصم من بعده.

(٣٥) آثار الخلفاء الراشدين في فلسطين

الأبنية التي على رؤوس الجبال قد حولوها مناظر "مناظر" وجعلوها يشرف الواحد منها على الآخر فإذا داهمهم العدو أنذر بعضهم بعضاً نهراً بالدخان وليلاً بالنار فينتقل الخبر بسرعة كالتلغراف ويأتيهم المدد. ومن آثارهم تأسيس دور الضيافات وفرض عطاء للمجذومين وبناء الجوامع في القدس ونابلس وبيت لحم وغيرها.

(٣٦) أبطال النهضة الإسلامية

أن جميع النهضة القومية والانقلابات الاجتماعية يتقدمها أعمال تمهيدية تسهل لها النجاح فالانتباه الفكري والنبوغ الشخصي ركنا النهضة. وقد نبغ في الصدر الإسلامي أساطين عظام كان لهم القدح المعلى في تكوين النهضة الإسلامية والدفاع عنها فجدير بنا أبناء الأمة العربية أن نرفع لهم التماثيل اقراراً بفضلهم واعترافاً بعظمتهم وتنوياً بأعمالهم لنشفي بهم النفوس المريضة ونداوي الهمم الضعيفة فنقتصر هنا على سير من فتحوا فلسطين وكانوا عاملاً كبيراً في إحياء الأمة العربية فنقول.

١- عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب من بني عدي بطن من بطون قريش وكنيته أبو حفص كان تاجراً وله السفارة في الجاهلية فإذا ما اختلفت قريش وقبيلة أخرى انتدبته

وحده للمفاوضة ولا حق لسواه أن يشاركه فيها .

كان المسلمون ضعافاً حتى أسلم فاعتز الإسلام به وصحب النبي ﷺ خير صحبة وكثيراً ما نزل القرآن بما أشار به وشهد غزوات بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان. ولما ولي الخلافة قال "اللهم أني شديد قليني وأنني ضعيف فقوّني وأنني بخيل فسخني ان رأيتم فيّ أعوجاجاً فقوموه" فأجابه أعرابي قائلاً لو رأينا فيك أعوجاجاً لقومناه بسيوفنا. فحمد الله الذي أوجد في قومه من يقوم أعوجاجه. وهو أول من وضع التاريخ الهجري وفرض العطاء "رتب الرواتب" ودوّن الدواوين فأسس نظارة المالية والحربية والإعاشة وقسم البلاد إلى مناطق وعين عليها الأمراء ورتب الغزوات في الشتاء "الشواتي" وفي الصيف "الصوائف" ورتب البريد مجاناً وأمر ببناء البصرة والكوفة وتخطيط شوارعهما بعرض ٢٠ ذراعاً والأزقة بعرض ٧ أذرع وحجر على المجذومين ومنعهم ملامسة الناس.

وأقام العيون "الاستخبارات" يوافونه بالأخبار وعين قاصاً "مفتشاً" يطوف على المأمورين ويحقق الشكايات سراً وعلناً ويحمل إليه ما وجدته بالتدقيق. وأسس الحسبة "مجلس البلدية" لمشارفة الموازين والمكاييل ومراقبتها ولمنع الغش وتنظيف الأزقة والرفق بالحيوان فيجازي من حمله أكثر مما يطيق ويهدم البناء المحدث في مجتمع السوق وحظر على الناس الإزدحام في الطرق وأمرهم أن يسترّوا الكنف وينحوا مئاعبها عن السبل. وكان إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وكان ديموقراطياً لا فرق عنده بين الملك والسوقة وحادثة

الملك الغساني جيلة بن الأيهم مع الفزاري مشهورة وقصة عبد الله بن عمرو ابن العاص مع القبطي ظهيرة وقوله المأثور "مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحراراً" فكانت إدارته عرفية شديدة عادلة. كبح جماح الغطرسية البدوية وبني عليها التساهل الحضري.

كان يحب التجارة وحرّض قومه على مزاولتها فقال "لا تلهكم الرياسة وحبها يا معشر قريش لا يغلبنكم الغرباء على التجارة فأنها ثلث الإمارة" وكان إذا رأى فتى نشيطاً سأل عن حرفته فإن قبل لا حرفة له هان عليه وكان يكره الكسول ويكره من يقطف رأسه إلى الأرض وكان يقول للقرءاء أرفعوا رؤوسكم ولا تكونوا عيالاً على المسلمين كان يكره التنطع في الدين والولع في الزهد فأمر أن يعجل بأفطار رمضان وأن تمشي الناس مشية غير ناكسي رؤوسهم. وكان يقول للحجر الأسود أني أعلم أنك لا تضر ولا تنفع. ولما أخذ الناس يعظمون الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى الله عليه وسلم قطعها وفي الحقيقة أنه من أعظم بناء الإسلام ومكوني الأمة العربية. وفي خلافته فتحت سورية والعراق وإفريقية ثم فجع أبو لؤلؤة العرب بقتله.

٢- خالد بن الوليد

هو من بني محزوم بطن من بطون قريش كان قائد فرسان قريش في الجاهلية "الأعنة والقبّة" فلما أسلم أنفذه النبي مع سرية زيد بن حارثة لغزو الروم فكانت موقعة مؤتة وأستشهد فيها القواد إلى أن رفع المسلمون الراية إليه فأخذها وقاتل حتى اندق في يده بضعة أسياف فسماه النبي سيف الله المسلول

ثم اختاره أمير فرسان "سوارى" المسلمين وأبلى في فتح مكة البلاء الحسن
وهدم صنم العزى وهو ينشد.

يا عزّ كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

وفي غزوة تبوك بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أكيدر دومة الجندل
فأسره وكان ترساً وسوراً للمسلمين. وبعد أن قبض النبي صلى الله عليه
وسلم وارتد العرب وجهه أبو بكر لمقاتلتهم فأسلم بنو طي قبل قدومه خوفاً
منه ونهد إلى طليحة الأسدي الذي كان قد أدّعى النبوة فقلّ جيشه وهزمه
وقصد "أم زمل" فقتلها وتفرق من معها وسار إلى بني تميم وتخلف عنه الأنصار
منتظرين أمر الخليفة فقال لهم خالد "أنا الأمير وإيّ تنتهي الأخبار ولو أنه لم
يأت إلى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت أن أعلمت بها الخليفة فأتني لم
أعلمه حتى أنتهزها وكذلك لو إبتلينا بأمر ليس فيه منه عهد أشاور قومي ثم
أعمل. وها أنا قاصد ولست أكرهكم" فسار ثم لحقوه فقتل مالك بن نويرة
أمير بني يربوع وتزوج امرأته فغضب عمر وطلب من الخليفة أن يقتص منه
فأجابه: أرفع لسانك عن خالد فأني لا أشيم سيفاً سله الله لقد تأول فأخطأ.
وأستفحل أمر مسيلمة وأدّعى النبوة ونكب جيش عكرمة وهزم جيش
شرحبيل فرماه أبو بكر بخالد فذهب وقد خاف فرار من معه ففصل الأحياء
عن بعضها ليظهر بلاء كل قبيلة على حدة. وبعد حروب شديدة عزمه وقاتله
ولما أن هدأت الثورة الداخلية أرسله الخليفة إلى أسفل العراق ففتح الأبله ثم
الحفير وقصد الحيرة فدفع إليه إياس الطائي ٩٠ ألف درهم جزية.

وقدم إليه الفرس هدايا كبيرة فحسبها من الغنائم وأرسل خمسها إلى أبي بكر. وهزم الفرس على نهر الثني وعند الوجلة وعلى نهر الليس فأتاه الدهاقين وصالحوه وسار إلى الأنبار ففتحها وحزف إلى عين التمر وامتلكها. وقد تضايق القائد عياض بن غنم وإستصرخه فأجابه: (من خالد إلى عياض أياك أريد) فسار وهزم أمير دومة الجندل وأخذ الحصن وشرع يتمم فتح العراق إلى أن بعثه أبو بكر إلى سورية فأخذ معه نصف الجيش ومر بتدمر وأتى المسلمين في اليرموك فوحد قواهم وخطب فيهم وعبى الجيش تعبئة فنية وبعد قتال عنيف هزم الرومان ولم يبق لهم بعدها قائمة ثم ذهب إلى دمشق وفتحها وبعد أن عزله الخليفة عمر عن الإمارة العامة دخل صفوف المسلمين كجندي وحارب في بيسان ورجع إلى سورية فافتتح البقاع وفتح قنسرين وصالحه أهل حلب وفتح مرعشاً وخرب حصنها حتى لا يعتصم به أهلها.

فدهش أمير المؤمنين من أعماله العظيمة وقال "عجزت النساء أن تلد مثل خالد لقد أمر نفسه يرحم الله أبا بكر كان أعلم مني بالرجال".

ثم استدعاء إليه وترضاه فعاتبه خالد بكلام قاس فأجابه عمر "ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بهم" وكتب بذلك إلى الأمصار وهي أعظم شهادة لحفظ كرامة خالد الذي مثل على عرش الأكاسرة ودك أرائك القياصرة ولما أتته الوفاة قال عند احتضاره "لقد شهدت مائة زحفة أو زهاءها وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما تموت العير فلا قرت أعين الجبناء" وفي الجملة فإنه رجل الإسلام

وقامع الردّة وبطل اليرموك ولو أردنا إستقصاء أخباره لطال بنا البحث فنترك تحليل هذه الروح العظيمة إلى نباهة القراء وإستنتاجاتهم.

٣- أبو عبيدة

هو عامر بن عبد الله بن الجراح ويتصل في فهر بنسب النبي صلى الله عليه وسلم الذي لقبه أمين الأمة وهو أحد العشرة الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم وفي موقعة بدر كان أبوه مشركاً فتصدى له وهو يجيد عنه ثم قتله وهذا من أعظم الإيمان وأثبت المبادئ الصادقة والعقائد المتينة التي لا يحول دونها شفقة ولا حنان وقد اختاره الفاروق قائداً عاماً لجيوش سورية فقام بوظيفته خير قيام وكان محترماً في قومه مستشاراً فيهم رفيقاً بضعفائهم معروفاً بالرأي والدهاء. سلمت إليه طائفة من دمشق صلحاً وحاصر فلول اليرموك في بيسان وحاربهم في فحل فأجهز عليهم. وسار إلى حمص ففتحها صلحاً وسلمت إليه معرة النعمان وحماة وامتنع أهل اللاذقية فاحتال عليهم وأمر بحفر سرب في الأرض يستر الفرس والفارس وأظهر لأهل المدينة أنه راحل وصبر حتى جنهم الليل فعادوا إلى حفائرهم فظن أهل المدينة أنهم أنصرفوا ففتحوا الأبواب وخرجوا فلم يرعهم إلا ظهور المسلمين من كل جانب ودخلوها عنوة. وفتح أنطاكية مرتين وكانت مشحونة بالمقاتلة ووضع فيها جيشاً يربط الأعداء لوقوعها على الحدود.

ولم تطب نفس هرقل عن الفتح فعاود الكرة وفاجأ العرب بجند كثيف فخطب أبو عبيدة في قومه قائلاً: "أيها الناس هذا يوم له ما بعده أما من حي

منكم فإنه يصفو له ملكه وأما من مات فله الشهادة ولا تكرهوا الموت فإنه خير من حياة المغلوب" .

ولما طعن عمر قالوا له استخلف يا أمير المؤمنين فقال "لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألتني سمعت نبيك يقول أنه أمير هذه الأمة" .

وقد توفي في طاعون عمواس ودفن في غور بيسان وله أوقاف كثيرة وبني مشهده الملك الظاهر بيبرس وأوقف عليه بلاداً وأرضاً واسعة .

٤ - عمرو بن العاص

هو من بني سهم بطن من بطون قريش وكان يعير بأمه لأنها سبية ولولا هذا الحيف الذي لحقه لزاحم على الخلافة. كان جزاراً وتاجراً وله مكانة سامية عند قومه لشهرته بالملكة واختراع الحيلة وكان يلقب داهية قريش .

تأخر إسلامه ولكن حسنت صحبته وقاد سرية ذات السلاسل وفيها أبو بكر وعمر وكانت ليلة قرّة فكلمه أبو بكر كي يسمح للعرب بوقود النار فأجابه لا يوقد أحد منهم ناراً إلا ألقيته فيها فشكوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إنني كرهت أن آذن لهم بوقود نار فيرى عدوهم قتلهم ويعطف عليهم فحمد رأيهم وأرسله على صدقات عمان فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم أقبل فنزل بقرّة بن هبيرة فأكرم مثواه ولما عزم على الرحلة خلا به قرّة وقال أن العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة "الزكاة" فإن أعفيتها من أخذ أموالها تسمع لكم وتطيع وأن أبيتم فلا تجمع عليكم فقال له عمرو "أكفرت يا قرّة أتخوفنا بالعرب فوالله لا وطن عليك الخيل في حفش أملك" .

وأعماله في فلسطين درجناها ملخصة فلا حاجة لاعادتها. كان شديد التطلع إلى مصر فهوّن فتحها للخليفة عمر حتى أذن له فسار بأربعة آلاف جندي ثم تبعته النجدات ففتح الفرما وبلبيس وأسر بنت المقوقس فجهزها وأعادها إلى والدها فسر بذلك وصالحه ولكن هرقل رفض الصلح فأقبل المقوقس إلى عمرو وعرفه أن الملك كره ما فعلت وأمر الروم بقتالك ولكني لا أخرج مما دخلت فيه وأنا سلطان عليّ وعلى من أطاعني وأرفق بالقبط فأنهم أعوانك فجمع عمرو عدته وهاجم الفسطاط فامتلكه وبث قواده فشرعوا يفتحون المدن والبلدان إلى أن تم له الفتح وقد تألف قلوب القبط فأعاد بطيركهم بنيامين الذي نفاه الرومان إلى منصبه ولم يقتصر عزمه على فتح مصر فقط بل جهز جيشاً واخترق الصحراء واحتل برقة وبنغازي وطرابلس الغرب وما جاورها وحفر الخليج من النيل إلى البحر الأحمر ووصله إلى بركة التمساح. ولما أصاب أهل الحجاز مجاعة عام القحط والرّمادة طلب منه الخليفة زاداً فكتب إليه "أما بعد يا لبيك ثم لبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام".

وهو الذي أبطل تقديم عروس النيل ولقد وصف مصر فقال: "مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان يدرّ حلابه ويكثر عجاجه وتعظم أمواجه فتفيض على الجانبين فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدا في جريته وطما في رده فتخرج محفورة يحرثون بطون الأرض ويبدرون بها

الحب فينما هي لؤلؤة بيضاء فإذا هي عنبرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء
فإذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله أحسن الخالفين".

ولما صرفه على عن ولاية مصر حقدتها عليه وحرك لسانه فاعتزل
السياسة وسكن الرملة إلى أن حدث الخلاف بين علي ومعاوية فكان من أكبر
أنصار الثاني وأعظم أعوانه مستشاره في صفين وأحد الحكمين الظافر الذي
ظل يعهد لمعاوية السبل ويسهل له الصعاب إلى أن أقل نجم علي وتكملت
حدوده فأخذ طعمته مصر وتملكها (ومن شاء الزيادة فليراجع ترجمة عمرو بن
العاص تأليف حسن إبراهيم).

الفصل السادس

(٢٧) فلسطين أموية

بوفاة علي بن أبي طالب انقرضت الجمهورية العربية وتبدلت حكومتها الشورية بملك عضوض. فكان الخلفاء الراشدون لا يرثون الخلافة عن آبائهم بل كانوا يتعينون باتفاق الأمة واجماعها. وكل من كانت تضعف ثقته بالخليفة يتربص عن البيعة منزوياً فلا يروّع إذا ما خيف شره فإن أضمر خلافاً أو سوءاً يجبر على البيعة واتباع الجماعة الإسلامية طلب إليهم الرجوع إلى السنة فإن فعلوا سكن مستقيماً و الاجاز له خلع الطاعة.

مضت هذه الجمهورية العربية وابتدأت الحكومة الأموية بمؤسسها الكبير والإداري القدير معاوية بن أبي سفيان الذي لم يكن طموحه إلى الخلافة شرهاً بل كان رجلها الفذ وبطل بني أمية الفرد الذين هم كانوا زعماء قريش في الجاهلية. فلما جاء الإسلام عابوه وقاوموه باطلاً فأرغموا يوم فتح مكة على الدخول فيه فترضاهم النبي صلى الله عليه وسلم وجعل لهم امتيازات خاصة فقال « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وأعطى من غنائم حنين لكل من أبي سفيان وابنه معاوية ١٠٠٠ بعير ليتألفهم فسموا «المؤلفة قلوبهم» وظل معاوية يتقدم إلى أن صار كاتب وحي النبي ثم اشترك وأخاه يزيد في فتح

(١) متفق عليه.

سورية ونالا في خلافة العمرين مكاناً علياً فوليا إمارة الجند وإدارة البلاد فلما ولي الأمر عثمان وقتل إتخذ معاوية قتله ذريعة لنيل الخلافة وصار يطالب بقتلته ويماطل في بيعة على إلى أن فاز عليه وبويع له بالخلافة سنة ٤٠ هـ في بيت المقدس. وسنة ٤١ هـ بايعه الحسن فخلا له الجو ولم يبق له مخالف فيتخذ مدينة دمشق عاصمته لأن أهالي سورية وفلسطين كانوا حزبه القوي وركنه المتين فسكنوا بينهم وتآلفوا قلوبهم وأقتطعوا الضياع في فلسطين فأوقف عثمان قريته سلوان على فقراء بيت المقدس وعمواس كانت أقطاع يزيد بن أبي سفيان والرملة مركز سليمان بن عبد الملك وكانت شرقي الأردن دساكر خلفائهم فيزيد الثاني توفي في أريد من أرض البلقاء وسكن الوليد الثاني بعياله وأمواله على ماء الأغدف من نهر الزرقاء وكان يطعم من وفد إليه ثلاثة أيام سواء كان صادراً من حج أو قافلاً من صائفة. وكان معاوية أول من أحدث ولاية العهد في الإسلام فبايع إلى ولده يزيد في حياته فأنكر ذلك نفر من الصحابة الحجازيين وامتنعوا من مبايعته لانهم ألفوا أن يكون أمرهم بينهم شورى فينتخبون الأفضل والأصلح خليفة لهم فاغدق عليهم معاوية الأموال حتى انصرف بعضهم إلى ملذات الدنيا وطيباتها وأصبحت المدينة مصدر اللهو والطرب رغماً عما في عليه من المناخ والأقليم ولكن البعض أكبر هذا العمل وجثم مستوفزاً فلما قضى معاوية هب الحسين بن علي ونزا نزوته فتوجه إلى العراق مشاقاً يزيد فقتله شمر بن ذي جوش (جد عائلة الشمامرة في قرية طلوزة) وأتى برأسه إلى دمشق فدفن فيها بباب الفراديس وقيل أنه دفن بعسقلان فبنى الملك الأفضل في خلافة المستنصر العلوي مشهد الرأس عليه ثم

نقله إلى القاهرة وبنى له مشهداً.

نشأة يزيد بن معاوية في فلسطين مع أمه ميسون بنت بحدل وكان شاعراً
مجيداً فمن شعره :

دعوت بئاء في إناء فجاءني غلام به خمراً فأوسعته زجراً
فقال هو الماء القراح وإنما تبدى به خدي فأوهمك الخمرا

وبعد وفاته بويج لابنه معاوية الثاني فكان في زمنه بيعتان أحدهما إليه في الشام والثانية في الحجاز لعبد الله بن الزبير ولم تطل مدة الأول أكثر من ثلاثة أشهر فإنه لما رأى إنشعاب المسلمين وأنه عاجز عن إصلاحهم جمع الناس وخطب فيهم قائلاً: "أما بعد فأني قد ضعفت عن أمركم فإبتغيت مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر أجده فإبتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فأختاروا له من أحببتهم" ثم تغيب حتى مات فهذا عمل الشاب المخلص الذي انقرضت بموته الدولة السفينية.

اضطربت الأفكار في سورية وفلسطين وأتجهت الأنظار نحو الحجاز فاجتمع أمراء سورية على مبايعة ابن الزبير خلاً أمير فلسطين. وهم شيخ بني أمية مروان بن الحكم ليبايعه مخافة الفتنة فنصح عبيد الله بن زياد وهون عليه الصعب وأشار عليه أن يطلب الخلافة إلى نفسه فاستشرف إليها ونصره أمير فلسطين حسان بن مالك بن بحدل خال يزيد لأن هواه كان في بني أمية فدعا روح بن زنباع. واستخلفه على فلسطين وقال له إني أرى أمراء الأجناد يبايعون لابن الزبير وأبناء قيس بالأردن كثير وهم قومي فأنا خارج إليها وأقم

أنت بفلسطين فإن جلّ أهلها قومك من لحم وجذام وسار إلى الأردن فأخذ بيعتهم بشرط أن يجنبهم أبني يزيد خالداً وعبد الله لصغر سنهما فتار نائل بن قيس الجذامي وأخرج ابن زنباع من فلسطين فالتحق بالأردن وبايع نائل لابن الزبير فأرسل حسان كتاباً إلى الضحاك بن قيس أمير دمشق يعظم فيه حق بني أمية ويذم ابن الزبير فلم يسمع منه فذهب إلى الجابية وقابل بني أمية وبعد نجوى طويلة بايعوا مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ وذهبوا إلى الضحاك رئيس القيسية فحاربوه في مرج راهط وظفروا به فبايع من معه مروان وفر نائل الجذامي إلى الحجاز واستولى على فلسطين روح بن زنباع فتم الأمر لبني أمية في سورية. ثم توجه مروان إلى مصر ففتحها وبايعه أهلها ورجع إلى قرية الصبرة "السمراء" قرب طبرية فشكر حسان وأثنى عليه وجد في السير إلى عاصمته دمشق ثم جاء أجله بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه عبد الملك وبعده لعبد العزيز فاعترضت عبد الملك أمور شاقة: ثورات داخلية، والخوارج، وشيعة علي، ومناظرة ابن الزبير، ومنافسة عمرو بن سعيد، فصبر عليها بعزيمة ثابتة وهمة راجحة وذلّ لها فأحتال على عمرو وقتله وذهب إلى العراق فقاتل مصعب بن الزبير وقتله وامتلك البلاد ثم وجه سنة ٧٢ هـ الحجاج بن يوسف بجيش إلى الحجاز ليقضي على ابن الزبير فذهب واحتل المدينة وحصر مكة وخربها بالجانيق وأضر بالكعبة وقسم حراسة أبواب المسجد على البلدان فأخذ أهل الأردن باب الصفا وأهل فلسطين باب بني جمح وأبلوا في ذلك الحرب بلاء حسناً فلما تفرق عن ابن الزبير أصحابه دخل على أمه واستشارها هل يسلم إلى عبد الملك ويأخذ منه ما أراد فقالت "أنت أعلم بنفسك أن كنت

تعلم أنك على حق وإليه تدعو فأمض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبته يتلعب بها غلمان بني أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وأن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا؟؟ القتل أحسن ... " فقال هذا رأيي فقالت أرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً أن تقدمتني احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك فخرج وقتل عظيمًا ومن ثم دانت البلاد لعبد الملك وسنة ٨٥هـ توفي ولي عهده عبد العزيز فعهد إلى إبنه الوليد ثم سليمان فبايع جميع الناس ولم يتخلف إلا الخوارج والمتدينون .

(٣٨) بناء الحرم الشريف

هو أعظم آثار بني أمية في فلسطين ومن مفاخر العرب وشهود حضارتهم ونعم الأثر فإن هندسته ونقوشه وجمال تكوينه تفوق أجمل الأبنية في الشرق الأدنى .

إن المكان الذي بنيت عليه الصخرة كان مقدساً عند جميع المسلمين لأنه من أثر الأنبياء ولأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أسري إليه به ليلاً. أما أسباب بنائه فقد ذكر أنه لما عظم الخلاف بين ابن الزبير وعبد الملك وكان كل منهما يطلب الخلافة إلى نفسه خشي عبد الملك أن ينصرف عنه المسلمون ويبيعوا ابن الزبير لتعلقهم بالكعبة والقبلة فمنعهم الحج "كما قيل" فتذمروا وضجوا فرأى أن يشاغلهم ببناء هذا الأثر العظيم حتى إذا حدث ما حذر منه سلاهم وطيب خاطرهم به .

فكتب إلى سائر الأمصار يستشيرهم في بناء قبة على الصخرة المقدسة
لوقاية المصلين من حر الشمس وبرد الشتاء ويأخذ رأيهم في ترميم جامع عمر
ابن الخطاب وتحسينه. وقال أنه لا يقدم على عمل خطير كهذا دون مشورة
المؤمنين فرضي جميع المسلمين واستحسنوا رأيهم فاستعان بمهندسي الروم
وصناعهم ورصد للبناء خراج مصر سبع سنوات وعهد بإدارة العمل إلى رجاء
ابن حيوة الكندي ويزيد بن سلام فبينا أولاً قبة السلسلة الكائنة شرق
الصخرة لتكون نموذجاً وخزاناً فيها كل الأموال وفرغاً من عمارة قبة الصخرة
والمسجد الأقصى سنة ٧٣هـ وسنة ٦٩١م وقد فضل مع الوكيلين ١٠ر٠٠٠
دينار فاخبرا الخليفة فسمح لهما بها مكافأة فرفضاً ذلك. فأمر أن يصهر
الذهب وتموه به القبة والأبواب وقد يرى الآن كتابة كوفية جميلة حول قبة
الصخرة من عهد عبد الملك تدل على تاريخ البناء ولكن المأمون لما أمر بترميم
المسجد تقرب إليه عماله المتزلفون فاستبدلوا اسم الخليفة الأموي باسمه وغفلوا
عن تغيير السنة التي حدثت فيها العمارة. أما الحرم الحالي فليس جميع بنائه
أموياً وإنما طراً عليه تغيرات كثيرة بسبب الزلازل والإنقلابات السياسية وكر
القرون فالذين رمموا الحرم وأضافوا إليه زيادات كثيرون منهم العباسيون ففي
سنة ١٤٦هـ وسنة ٧٥٥م في خلافة أبي جعفر المنصور حدث زلزال شديد
فتصدع جانباً المسجد الأقصى الشرقي والغربي فأمر بضرب ما كان على
أبوابه من الذهب والفضة نقوداً لينفقونها على ترميمه، وفي عهد المهدي أصابه
زلزال آخر فأمر بإعادة بنائه وغير شكله فقلل طوله وزاد في عرضه ولما زار
المأمون سورية وفلسطين أمر بترميم بعض بنايات الصخرة وسنة ٣٠١هـ أمرت

أم المقتدر العباسي بصنع أبواب قبة الصخرة من خشب التنوب "كالصنوبر" (يكثّر في جزيرة جاوا) وسنة ٤٠٧ هـ و سنة ١٠٣٤ في خلافة الحاكم بأمر الله سقطت قبة الصخرة الكبيرة وقسم كبير من سور الحرم فرممت في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي وكذلك عمر فيها صلاح الدين والمماليك والسلطان محمد بن قلاوون وملوك آل عثمان سليمان وعبد العزيز وعبد الحميد .. إلخ. وقد طرأ عليها وهن سنة ١٩٢٢ م وسنة ١٣٤٠ هـ واستدعي لإصلاحها المهندس التركي كمال بك وقد قدر ما يلزمها من النفقة بمبلغ باهظ جداً .

(٣٩) وقائع الدولة الأموية

أجمع المسلمون على بيعه الوليد بن عبد الملك وتخلف الفقيه سعيد بن المسيب وحاول حاكم المدينة أكراهه فلم يفلح. ولما حج الخليفة أخرجوا كل من في المسجد ولم يتجرأ أحد من الحرس أن يتعرض إليه فقبل له لو قمت قال لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي كنت أقوم فيه. فقبل لو سلمت على أمير المؤمنين قال لا والله لا أقوم إليه. قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالخليفة في ناحية المسجد لئلا يراه فالتفت الوليد فرآه فقال من ذلك الشيخ أهو سعيد؟ قال عمر نعم واعتذر عنه بعجزه وضعف بصره فدار الخليفة في المسجد حتى أتاه فقال كيف أنت أيها الشيخ؟ فما تحرك بل قال بل قال بخير. فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ فانصرف وهو يقول هذا بقية الناس. وفي خلافته هرب يزيد بن المهلب من الحجاج وقدم فلسطين فنزل على وهيب بن

عبد الرحمن الأزدي فأخذه إلى سليمان بن عبد الملك في الرملة وتشفع فيه ونجاه وبعد وفاة الوليد أتت البيعة لأخيه سليمان وهو في مدينة الرملة فبايعه الناس وهو على سطوح الصخرة وهم أن يحول عاصمته على من دمشق إلى الرملة أو القدس ثم عدل ولما إستخلف عمر بن عبد العزيز أبطل سب علي على المنابر وأمر كل العمال أن يضعوا مكانه ﴿أَن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾^(١) فقال كثير:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف برياً ولم تتبع مقالة مجرم

وأمر بإنشاء الخانات في البلدان القاصية لإعالة مارة المسلمين والتعهد بدوابهم فيطعمون ويقرون يوماً وليلة ومن كانت به علة يبقى إلى أن يشفى. ولما بويع الوليد الثاني كان مقيماً في البرية فافتتح أعماله بنفي سليمان بن هشام إلى عمان انتقاماً منه بما فعله معه أبوه. وتبذل كثيراً ففسدت أحكامه وعكف على الشراب وجاهر به وانغمس في الطرب والموسيقى وإقتناء الكلاب المطوقة بقلائد الذهب. وانتهك حرمة القرآن فأكبر ذلك العرب والمتدينون ونفر بنو أمية منه وتناحى أمراء قبائل فلسطين وأقروا على خلعه ومبايعة سواه فراودوا يزيد بن الوليد الأول فأجاب طلبهم وظل متكتماً إلى أن انتشر الوباء في الشام فخرج العباس بن الوليد إلى القسطل وأخوه يزيد إلى بادية الأردن وأخذ يدعو إلى نفسه ويبايع الناس سرّاً فعلم أخوه العباس وقال:

(١) سورة النحل الآية ٩٠.

أنني أعيدكم بالله من فتن مثل الجبال تسامي ثم تندفع
أن البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وإرتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم أن الذئاب إذا ما الحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم فثم لا حسرة تغني ولا جزع

وتهدد أخاه وأنذره بالسجن أو يرسله إلى الخليفة إن لم يقلع عن عمله.
فلم يعقه هذا التهديد وسار إلى دمشق الشام خلصة واحتلها وبايعه جميع أهلها
وضبط الأموال والخزائن وتوافد عليه أعوانه فقدم أهالي جرش من فلسطين
وغيرهم وكان الوليد على ماء الأغدف في ضياعه نافرأ من الوباء فغضب وسير
جنداً إلى دمشق فانضموا إلى يزيد ثم سار بنفسه فالتقى العسكران وأسفرت
المعركة عن قتل الوليد فحنق أهل حمص وخالفوا يزيد وبعد معركة خذلوا فيها
بايعوا له. وقد وثب أهالي فلسطين بتحريض سعيد وضيعان ولدي روح بن
زباع على عاملهم سعيد بن عبد الملك فأخرجوه وولوا أمرهم يزيد بن
سليمان بن عبد الملك الذي كان سجيناً بعمان فدعاهم إلى قتال يزيد فأجابوه
لأن أهالي فلسطين كانوا موالين لأبيه. ولما بلغ أهل الأردن ما فعل أهل فلسطين
ولوا عليهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا معهم على قتال الخليفة يزيد الثالث
فعرف بهم الخليفة وسير اليهم سليمان ابن هشام فاطمع سعيد وضيعان بني
روح وبذل إليهما المال ومناهما بالولاية فرحلا بأهل فلسطين وبقي أهل
الأردن فنهب سليمان قراهم فغضب أهل طبرية ونهبوا دواب وسلاح يزيد بن
سليمان ومحمد بن عبد الملك ولحقوا بمنازلهم وبلدانهم فسار سليمان ونزل في

قرية السمراء "قرب طبرية" فأتاه أهل الأردن وبايعوا ليزيد بن الوليد ثم ذهب إلى طبرية فصلى بها الجمعة وبايع من بها وتوجه إلى الرملة فأخذ البيعة على من بها واستعمل ضبعان بن روح على فلسطين وإبراهيم بن الوليد على الأردن. ولكن هذا الانقلاب لم يقد الأهلالي شيئاً بل أطمع في الدولة الطامعين فأنكر مروان بن محمد عمل الخليفة وفضعه. ولما مات يزيد قام بالأمر بعده أخوه إبراهيم فزحف مروان إلى الشام وفتحها وبويع له ولكن المملكة كانت فوضى فخرج ثابت بن نعيم بأهل فلسطين وأتي طبرية فحصر عاملها الوليد بن معاوية بن مروان وقاتله أهلها أياماً فهزموه واستباحوا عسكره فارتد مخذولاً فتبعه القائد أبو الورد وهزمه ثانية فتفرق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان واستعمل الخليفة على فلسطين الدماص بن عبد العزيز الكناني فظفر بثابت وبعثه إلى مروان فأمر به وبأولاده الثلاثة فقطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا. فامتعض أهل حمص وخلع سليمان بن هشام مروان وبعد معركة انخزل جيشه وهزم وظلت البلاد في قلاقل إلى أن أعلنت الدعوة العباسية واصطدم الجيشان العباسي والأموي في وقعة الزاب "قرب الرقة" العظيمة التي هدم بها ملك وقام ملك فجالد بنو أمية حتى خروا صرعى وكان أحد شبانهم يتمثل :

أذل الحياة وكرهه الممات	وكلاً أراه طعاماً وبيلاً
فأن لم يكن غير أحدهما	فسير إلى الموت سيراً جهيلاً

وفر مروان بن محمد إلى فلسطين فنزل نهر أبي فطرس "العوجاء" فوجد

الحكم بن ضبعان الجذامي قد تغلب عليها. فاستجار بعبد الله بن يزيد بن روح الجذامي فأجاروه ولكن عبد الله بن علي كان يقفو أثره ففتح دمشق وجاء إلى فلسطين فنزل على الأذن ثم بيسان ومرج الروم. فلقية أهل الأردن وقد سؤدوا فأتى نهر أبي فطرس وأقام في فلسطين وأرسل بعوثاً إلى مصر خلف مروان بقيادة صالح بن علي فحاربوه وقتلوه في قرية أبو صير أما عبد الله بن علي فإنه تتبع أولاد الخلفاء ووجهاء بنى أمية فقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك وأسر من وجدهم وبطش فيهم فقتل ٨٣ رجلاً على نهر العوجاء فخاف أعوان بنى أمية فبيّض حبيب المريّ أحد قواد مروان وفرسانه وخلع بيعة بنى العباس ووافقه أهل حوران والبلقاء والقيسية وبعد قتال أخذ الأمان لنفسه ولقومه ثم انتقض أهل حمص وبعد محاربة أخفقوا فيها دخلوا في الطاعة وبيّض أهل دمشق فعاد إليهم فثابوا إلى رشدتهم بلا قتال وبيّض أهل الجزيرة وقادهم إسحق بن مسلم العقيلي وهو يقول في عنقي بيعة لا أدعها حتى أعلم أن صاحبها مات فلما تيقن أن مروان قتل طلب الصلح والأمان. فانتقال الحكم من دولة إلى دولة أو نزعه من يد إلى يد ليس بالأمر السهل بل يعقبه انقلابات وثورات عقلية واجتماعية كبيرة وخطيرة.

لم ينفع تعصب مروان إلى النزارية فأنهم خذلوه لما غلب على ملكه فوثب أهل قنسرين بساقته وخانه الحارث بن عبد الرحمن الحرشي فنى دمشق ووثب به هاشم بن عمر العنسي والمذححيون في شرقي الأردن وعندما مر بفلسطين وثب عليه الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع واستقبل جميع القوم والحكومة الجديدة بكل ترحاب.

(٤٠) محدثات بنى أمية وميزاتهم

كانت دولة بنى أمية عربية لتعصب للعرب وتحتقر سواهم فرغب ملوكها فى الحضارة ولم يجمدوا ونسوا البداوة وسارعوا إلى اقتباس ما حسن عندهم وتكيفوا بحسب الأحوال فأحدثوا ولاية عهد الخليفة وهو حي وقسموا إدارة البلاد إلى أمصار وكل مصر إلى أقسام. فالشام حاضرة وأمصارها فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين.

ومن آثارهم المجيدة فى فلسطين قبة الصخرة وأطلال سرايا سليمان بن عبد الملك فى الرملة مكان دار الحكومة اليوم وأشياء زهيدة أعرضنا عنها لقللة أهميتها. لم تعمر الدولة الأموية طويلاً وعجل على سقوطها أسباب هامة منها:

(١) تعدد ولاية العهد فى آن واحد فكانوا يتنافسون فى الخلافة فنبت الشقاق بينهم ويطمع كل واحد فى الوصول إليها ومن نالها سعى بخلع أخيه أو ابن عمه ليحرمه منها ويورثها بنيه فيمتنع الثاني ويقضي امتناعه إلى العدااء والتنازع فتشعب الآراء وتفسد البلاد.

(٢) العصية الجاهلية فقد نبضت فى وقعة مرج راهط وانشطر العرب إلى قيس ويمن وتأجج نارها فى خراسان فكان كلما تعين وال من حزب يقضي على الحزب الآخر.

(٣) ميل بعض الخلفاء ورغبتهم فى طمس آثار السلف كما فعل سليمان بن عبد الملك بقواد أخيه الوليد حتى خثرت النفوس الطامحة وفترت الهمم النازعة وضعفت آمال الأمراء بخلفائهم ولم يخلصوا لهم فثارت البغضاء

ونما الكره فى صدور الأمة فانتكشت الوحدة وانقسمت المملكة إلى
حزبين سياسيين لاهمّ لأحدهما إلا القضاء على الآخر وتغاضوا عن
الدعوة العباسية التى كانت تنتشر بنشاط وسرعة.

(٤) احتقارهم الأعاجم والخط من قدرهم مما جعلهم يحقدون على هذه الدولة
لما لحقهم من الذل والصغار فكانوا يلتفون حول كل ثائر ليضعفوها
ويهدموها ويبنوا غيرها عله يكون لهم فيها حظ وافر.

(٥) تولية الخلافة لغلمان ليسوا أكفاء فى العقل والتدبير وسياسة الدول.

(٦) انتشار "البروباغندا" بأن أهل البيت هم أهل الملك وبنو أمية مغتصبوه.

(٧) انفصال أجزاء المملكة عن بعضها البعض فوسائط النقل قليلة والمخابرة
بعيدة والتجنيد بسيط وأطراف المملكة ممتدة فإذا حدث فتق فى الهند
كان لا يصل خبره إلى الام إلا بعد شهور فلو جهزوا إليها حملة لما وصلته
إلا بعد سنة فصعب عليهم ضبط الثغور لعدم ارتباط العاصمة بها. أما
القبائل التى سكنت فلسطين والأردن فكثير منها دذام التى نبغ منهم
موسى بن نصير فاتح الأندلس وروح بن زباع وبقاياهم بنى صخر
والعطاونة فى الكرك، ولخم ومنهم بنى عقبة فى التياها والمسعودي،
وتنوخ ومنهم عرب السردية والفحيلي فى تل كلخ، وغسان وبهراء وبلي
ومنهم البلاونة فى بنى صعب والسبع وغور ييسان وكلب ومنهم
الشرارات. وقضاة ومنهم العزازمة. بكر، السكاسك، قيس، الأزد،
تغلب، طي.

(٤١) بعض أبطال الدول الأموية

١ - معاوية بن أبي سفيان

هو رأس الدولة الأموية وباني أركانها. كانت تلوح عليه مخايل الشجاعة من صغره فمر به رجال فقال أحدهم "سيسود هذا الغلام قومه" فقالت أمه هند "ثكلته أمه ان لم يسد غير قومه". اختاره النبي ﷺ لكتابة وحيه وعينه أبو بكر قائداً في فتح سورية وأمره عمر ففتح قيسارية وعسقلان ويافا واسترجع أكثر البلاد الساحلية بعد أن كر عليها الروم ثانية في أواخر خلافة عمر، وظل يترقى إلى أن استوثقت له أحكام سورية وفلسطين ثم بويع بالخلافة فصانع رؤساء العرب وداراهم وترضاهم ونظم البريد وقسم الطرق إلى منازل وجهازها بالرجال والدواب لاستلام مايردهم وايصاله إلى من بعدهم ولقد أحدث السياسة والتساهل في الأحكام الشرعية فاتخذ الحرس وأنشأ أبهة الملك وعمل ديوان الخاتم "تغليف الرسائل" وأنشأ أسطولاً بحرياً مؤلفاً من ١٧٠٠ قطعة ورتب له أميراً وجعل يغزو الروم براً وبحراً وحصر القسطنطينية وكاد يفتحها لولا النار الأغريقية ورأى تطلع الناس إلى الخلافة وخاف حدوث الفتنة فبايع لأبنيه يزيد وأحدث ولاية العهد وتبعه من بعده وكان يقول لو كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعت إذا شدوها أرختها وان أرخوها شددتها . وكان عمر بن الخطاب يقول تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية ومن قوله "أنى لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من عفوي وجهل أكبر من حلمي وعورة لا أواريتها بستري وأساءة أكثر من أحساني" وقال أحب

الناس إلى أشدهم لي تحبباً إلى الناس.

وقد كتب إلى علي بعد وقعة صفين "أما بعد فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنّها بعضنا على بعض وأنا وإن كنا غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا مانرد به ماضى ونصلح به مابقى وقد كنت سألتك على أن لا تلزمني لك طاعة وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس فأنت لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ولا تخاف من القتل إلا ما أخاف وقد والله رقت الأجناد وذهبت الرجال ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز ويسترق به حرّ والسلام".

٢ - الحجاج بن يوسف "كليب"

هو من قبيلة ثقيف كان معلم مكتب الطائف ثم التحق بروح بن زباع الجذامي وزير عبد الملك إلى أن فسد جند الخليفة فأصبحوا لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله فأشار عليه روح بتولية الحجاج أمر العسكر فقلده إياه فألزم الجيش الطاعة وجبرهم على محافظة النظام فتأخر يوماً أعوان روح بن زباع فجاءهم وهم على الطعام فوقف عليهم وقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين فقالوا له انزل يا ابن اللخناء فكل معنا فقال لهم هيهات ذهب ذلك. ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر وأحرق فساطيطهم ففزع روح إلى عبد الملك وشكاه فقال له عليّ به فلما دخل قال له "ما حملك على ما فعلت" فأجابه أنا ما فعلت بل أنت فعلت إنما يدي يدك وسوطي سوطك وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض القسقاط فسطاطين

وعوض الغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدمني له فأعجب به وتقدّم في منزلته
وكان ذلك أول ما عرف من كفايته.

حارب ابن الزبير وآلى أن لا يسلح السلاح ولا يُطلق النساء ولا
يتطيب حتى يظفر به وحصره ورمى الكعبة بالمنجنيق فأرعدت السماء فأعظم
ذلك أهل الشام فأخذ الحجارة ووضعها بيده في المنجنيق ورمى بها وقال "يا
أهل الشام لا تنكروا هذا فاني ابن تهامة وهذه صواعقها وهذا الفتح قد حضر"
لما عين عاملاً على تبالة في اليمن ذهب وسأل عنها ف قيل له أنها خلف هذه
التلة فرجع قائلاً لا بارك الله في مدينة تسترها ذروة.

ولما شخ أهل العراق وخشّنوا عين إليهم فذهب باثنى عشر راكباً ودخل
الكوفة وبدأ بالمسجد فصعد المنبر وأعلن الحكم العرفي بخطبته المشهورة التي
منها:

يا أهل الكوفة إنى لأرى رؤساً قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها
وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ... إلخ وانساق له العراق وبنى
مدينة واسط التي دفن بها وهو من الذين وطدوا الملك لبني مروان وأخباره.
طويلة يرجع إليها في المطولات. فهو بالاجمال من أعظم قواد الفتوح وولاية
البلاد والجيوش.

٣- موسى بن نصير اللخمي

كان شجاعاً تقياً لم تهزم له راية وليّ إفريقية فصرف همته في تعريب
البربر وإدخالهم في الدين الإسلامي فغزاهم وقهرهم وأتم بلادهم فتحاً ثم

أرسل مولاه طارقاً إلى الأندلس فاجتاز البحر ثم حرق السفن وخطب قائلاً "أين المفر !! البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر وأعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ولا أقوات لكم غير ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم" ثم لحق به فأكمل البلاد وتم له النصر ونقل الدين الإسلامي إلى قارة أوروبا ولكن سليمان بن عبد الملك قابل أعماله الجليلة بالاساءة والكفران فعزله عن جميع أعماله وحبسه وأغرمة مالا كثيراً. ومن قواد الأندلس عبد الرحمن الغافقي الذي اخترق جبال البيرينية وأوقع بالأفرنسيين في سهول بواتيه وكانت هذه المعركة الفاصلة لتقهقر العرب من الأندلس بعد حين .

(٤٢) الدعوة العباسية

لم يقم من بنى العباس من يطالب بالخلافة ولم تطمح أنظارهم إليها . فنسيتهم الأمة ولم يتبع لهم أحد فقصوا أوقاتهم بمعزل عن الحركات السياسية حتى سنة ١٠١ هـ إذ وفد عبد الله بن محمد بن الحنفية على الخليفة سليمان ابن عبد الملك فخافه وأرسل إليه من سمه في الطريق فلما قصد الحميمة^(١) قرية محمد بن علي العباسي عاذ به العلوي وبايعه وعهد إليه بالخلافة ومن هنا ابتدأت الدعوة العباسية . وقد تطورت في دورين، الأول دور الدعوة وهو من

(١) هي الحمة عند طبرية على الطريق الحجازي والعراقي . كانت قرية حقيرة أقطعها الوليد بن عبد الملك إلى محمد بن علي بن عبد الله عباس وأسكنه أياها .

سنة ١٠١ هـ - سنة ١٢٩ هـ. نشرت فيه محبة آل البيت ومساوي بني أمية بتأن وتريث والثاني دور العمل وفيه أعلنت الدعوة وجُهر بها.

عرف العباسي أن كل محاولة فجائية يعقبها الخسران وأن هدم الدول وتأسيسها ليس بالعمل السهل وخشي أن هو أعلن اسمه أن ينفض من حوله دعاة العلويين فكتمه وأمرهم أن يدعوا إلى الرضى من آل محمد فقط ووجههم إلى خرسان فأسسوا جمعية سرية ذات فرعين الفرع الأول النقباء وهم اثنا عشر والفرع الثاني المبشرون وهم سبعون رجلاً يطوفون البلاد ويثيرون الناس ضد بني أمية واتخذوا موسم الحج مؤتمراً عاماً يتداولون فيه الآراء وكانوا كلما اعترضتهم عقبات ذللوها حتى سنة ١٢٠ هـ فعظم الخلاف بين المضربة والنزارية فتنفست الشيعة وجدّت في أمرها، وفي سنة ١٢٩ هـ أعلن أبو مسلم الدعوة ولبس هو ومن معه السواد شعار العباسيين ونشروا الرايات السود "الظل والسحاب" فعرف بهم نصر بن سيار فكتب إلى مروان بن محمد يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكو	وان الحرب مبدؤها كلام
فان لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري	أيقاظ أمية أم نيام

فأجابه اقطع هذا الثألول ولم يعبأ به. أما أبو مسلم فأخذ يتقدم ويفتح البلدان ويرسل قواده فيستولون بسرعة على إقليم بعد إقليم حتى استوثقت له خراسان ولا أحد يعلم لمن هي الدعوة إلا المبشرون بها إلى أن وقع كتاب

إبراهيم الإمام فى يد الخليفة مروان فأرسل إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامل دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل اللقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكداد والحمة من يأخذ إبراهيم بن محمد ويرسله إليه ففعل وأخذه من مسجد القرية وهو ملفف وحمل إلى الوليد فبعث به إلى موان فحبسه فى حرّان فأثبت وصيته إلى أخيه أبى العباس السفاح ودفعها إلى مولاه سابق الخوارزمي وأوصاه أن يقوم بالدولة وأن لا يلبث بالحمة بل يتوجه إلى الكوفة فأخذ أبو العباس أهل بيته وسار إلى الكوفة سنة ١٣٢هـ ظهر أبو العباس ولقب بالسفاح وأخذت له البيعة علناً فى المسجد من الصباح حتى جنهم الليل وظل نجمهم يشرق ونجم بنى أمية يغور حتى قتل مروان وملكوا جميع الأقطار.

ومن تأمل فى فوز العباسيين وهم جمعية بسيطة على بنى أمية وهم أصحاب الحكومة والدولة والجند والخراج يأخذه العجب ويستغرب كيف تم لهم ذلك ولكن لو عرف أن هذه الجمعية كانت منظمة ورجالها مخلصون وأن كل جديد مقبول وكل قديم منفور لزال عجبه واستغرابه.

الفصل السابع

(٤٣) فلسطين عباسية

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وهم الذين نهضوا على بنى أمية فاستأصلوا دولتهم من الرق وبنوا دولتهم على أنقاضها فأخضعوا العصبية العربية وأذلوا مضر وعززوا نفوذ الأعاجم الذين استبدوا بالأحكام فأصبحوا هم الملوك والعرب أسراهم.

تشكلت الدولة العباسية وبعثت ولايتها إلى الأمصار فكان والي سورية وفلسطين عبد الله بن علي ثم ضمت الأردن إلى دمشق وتعين صالح بن علي حاكماً على فلسطين والبلقاء تحت إمرة عبد الله بن علي وكلاهما عباسي فظل تابعا له حتى خرج عبد الله على المنصور وغلب فتعين صالح إلى مصر.

وقد امتازت الدولة العباسية عن سواها بأقبالها على العلم وترجمتها الكتب العلمية والفلسفية ونشرها في الأقاليم وتحسين المعارف ومساعدة المؤلفين وإدارا النفقات عليهم وتشويق الأدباء وتشجيعهم الناس للاقبال على حرفة الأدب ... إلخ.

وقد عامل هارون الرشيد نصارى فلسطين معاملة حسنة فسمح للامبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء حيث يقوم على آثارها كنيسة الدباغة وبجانبها دير يأوي إليه زوار اللاتين. وفي سنة ٧٩٦م اهدى إلى شارلمان ساعة وفيلاً وأقمشة نفيسة وأرسل إليه مفاتيح كنيسة القيامة

وتعهد إليه بحماية حجاج المسيحيين الذين يأتون لزيارة القدس.

وفى زمن خلافتي المأمون والرشيد زهت الدولة العباسية وأضاء عصرها الذهبي سياسة وآداباً وعلماً لأن مملكتيهما امتدت من الأندلس وشمال إفريقية إلى شمال البحر الأسود والصين ونصف الهند ومن جزيرة العرب إلى حدود أنقره فكثر العلماء والأدباء فى أيامها وترجمت كتب الطب والفلسفة والهندسة والجغرافيا الخ. فكانت بغداد مهد الأدباء والعلماء وعش الجامعات ومعارض الكتب والمكاتب.

وفى سنة ١٨٦هـ هاجت فتنة بدمشق بين المضرية واليمانية وسببها أن رجلاً من بنى القين خرج بطعام له يطحنه فى الرحى بالبقاء فمر بمقشأة لرجل خمي فتناول منها بطيخه فشتمه صاحبها فتضاربا وانحاز لكل منهما قومه فكبر الخطب وقتل رجل يمى وتداولوا الصلح بينهم فأبى اليمانية وجمعوا أمرهم وغزوا بنى القين فقتلوا منهم ٣٠٠ شخص فثاروا واستنجدوا قيساً فأجابوهم وساروا معهم إلى الصواليك من أرض البلقاء فقتلوا ناليمانية ٨٠٠ شخص فتخربت الحكومة إلى اليمانية وساعدتهم فانتصر عليهم أبو الهيثام زعيم المضربة وفرق جموعهم. وفى سنة ١٧٧هـ استعلت عليه الحكومة وبددت جمعه فنامت الفتنة ثم هاجت ثانية فتلافاها الرشيد وأصلح بينهم.

وقد أقطع المأمون أخاه المعتصم "أبا إسحاق" الشام ومصر وفرض على دمشق وحمص والأردن وفلسطين ٤٠٠٠ جندى يقدمونها لغزو الصائفة وقطع للفارس ١٠٠ درهم راتباً شهرياً وللراجل ٤٠ درهماً. وفى سنة ٢٢٧هـ سنة

٨٤٢م خرج أبو حرب المبرقع على المعتصم واعتصم بجمال الأردن. وسبب مخالفته أن بعض الجند أراد النزول في بيته وهو غائب فمنعته امرأته فضربها الجندي بسوط فأصاب ذراعها، فلما رجع إلى منزله شكت إليه ما فعل بها الجندي فخرط سيفه وقتله ثم دعا رؤساء قومه فاستجابوا له والتفوا حوله ومنهم ابن بيهس المطاع في قومه فأرسل إليه المعتصم رجاء بن أيوب الحضاري بجيش زهاء ألف رجل. فلما رآه في عالم كثير كره واقعته وتربص حتى جاء موسم الزراعة فانصرف من معه من الزراع إلى أشغالهم وبقي في نفر قليل فناجزه رجاء ثم أخذه وابن بيهس أسيرين.

ومن أمعن النظر في هذه الثورة وجد أن سببها الظاهري غير كاف لإعلانها لأنه ليس من السهل أن يدعو الناس رجل بسيط فيليبه جمع غفير ويحارب لأجله الحكومة ذات الحول والطول ولكن الحقيقة هي أن الخليفة المعتصم استكثر من الجنود الأتراك فعبثوا بعادات البلاد وطبائع أهلها فسخط العرب على الخليفة وحكومته تعصباً وغيرة إلى أن نهض أبو حرب فشجعوه ونصروه فلو لم تكن الغاية واحدة والكره مستحكماً في نفوس الجميع لما اتفقوا على خلع طاعة المعتصم الجاني على العرب والحكومة العباسية باستكثاره من أخواله الأتراك في بلاطه ومنحهم السلطة الواسعة حتى تحكموا في الدولة واستبدوا بالملك واستأثروا بالأموال فكان منهم الجند والقواد والولاة وأصبح العرب وهم أصحاب البلاد غرباء والأتراك وهم الدخلاء حكام البلاد.

خليفة فى قفص بين وصيف وبغـا
يقول ما قالـا لـه كما تقول البغـا

وقد شددوا فى الحجر على الخليفة المعتمد فكان يطلب الدرهم فى
خزائنه فلم يجده فقال:

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتعاً عليـه
وتجبى باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شئ فى يديـه

ومن تبصر قليلاً ورأى كيف أن الدخيل ينزل البلاد معدماً لا يملك شيئاً
فيمتص الدماء ويختلس الأموال ثم يحكم الرقاب عرف أن كل أمة لاتسهر
على مستقبلها ولا تحافظ على كيائها فمصيرها إلى الدمار.

الفصل الثامن

(٤٤) الدولة الطولونية من سنة ٢٥٤هـ - سنة ٢٧٠هـ أو سنة ٨٦٨ م

- ٨٨٣ م.

تنتسب هذه الدولة إلى طولون الغلام التركي الذى أهده نوح بن أسد الساماني عامل بخارى إلى المأمون فلم ينل ملكاً ولكن ولد له غلام فسماه أحمد وقيل أنه تبناه ورباه تربية عربية.

وقد نشأ عظيمًا يتقن اللغة العربية كأبنائها وساعده استعداده الفطري وسما به جده فقدم مصر نائباً عن الأمير باكبك ودفعته مقدرته السياسية إلى أن صار والياً لمصر فسعى إلى الاستقلال الداخلي وأكثر من الجند والحشم وقرب العلماء والقراء وبنى جامع ابن طولون فى مصر، ورتب الصدقات والمبرات فاستمال الناس واجتذب قلوبهم ولما علم وتيقن أن الدولة العباسية ضعيفة وقد انهكتها غارات الثوار الداخلية وفتنة الزنوج العظمى طمع فيها وقطع ارسال الخراج إلى الخليفة المعتمد غير وجل واعتز بنفسه فأغار على فلسطين سنة ٨٧٨م وضمها إلى دولته وعين والياً للرملة. فاتسع ملكه حتى جاوز نهر الفرات وبنى قلعة يافا القديمة وحاول الاستيلاء على مكة فلم يفلح ثم قطع خطبة ولي العهد الموفق لمنافسة كانت بينهما فأمر الموفق أن يلعن على المنابر وحذف اسمه من الخطبة واعتبره خارجياً. وفى عهد إمارته سككت البلاد من القلائل إلى أن توفى سنة ٨٨٤م وسنة ٢٧٠هـ وولى الأمر بعده ابنه حمارويه

وفى سنة ٢٧١هـ كانت موقعة الطواحين على نهر روبين^(*) فانتصر المعتضد أولاً وهرب خمارويه وبينما كان جنده منهمكاً بنهب السواد خرج عليهم الكمين ووضع فيهم السيف ففر المعتضد وظل الجيشان يضطربان وليس لواحد منهما أمير فانجلت المعركة عن خذلان العراقيين واستظهار المصريين.

فذهب البشارة إلى خمارويه وهو فى مصر فسرَّ كثيراً وبعد ذلك صالح الخليفة وتوثقت العلاقات بينهما فقلده أحكام مصر والشام وحدود الروم بشرط أن يدفع ٥٠ ألف دينار سنوياً ويترك العواصم وقسرين. وقد تقرب للمعتضد فقدم اليه هدايا ثمينة وعرض عليه أن يزوج ابنته "قطر الندى" بابنه فقبلها الخليفة لنفسه وجهازها أبوها بجهاز عظيم أسرف فيه وانفق من الأموال ما أضعف ماله فأساء إلى الأهالي ونفروهم فقتل فى الشام ذبحاً ودفن فى مصر سنة ٨٩٦م وسنة ٢٨٢هـ وتعاقب على البلاد أبناء بنى طولون فلم يرو لهم عمل مبرور أو شر مذكور وسنة ٩٠٥م وسنة ٢٩٢هـ انقضت مملكتهم وأخرجهم محمد بن سليمان من مصر والشام وفى سنة ٢٩٣هـ كان عامل دمشق والأردن وفلسطين أحمد بن كيغلق فذهب إلى مصر خاربة إبراهيم الخليجي وأتاب عنه فى الأردن يوسف بن إبراهيم بن بغا فاغتم القرامطة هذه الفرصة وساروا إلى بصرى وأذرعات [أذرع]^(**) فافحشوا فى النهب وأثخنوا فقتلوا نائب البلاد يوسف ونهبوا طبريا وعاثوا فى الأرض فساداً فأنفذ الخليفة

(*) لم تزل آثار الطواحين هناك وقد وهم من ظنه نهر العوجاء.

(**) يوجد ثلاث بلاد متشابهة الأسماء وهى: أذرع جنوب الكرك، أذرع ذراعاه، أذرعات أزراع.

حسين بن حمدان إلى مقاتلتهم فانسحبوا إلى البادية وكانوا يغورون الماء خلفهم حتى لا يستطيع الجيش أن يتعقبهم لقلة المياه.

(٤٥) الدولة الأخشيديّة سنة ٣٢٣هـ - سنة ٣٣٤هـ (٩٣٤م)

أخشيدي لقب ملوك فرغانة في تركستان ومعناها ملك الملوك. مثل تبع اليمن وإمبراطور وملكشاه وقيصر وكسرى ...

أما مؤسس الدولة الأخشيديّة فهو طغج بن جف من سلالة ملوك فرغانة القدماء كان من مماليك المعتصم فاقطعته محلاً في (سرّ من رأى)^(١) وبعد وفاته اتصل ابنه طغج بلؤلؤ غلام ابن طولون. ثم عرفه أبو الجيش خمارويه فأعجب به وقلده دمشق وطبرية. فلما قتل أبو الجيش عاد طغج إلى المكتفى فوشى به وزير الخليفة العباس بن الحسن لأنه أبى أن يتزلف إليه فأمر الخليفة بسجنه إلى أن قضى نجه ثم هرب ابنه محمد إلى الشام واتصل بأبي منصور تكين الخادم. فأظهر مقدرة وهمة ودهاء فلقدّمه عمان وجبل الشراة وتدرج في الرئاسة فعين حاكماً للرملة سنة ٣١٨هـ وسنة ٩٢٧م. ثم نقل إلى دمشق فسر به الخليفة القاهر وولاه مصر سنة ٣٢١هـ فمكث بها برهة قصيرة وصرف عنها ثم أعيد إليها في خلافة الراضي وعهدت إليه أعمال مصر جميعها فعزل عنها أحمد بن كيغلق ومنحه الخليفة صلاحية واسعة فصار أشبه بملك مستقل وسنة ٣٢٨هـ استولى ابن رائق^(٢) على دمشق وتوجه إلى الرملة فملكها وسار إلى عريش مصر

(١) مدينة في العراق تدعى سامراً. (٢) حاكم حران وفسرين والعواصم.

فصادمه الأخشيد وهزمه فارتد إلى دمشق بأقبح صورة فتعقبه أخو الأخشيد أبو نصر بن طغج بجيش كثيف فاعترضه ابن رائق واقتلوا على عين اللجون^(١) فقتل أبو نصر وانهزم عسكره فأخذ ابن رائق وكفنه وحمله إلى أخيه الأخشيد بمصر وأنفذ معه ابنه مزاحم وأصحابه بكتاب يعزيه بأخيه ويعتذر عما جرى ويأسف على ما حدث ويحلف أنه ما أراد قتله وقد قدم ابنه ليقص منه فتلقى الأخشيد مزاحماً بالجميل وخلع عليه وردّه إلى أبيه واصطالحا على أن تكون الرملة وما وراءها للأخشيد وباقي فلسطين والشام لابن رائق بشرط أن يحمل إليه الأخشيد عن الرملة ١٤٠ ألف دينار سنوياً.

وفى سنة ٣٣٠هـ هب الأخشيد من مصر لفتح دمشق فاستأمن إليه عاملها محمد بن يزداد فنقله إلى شرطة مصر وأتاب بها بدر الخرشني. وفى سنة ٩٤٣م سنة ٣٣٢هـ قلد الخليفة الأخشيد إمارة الحجاز وسنة ٣٣٤هـ ٩٤٦م توفى بدمشق ودفن بالقدس وولى الأمر بعده ابنه أبو القاسم أنوجور "محمود" فاستضعفه سيف الدولة وقصد دمشق فملكها وأساء إلى أهلها فخابروا كافوراً وصى الأمير فجهز جيشاً عرمرماً وسار لمحاربة سيف الدولة فتصافا قرب الرملة وبعد جهد انهزم سيف الدولة واسترجع كافور دمشق وفلسطين.

كان أبو القاسم صغيراً وخادمه كافور وصيه فغلب عليه وتفرّد بالولاية ورشح نفسه للملك فقصده الشعراء ومدحه المتنبي بقصائد فائقة منها:

(١) ماء يبعد عن جنين ساعتين ونصف.

ومن مثل كافور إذا الخيل أحجمت وكان قليلاً من يقول لها اقدمي
أبا المسك أرجو منك نصراً على العدى وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتسيم

وكافوريات المتنبي من خيرة عره فقد أجاد فيها آملاً أن يوليه اقليماً فلم
يظفر به وقد أشار بعضهم على كافور ليمنحه اقطاعاً فقال حسبكم أن من
يدعي النبوة مع محمد إلا يدعي الملك ع كافور.

أن من يطلع على تاريخ حياة كافور ويعرف كيف استوى على عرض
مصر وسورية تحدته نفسه بكل عزيمة. كان كافور عبداً زنجياً خصياً فأشتراه
الأخشيد بثمانية عشر ديناراً وقدمته نفسه الكبيرة وشخصيته البارزة إلى أن
أصبح قائداً مشهوراً ثم عين وزيراً لأنوجور ومدبراً لمملكته فساس الحكومة
بإدارة قويمة ورأي سديد.

فلما توفي أنوجور تولى الملك بعده أبو الحسن ولم يك له من الأمر إلا
اسمه وبعد أن مات استقل كافور بمصر وتلقب بالأخشيدي فقلد ولاية مصر
وسورية والحجاز وتوفي سنة ٣٥٦هـ وسنة ٩٥٦م ودفن في القدس فضعفت
الدولة الأخشيديّة بعده واستولى جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمي على مصر
وانتزعها من يد أبي الفوارس الأخشيدي وأنهى الدولة الأخشيديّة بعد أن
عاشت ٣٤ سنة.

وقد امتدح المتنبي ولي عهد أبي الفوارس بقصيدة عصماء منها:

فمالي والدنيا طلابي نجومها
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه
ومن عرف الأيام معرفتي بها
فليس بمرحوم إذا ظفروا به

ومسعى منها فى شذوق الأرقام
إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
وبالناس روى رحمه غير راحم
ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

إذا صلت لم أترك مقالاً لفاتك
والا فخانتني القوافي وعاقني
حمته على الأعداء من كل جانب
هم المحسنون الكرم فى حومة الوغى
وهم يحسنون العفو عن كل مذنب
حيون إلا أنهم فى نزالهم

وان قلت لم أترك مقالاً لعالم
عن ابن عبد الله ضعف العزائم
سيوف بنى طغج بن جف القماقم
وأحسن منه كرمهم فى المكارم
ويحتملون الغرم عن كل غارم
أقل حياء من شفار الصوارم

(٤٦) بعض أبطال الدولة العباسية

جاءت الدولة العباسية والحكم ممد فلم تحتج لتوسيع حدودها أو نشر
لغتها إنما اقتصر على هدم الحكومة الأموية وبناء دولتهم مكانها وهو عمل
صعب شاق تذل امامه أعناق العظماء وقد قام به أقطاب عظماء نذكر هنا
بعضهم ..

(١) أبو مسلم الخراساني

اسمه عبد الرحمن من ذرية بزرجمهر. نشأ فى حضن غيسى بن معقل وكان

يختلف مع ابنه إلى المكتب فظهرت نجابته وتفوّقه من صغره واتصل بالنقباء العباسيين فعجبوا بمعرفته وأدبه وأخرجوه معهم إلى مكة وعرجوا إلى الحميمة "عش الدعوة العباسية" فأهدوه إلى الإمام وانصرفوا فلما رجعوا ثانية سأله رجلان عاملاً يقوم بأمر خراسان فقال أنى جربت هذا الأصفهاني ظاهره وباطنه فوجدته حجر الأرض فقلده الأمر وأرسله إلى خراسان فبث الدعوة ونظم الادارة ثم وثب وحارب قواد مروان وباع للسفاح فصفت له خراسان وقال:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت	عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
مازلت أسعى بجهدي في دمارهم	والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا	من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنماً في أرض مسبعة	ونام عنها تولى رعيها الأسد

ولما أمّحت دولة بني أمية وأسست دولة بني العباس طمع أبو مسلم في الخلافة وطلب إلى السفاح أن يسمح له بالحج آملاً أن يوليّه امارته ولن يتولاها آنذاك إلا ولي العهد فأذن له السفاح بالحج واعتذر إليه إن قد سبق فوليت إمارة الحج إلى أخى المنصور فحقّد أبو مسلم وحج مع المنصور وكان لا يأتمر بأمره ولا يسير خلفه ويتقدمه في الرحيل وبذل في موسم الحج أموالاً طائلة فحبب إليه قلوب العرب واستمالوا وادعى أنه عباسي من ذرية سليط بن العباس وكان يبدأ في مخاطبة المنصور ومكاتبته بنفسه وخطب عمته آسية واستخف بالنصو فاحفظه واحنقه إلا أنه كظم غيظه حتى توفي السفاح وخلع عبد الله بن علي فأرسله المنصور إلى محاربته فذهب إليه وقضى على جيشه

وحاول المنصور أن يصرفه عن خراسان اتقاء عصيانه فأبى فاحتال عليه وقتله
ثم استشار مسلم ابن قتيبة في أبي مسلم فقال له الآية ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا
اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١) ودخل جعفر بن حنظلة على المنصور وقال له ما تقول في أمر
أبي مسلم؟ إن كنت أخذت منه شعرة فاقتل ثم اقتل فأراه أياه في البساط
قتيلاً فقال يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أول خلافتك.

(٢) عبد الله بن علي

هو عباسي الأصل عم المنصور وناب من أنياب الدولة العباسية وركن
من أركانها وعظيم من عظمائها. نادب نفسه إلى قتال بنى أمية وصاحب جيش
المغرب وقال جيش مروان في وقعة الزاب وثال عرش بنى أمية في دمشق
وهاتك أستارهم ونابش قبور خلفائهم. كان عامل الخليفة في دمشق فلما
توفي السفاح دعا الناس إلى نفسه وقال لهم أن السفاح جمع أبناء أبيه وراودهم
في محاربة مروان وقال من انتدب منكم إليه فهو ولي عهدي فلم ينتدب غيري
فذهب وأيدت للسفاح الملك وشهد له بعض أخصائه ومعارفه فبايعه الجميع
فسير المنصور أبا مسلم إلى محاربته والتحم الجيشان وبعد قتال شديد هزم
جيشه فذهب والتجأ إلى أخيه سليمان بالبصرة.

أن هزيمة جيش عبد الله بن علي لم تكن عن جهل وضعف تدبير وقلة
جند وجبن رجال بل كل شيء كان موفوراً اللهم إلا أن الجند لم يكونوا
يعتقدون بصحة قضيتهم وأنهم يقاتلون على الحق بل كانوا موقنين أنهم

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢.

مبطلون فى دعواهم وأن عبد الله بن علي خارجي فلم يصدقوا الحملة ولم يحاربوا برغبة ولم يثبتوا فى القتال فهزموا فلو كانوا مؤمنين بصحة دعوة قائدهم لاستبسلوا ونصروا نصراً مبيناً. ومن أبطال دعوة العباسيين سليمان بن كثير وأبى سلمة الخلال وزير بنى هاشم ثم البرامكة وغيرهم ولكننا لانقصد هنا أن نلم بذكر جميع القواد العظام ونقتصر على تراجع هؤلاء الأبطال لترسخ فى ذهن الطالب شهرتهم ويعلم أن فى قومه رجالاً لا يقلون عن رجال الغرب الذين يتغنى بهم قومهم.

الفصل التاسع

(٤٧) الدولة الفاطمية نشوءها ودخولها مصر وبناء القاهرة

اعتقد أبناء فاطمة الزهراء بأنهم أحق بالخلافة من سواهم وبدأوا يعملون سراً لاسترجاعها. فتسرع بعضهم وجهر بدعوته قبل أن يكون له جيش يعززه فلاقوا القتل والصلب جزاء فعلتهم.

أما الفاطميون فقد أدركوا هذا السر واختاروا اقليماً قاصياً عن العمران بعيداً عن مركز الخلافة لينطوي ذكرهم ويخفى خبرهم فأرسلوا داعيتهم أبو عبد الله الشيعي سنة ٢٨٠هـ وسنة ٨٩٣م إلى شمالي إفريقية يدعو إلى المهدي^(*) ولم يعلن اسمه فلما انتصف أبو عبد الله واطاعته القبائل ناوأ الحكومة واستولى على إفريقية ثم استقدم المهدي فسار عن طريق مصر وحل بمدينة رقادّه وأمر أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة ولقب بأمر المؤمنين وقد أخذته الوحشة من أبي عبد الله الشيعي فقتله وأخاه أبا العباس بعد أن دانت له جميع بلاد المغرب.

ثم تافت نفسه لفتح مصر وقد حاول خلفاؤه من بعده ذلك فحالت دونهم حوائل إلى أن ولي الخلافة المعز لدين الله^(**) سنة ٣٤١هـ وسنة ٩٥٢م

(*) هو عبد الله بن محمد وقد اختلف النسابون والمؤرخون في نسبه فمنهم من يقول أنه فاطمي وهو الصحيح ومنهم من ينكر ذلك.

(**) كان خطيباً عالماً باللغة اليونانية واللغات الإفريقية شجاعاً قديراً في السياسة حريصاً على النفوس.

فوجه همه وقوته إلى فتح مصر وسير إليها أكبر قواده جوهر. فدخلها ظافراً في سنة ٣٥٨ هـ وقضى على الدولة الأحشيدية ثم ملك البلاد وبنى مدينة القاهرة والجامع الأزهر العظيم وسير جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام في جمع كبير فبلغ الرملة وحارب الحسن بن عبيد الله بن طغج فظفر به وأسره مع قواده وبعث بهم إلى جوهر في مصر ودخل البلد عنوة وقتل من أهلها كثيراً. وجبى الخراج وسار إلى طبرية فوجد ابن ملهم قد أقام الدعوة الفاطمية فसार عنها إلى دمشق وبعد حروب عديدة استولى عليها.

تكون في المملكة العربية حكومات كثيرة ولكس لم يجروا أحد على ادعاء إمارة المؤمنين واكتفوا بالسلطة الزمنية فقط فلما ظهرت الدولة الفاطمية القرشية أهدقت بالدولة العباسية الأخطار لأنها نازعتهم الخلافة والسلطنة معاً ولقبوا بأمراء المؤمنين ودعوا لأنفسهم على المنابر أما الدولة الطولونية والأحشيدية والأموية "الأندلسية" والطاهرية وغيرها فكان استقلالهم ينحصر في السلطة السياسية وظلوا يعترفون بالخلافة إلى الخلفاء العباسيين فصار للمسلمين آنذاك خليفتان عظيمتان الأولى عباسي على ضفاف نهر دجلة والآخر فاطمي في حوض النيل وشرعا يتنازعان السيادة وكل بلاد كان يفتحها أحدهما لتقلص عنها دعوة الآخر ولكن بنى أمية في الأندلس فإنه تربصوا حتى عهد عبد الرحمن الناصر فخطب له على المنابر ولقب بأمر المؤمنين.

تهيبت دول الشرق الحكومة الفاطمية وخافوا بأسها وقوتها فلم يقدموا على التحرش بها لعظمتها وفتوتها. وانبرى عز الدولة بختيار البويهى فأغرى

قائد القرامطة على مقاومة الفاطميين وساعده بالمال والسلاح فسار في سنة ٣٦٠هـ إلى دمشق يطلب الاتاوة^(*) من أهل دمشق التي كان قطعها الفاطميون فلم يحفل جعفر بن فلاح بجمعهم واستهان بهم فكسبوه وقتلوه وامتلكوا دمشق فأمنوا أهلها وطمحت نفوس القرامطة إلى هدم دولة الفاطميين والاستيلاء على بلادهم فانقضوا على الرملة واحتلوها واستولوا على مافيها وحصروا جند الفاطميين في يافا. وقصدوا مصر وقد التف حولهم خلق كثير منهم حسان بن الجراح الطائي أمير عرب الشام فتصافوا قرب عين شمس واقتتلوا مرات كان الظفر فيها للقرامطة فاستعظم المعز الأمر وهاله فعمد إلى الحيلة واستمال أمير العرب حسان الطائي ورشاه بمبلغ ١٠٠ ألف دينار فانسحب وتبعه العرب وثبت القرامطة إلى أن أرهقهم جند المعز فانقلبوا راجعين وأتوا الرملة وشددوا الحصار على يافا فسير جوهر من مصر ١٥ مركباً تحمل ميرة ونجدة للمحصورين فأخذها القرامطة ولم ينج منها إلا مركبان غنمهما الروم ومن قول ابن بهرام القرمطي:

زعمت رجال الغرب أنى هبتها فدمي إذن ما بينهم مطلول
يامصران لم أسق أرضك من دم يروي ثراك فلا سقاني النيل

وساروا من فلسطين سنة ٣٦٣ إلى أذرعات ومنها إلى الإحساء وفي سنة ٣٦١هـ سار المعز لدين الله الفاطمي من إفريقية إلى مصر ونقل عاصمته إليها. وسنة ٣٦٤هـ انهزم أفتكين^(**) التركي من مولاة بختيار وسار في طائفة

(*) كان للقرامطة ٣٠٠ ألف دينار يأخذونها سنوياً من ابن طغج. (**) يسميه الأتراك أنوشكين والدروز نشكين

صاحلة من جند الترك فوصل إلى حمص ومنها إلى دمشق فدخل المدينة وأخرج حاكمها ريان وقطع خطبة المعز وخطب للطائع العباسي، فلما مات المعز جمع بجيزة واغتصاب بلاده وأغار على صيدا وانتصر على حاكمها وقصد طبرية فنهبها وعاث فيها فغضب الخليفة العزيز وأرسل جوهرًا بجيش ضخم فانسحب أفتكين إلى الشام واستصرخ القرمطي قلباه فعرف جوهر وانصرف فسارا في أثره فأدركاه بظاهر الرملة ونزلوا على نهر الطواحين (نهر روبين) فقطعوا عن الماء^(*) فراجع إلى عسقلان فحصره مدة ثم فسحا له فذهب إلى مصر وأعلم العزيز فبرز وفرق الأموال وجمع الرجال وسار إلى محاربة القرمطي وافتكين وعلى مقدمته جوهر فاصطدم الجيشان على مقربة من الرملة وبعد قتال عنيف انهزم القرمطي وتبعه أفتكين ومن معهما فبذل العزيز مائة ألف دينار لكل من أتاه بافتكين أسيراً فأدركه المفرج بن دغفل الطائي وقد كظه العطش فأخذه إلى بيته وأكرم مثواه لما كان بينهما من الأُنس القديم. ثم أعلم العزيز به فدفع إليه الجعالة وتسلمه فأحسن إليه وقربه وأعطاه الخيام وأعلى مكانه وأعاد إليه من كان يخدمه وحمله معه إلى مصر وجعله من أخص أعوانه. أما القرمطي فقد بعث إليه العزيز رسولاً يدعوهُ ليحسن إليه فلم يأمن وخاف الغدر فعين إليه ٢٠ ألف دينار سنوياً. وفي سنة ٣٦٨هـ تغلب المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي على الرملة وناحتها وأظهر طاعة العزيز من غير أن يتصرف بأحكامه فعظم شأنه وكثر جمعه وعاث في الأرض فساداً فجهز العزيز بالله العسكر وأمر

(*) كان ينحدر الماء إلى الرملة من عين بردة وهي تبعد ١٥ كيلو متر من شرقها وآثار القناة باقية للآن.

عليها القائد يلتكين فسار مجداً إلى الرملة وقد التف حوله القيسية "العرب"
فقابله جيش المفرج وكان منظماً وبعد حرب قصيرة فرّ ابن الجراح إلى أنطاكية
والتجأ إلى أميرها اللخمي التنوخي. فانقضت خلافة العزيز وداخلية البلاد في
اضطراب واختلاف مع أنه كان حليماً عادلاً غير متعصب كثير التسامح
لا يفرق بين المذاهب والأديان فكان كاتبه الخاص عيسى بن نسطورس مسيحي
ونائبه في دمشق منشأ يهودي وقد اعتر المسيحيون واليهود في خلافته وهجاءه
شاعر فقال:

تنصر فالتنصر دين حق	عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا	وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير اب وهذا الـ	عزيز ابن وروح القدس فضل

فامتعض وغضب ولكن عفا عنه فأطال لسانه أحد الشعراء وغضّ من
هيبة الملك وقال:

زبـارجي نديـم	وكـلّـسيّ وزـيـر
نعم على قدر الـ	كلب يصلح الساجـور

فبلغه الخبر وعرف القائل فقال لابن كلس قد اشتركتنا في الهجاء
فشأركني في العفو وتوفى سنة ٣٧٦هـ وعهد إلى ابنه أبي على المنصور الملقب
الحاكم بأمر الله ولغرابة أطوار هذا الخليفة نفرد له نبذة خاصة ..

(٤٨) الحاكم بأمر الله

ولى الخلافة سنة ٩٩٦م سنة ٣٧٦هـ وعمره إحدى عشر سنة ونصف فأوصى به والده ارجوان الخادم وجعله مدير دولته فتغلب عليه الحسن بن عمار شيخ قبيلة كتامة وسيدها وبغى على الخليفة وتحكم فى المملكة وتلقب بأمين الدولة وهو أول من تلقب فى الدولة الفاطمية وعبث بالخليفة واستصغره فتبسطت كتامة فى البلاد ومدوا أيديهم إلى أموال الرعية فأنف ارجوان وصبي الحاكم وكاتب بعض القواد والعمال لاستخلاص البلاد منه فسار حاكم دمشق منجوتكين إلى مصر فأذاع ابن عمار أنه عصى الخليفة وندب العساكر لمحاربتة وأمر عليها أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح فتصافا قرب عسقلان وأسر منجوتكين وهزم جمعه وبعث به أبو تميم إلى مصر فغضب ارجوان وثار فى مصر وأخذ السلطة من يد ابن عمار وباع الحاكم ثانية فطمع المفرج الطائي ونزل على الرملة ونهب ما وجده فأنفذ إليه ارجون جيش بن الصمصامة فاسترد الرملة وهرب المفرج الطائي من بين يديه ثم ثار ثانية فملك الرملة وما والاها فاستبشر أبو القاسم المغربي وزير شرف الدولة وانسل إليه وحبب إليه الخروج عن طاعة الفاطميين وحسن له أن يبايع سواهم فراسل أمير مكة الشريف أبا الفتوح وخاطبه بأمر المؤمنين ورغبه فى القدوم إلى الرملة ليبايع له بالخلافة فاستتاب بمكة وحضر وخطب بأمر المؤمنين ففرق الحاكم وراسل المفرج وأبنه حسان ومجدهما وترضاهما وضمن لهما الاقطاع الكثير والعطاء الجزيل فعلاً عن الريف وردّاه إلى مكة وعادا إلى طاعة الحاكم الذي جهز عسكرياً إلى الشام بقيادة على بن جعفر وأمره أن يكبس بني طي. فلما

وصل الرملة أزاح حسان وأبيه المفرج وعشيرتهما عن تلك الأراضي وأخذ ما كان لهم من الحصون بجبل الشراة ونهب أموالهم وذخائرهم واستأنف السير إلى دمشق. ثم أمن الحاكم المفرج وأكرمه ووضع عليه من سمه فارتاح من شغبه. ومن أعمال الحاكم المتناقضة التي تشهد بضعف عقله وهوسه أنه ادّعى الألوهية وسمى نفسه الحاكم بأمره واضطهد الديانة الإسلامية وأمر بسب الصحابة وترك صلاة التراويح ونشر مذهباً جديداً أباح فيه زواج الأخ بأخته وحرّم أكل الملوخية لأن معاوية بن أبي سفيان كان مغرمًا بها وأكرم النصارى واستوزر منهم فهد بن إبراهيم المسيحي ثم اضطهدهم واليهود فأمر بهدم كنيسة القيامة في القدس وغيرها من الكنائس ثم أمر بعمارتها على نفقته وسلب أموالهم وأمرهم أن يلبسوا السواد شعار العباسيين احتقاراً لهم.

ونهى النساء عن الخروج من بيوتهن وقد أجمع الشعب على كرهه وتوقعوا بطشه فضجرت منه أخته ست الملك وتوقعت نقمته فاحتاطت لنفسها واتفقت مع القائد ابن دؤاس على قتله فأمر من اغتاله قرب المقطم وأخفى جثته. ومن آثار شيعة الحاكم في سورية وفلسطين الأمة الدرزية التي تنتسب إلى أنوشتكين الدرزي ومحمد بن اسماعيل التميمي لداعي وهما المبشران بألوهية الحاكم ومذهب التقمص الذي صادف هوى في نفوس القرامطة "الدروز" فاعتنقوه. وبعد أن فقد الحاكم جمعت ست الملك الناس وأحسنّت إليهم ورتبت الأمور وبايعت للظاهر لا عراز دين الله وجعلت الأمر في يد ابن دواس تطميناً له ثم أمرت بقتله وأعلنت للقواد أنه هو الذي قتل سيدهم ومدّت يدها إلى الملك فاستبدت به.

وسنة ٤٠٢ هـ استطال حسان الطائي واستفحل أمره في فلسطين وعقد حلفاً مع صالح بن مرداس أمير بني كلاب وسان بن عليان واتفقوا على أن يقتسموا سورية بينهم فيكون من حلب إلى عانة لصالح ودمشق وملحقاتها إلى سنان ومن فلسطين إلى مصر لحسان فاستولى صالح على حلب وبلادها وحصر حسان الرملة وامتلكها ومن تأمل قليلاً في هذا الحلف يجده منطقياً على أسرار خطيرة لأن هؤلاء الرجال كانوا أمراء القبائل العربية في عصرهم ويشبهون في الحالة الراهنة ابن سعود وخزعل وابن الشعلان وابن مهيد.. إلخ. وقد رأيت مما مرّ بنا أن أسماء القواد والعمال كانت أجنبية ولم يبق للعرب حظاً في دولتهم فنقموا هذه السياسة وعقدوا حلفاً عربياً صرفاً ضد الأعاجم الذين كانوا يحكمون رقاب قومهم ويسومونهم سوء العذاب. وقد تنبه الوزير لمهلبى إلى هذه الأخطار وأشار إلى ما ترمي إليه الحكومة من سوء الإدارة باقصاء العرب وتقريب الأجانب.

وقد لمح المتنبي في شعره إلى أن البلاد العربية أصبحت أعجمية فقال قصيدة منها:

ولكن الفتى العربي فيها	غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها	سليمان لسار بترجمان

فمن هذا يظهر أن البلاد العربية والشعب العربي انفصل عن حكومته وسادت عليه العناصر الأخرى فكان يشكو ويتألم ولكن بلا جدوى لأنهم كانوا غير قادرين على دفعهم والخلفاء لا يأخذون بيدهم فعقدوا هذا الحلف

وحاولوا أثبات حقهم وكان يجب على الخليفة الظاهر أن يؤازرهم ولكنه سخط وغضب ثم جهز قائده أنوشتكين البريدي بجيش كبير فسار إلى فلسطين ودلف إليه حسان وصالح فتصافوا في سهل الأقحوانة^(٣) وبعد قتال عنيف قتل صالح وابنه الأصغر وأرسل أنوشتكين رأسيهما إلى مصر واستولى على جميع البلاد ونجا نصر بن صالح فأسس في حلب الدولة المرداسية واستكان حسان حتى سنة ٤٣٣هـ ثم نهض مع بنى كلاب وثاروا ثانية ولكنهم لم يفلحوا وسنة ٤٦٠هـ كثرت الزلازل بمصر والشام فانثلم سور القدس وانهدم أكثر منازل الرملة وهللت تحت الردم خلق كثير فتحولت المدينة إلى قرية وانشقت صخرة بيت المقدس. وسنة ٤٢٩هـ سمح الخليفة المستنصر بتعمير كنيسة القيامة وهادن ملك القسطنطينية.

وفي أيام هذا الخليفة اجتاز عرب بنى هلال فلسطين وعبروا مصر وقد بولغ في قصصهم حتى اختلط الصحيح بالفساد ولكن ابن الأثير وابن خلدون ذكرا ما نوره هنا بعد التمهيص فقالا: أن المستنصر استوزر الحسن بن علي من قرية يازور (قرب يافا) ولم يك من أهل الوزارة بل كان قاضياً على الرملة فأكرم العلماء وبجلهم فأحبوه وساعده الحظ فارتقى الوزارة ونال الإمارة بجده وعلمه واتفق أن والى إفريقية المعز بن باديس قطع خطبة العلوي سنة ٤٤٠هـ وخطب للقائم العباسي فحنق المستنصر وتهده فأغلظ المعز في الجواب وخرج عن مألوف المخاطبات مع اليازوري وكاتبه بصنيعة "وليس بعبد" فعاتبه فلم

(٣) الأقحوانة قرب طبرية على شاطئ البحيرة.

يرجع وطغى فلما ان قدمت قبائل بني هلال زغبة ورياح وسليم وعدى وخفاجة وأميرهم مؤنس بن يحيى المرداسى انتهز المستنصر ورجاله هذه الفرصة وأصلحوا ما بينهم وأزالوا أحقادهم وأعطوهم أموالاً ووجهوهم إلى القيروان وعاهدوهم بأن يعطى لهم كل ما يفتحونه ووعدوهم بالمدد والمساعدة فدخلت العرب أفريقية وكتب اليازوري إلى المعز: "أما بعد فقد أرسلت إليك خيولاً فحولاً ورجالاً كهولاً ليقضى الله أمراً كان مفعولاً" فجاسوا الديار وعاثوا فيها وامتلكوها وظلوا فى حروب مستمرة حتى أواخر سنة ٤٥٧هـ فاصطلموا زنانة وتم لهم النصر.

وفى عهد المستنصر بالله كثرت الاضطرابات فى مصر فاستقدم الخليفة بدر الجمالى حاكم عكا لاصلاح ما فسد فنشط بدر ودخل مصر فى جيش من أهل فلسطين ففتك بجند الأتراك ولكن الخليفة لم يتعهد بلاد سورية فشغرت وهب ملكشاه السلجوقى لامتلاكها وفى سنة ٤٨٧هـ توفى الخليفة المستنصر وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة أشهر.

(٤٩) الدولة السلجوقية

زحف من تركستان إلى البلاد الإسلامية قبائل متعددة كانت خاضعة إلى الأمراء السلاجقة الذين انقسموا فيما بعد إلى دول ثلاث: خراسانية وسورية وأناضولية. وقد اشتهر طغرل بك حفيد سلجوق بالشجاعة والفتانة وساعده الحظ والاجتهاد إلى أن دخل بغداد وخطب له على منابرهما واخضع من تمرد على العباسيين ولكنه توفى عقيماً فانتقل ملكه إلى ابن أخيه السلطان

ألب أرسلان الذى امتد نفوذه واتسعت حدود بلاده واستولى على حلب فلما قضى خلفه ابنه ملكشاه فهم بفتح مصر واستئصال الدولة الفاطمية وسير سنة ٤٦٣ هـ وسنة ١٠٧٧ م أحد قواده اتسر "اقسر" بن أوق خوارزمي إلى فلسطين ففتح مدينة الرملة وحاصر القدس وفتحها وملك ما يجاورهما من البلاد خلا عسقلان وقطع الخطبة الفاطمية وأحيا الخطبة العباسية وفي سنة ٤٦٨ هـ حاصر دمشق وفتحها ومنع الشيعة أن يجهرُوا في آذانهم بفقرة "حيّ على خير العمل" وان يؤذّنوا كالسنين وفي سنة ٤٦٩ هـ سار لفتح مصر فقابله أمير الجيوش بدر ومعه جمع كبير من العرب فهزمه وقتل أخاه وأكثر أصحابه فعاد اتسر منهزماً إلى الرملة ثم سار منها إلى دمشق وقد خالف أهل القدس حاكمهم فنهد إليهم وحصر المدينة ففتحها عوة ونهبها وقتل أهلها حتى من التجأ إلى المسجد الأقصى وكف عمن عاذ بالصخرة. وفي سنة ٤٧١ هـ أقطع السلطان ملكشاه الشام لأخيه تاج الدولة تتش فكف هجمات المصريين عن البلاد وقتل اتسر لأنه لم يستقبله وبعد وفاة ملكشاه استقل في سورية ودعا لنفسه. وفي سنة ٤٨٢ هـ نهضت عساكر مصر لاسترداد سورية فلم يتوفقوا إلا لفتح عكا وبعض بلدان فلسطين فعين أمير الجيوش عليها الأمراء والعمال وفي سنة ٤٨٦ هـ فتحوا مدينة صور. ولما توفي تتش انقسمت مملكته إلى قسمين كانت قاعدة أحدهما حلب ومملكها ابنه رضوان وحاضرة الأخرى دمشق وسلطانها دقاق: فشاق رضون أخاه وسار إلى فلسطين ليفتحها فجاء إلى نابلس والقدس ورجع خائباً ثم مات دقاق ملك سورية وأستبد بالمملكة أتابكه "مملوكه" طغتكين وأسس ملكاً لولده بوري المنتسبة إليه هذه

الدولة وقد وهم بعضهم فظنها دولة سلجوقية والواقع أنها بورية وهكذا ظلت الدولتان السلجوقية والفاطمية في عراق وصادام فإذا ما استضعفت أحدهما الأخرى كانت تغير على بلادها وتقتطعها فتربص الثانية حتى يوهن عدوتها فتق أو طارئ جديد فتتال به غرة وتهب بخفة وتسترد منها ما سلب. فباغتهم الصليبيون وهم منهوكون القوى وبلادهم فوضى وجيوشهم قد سئمت الحرب وملته وزهدت في القتال والدفاع وطما عليهم السيل الغربي وأيقظهم التيار الأوروبي فغمر بلادهم وحكم في رقابهم وطردهم من أوطانهم وسلب أطياب رقادهم حتى قبض الله لهم صلاح الدين فأخذ ثأرهم ونفى عارهم واسترد استقلالهم ونجاهم من عذاب أليم.

الفصل العاشر

(٥٠) الصليبيون

توالى على العرب فى فلسطين لنزع السيادة منهم هجمات كثيرة أعظمها الحملات الصليبية الأوروبية التى كان الباعث لها أسباباً خطيرة لايسعنا تفصيلها فى هذا الموجز بل نكتفى بسردها مختصرة فنقول: ظهرت هذه الحرب لعامة شعوب أوروبا بمظهر دينى فقط فأشاعوا أن السلجوقيين أهانوا حجاج المسيحيين واعتدوا عليهم غير أن التواريخ العربية لم ترو هذا الخبر قطعاً بل ذكرت أن المسيحيين كانوا ينعمون فى حريرتهم مثل المسلمين وما كان يقترفه بعض الملوك مثل الحاكم الفاطمى من الظلم والجور كان يشمل المسلمين والمسيحيين على السواء ولكن هذه الحروب كانت منظوية على أمور سياسية كما ورد فى خطاب البابا أوربانوس الذى حرص به الممالك التجارية على اغتنام هذه الفرصة ويقال أن روم القسطنطينية خافوا سلجوقي الأناضول فاستغاث امبراطورهم بالبابا ووعدته أن يضم كنيسته إلى كنيسة روما ويقال أن الحكومات التجارية حرصت على أسواق الشرق لما اضطربت العلاقات بين آسيا وأوروبا فهبت تدافع عن مصالحها وقيل أن أيدي أمراء المقاطعات فى أوروبا سيما فى أنكلترا كفت وألغيت امتيازاتهم فأخذوا يبحثون لهم عن بلاد أخرى يستعيضون بها عن مقاطعاتهم. ومما هو جدير بالذكر أن أوروبا كانت حينئذ مسوقة بتيار دينى وهوس مسيحي وكان ذلك الوقت زمن

الفروسية والنجدة فنذر كل فارس أن ينقذ الأراضى المقدسة من أيدي المسلمين ويغيث الضعيف والمظلوم. وهذا الشعور الدينى كان عاملاً عظيماً فى الحروب الصليبية لأنه عز على أبناء المسيح فى أوروبا أن يروا أقدس بقعة لديهم فى يد عدوهم.

فلما زار القدس بطرس الناسك الأفرنسى فى أواخر القرن الحادى عشر وشهد خشونة التجبر وذاق مرارة التحكم التهبت فى صدره نار الحمية وقابل بطريك القدس فحدثه بهذه الشدة والقساوة ووعدده أن يستبدل هذا الذل بالعز وصمم على إثارة نفوس زعماء أوروبا إذا هو لم يمت فلما رجع أعلن ما رآه وحدث البابا بما عاين ولمس فعقد الاجتماعات وأرسل المناشير وخطب ووعظ فنجح وأقنع الأمم الأوروبية وهاجمهم وحرصهم على فتح فلسطين والاستيلاء على الأماكن المقدسة ولكننا نضرب صفحاً عما يتعلق منها بأوروبا بحثنا بما جرى فى فلسطين لأن هذا المختصر لا يتحمل التطويل فنقول كانت فلسطين قبل قدوم الأفرنج محطة للنواب لأنها توالى عليها الزلازل وفتكت بها الحروب والفتن وأهزلتها المجاعات بل كانت شبه كرة يتلقفها فريق ويتخطفها آخر فيوماً تكون تحت النفوذ العباسى ويوماً فى يد الفاطمى يتنازع عليها القواد ويغتصبها الأمراء ويقتسمها العمال وليس للخلفاء إلا الخطبة والسكة والطراز وأصحاب الأقاليم والبلاد هم السلاطين والملوك يحكمون ويجبون الأموال يعلنون الحروب ويؤيدون الخليفة ويتمسكون به ليهبهم الألقاب ويخطب لهم على المنابر.

فرحفت جموع أوروبا إلى سورية باذلة أرواحها ومهيج بيها وحملوا على الشرق تسع حملات تخللها كثير من النجداث بعضها هوى فى الطريق والبعض الآخر وصل فلسطين.

الحملة الأولى : سنة ١٠٩٦م أو سنة ٤٩٠هـ

كانت الحملات الصليبية خليطاً من الفرسان "Knights" والجنود المنتظمة والمتطوعة تسير جماعات بمواشيها كالقبايل الرحالة فلا قائد يتعهدهم ولا أمير يدبر شؤونهم كأنهم قطيع من البشر ساقهم التعصب الدينى إلى الموت.

اجتمع فى فرنسا سنة ١٠٩٥م جمهور مختلط يبلغ عددهم مئتى ألف نفس بلا رابطة تجمعهم ولا ألفة تمسكهم إلا عاطفة رسم الصليب + المنقوش على سلاحهم وصدورهم. فساروا إلى ألمانيا فالنمسا فهنغاريا فالآستانة وهنالك أحصى عددهم فإذا هم النصف والباقى تحطفة أهل البلاد فقتلوهم ومنهم من مات جوعاً أو ضل عن الطريق ومنهم من رجع فانطفأ أمله بانقاذ القبر المقدس. فاستأنف الباقون السير براً إلى الأناضول فصدهم السلاجقة إلا أنهم عجزوا عن إيقافهم. وبعد قتال عنيف استولوا على أنطاكية سنة ٤٩١هـ وسنة ١٠٩٦م ومنها انحدروا إلى المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا مجدين فى سيرهم مصممين على فتح بيت المقدس فلما عرف الفاطميون بقدومهم ورأوا الخطر المحدق بهم طلبوا مصالحتهم على شرط أن يسهلوا الطرق لمن أراد زيارة القدس من المسيحيين فرفض الأفرنج وقصدوا

الرملة فذهب إليهم نفر من أهالى بيت لحم ورحبوا بهم وحثوهم على قتال الفاطميين فصعدوا من الساحل إلى القدس وكان عددهم ٤٠ ألف مقاتل فحاصروها وتحملوا من المشاق والصعوبة ما أزعجهم.

(٥١) فتح القدس

كانت القدس قبل الفتح الصليبي فى يد سلاجقة الشام فخرج عسكر الخليفة الفاطمي بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي واستولى عليها أماناً فى شعبان سنة ٤٨٩هـ فدخلت فى ملك المصريين وأنابوا عنهم فيها أفتخار الدولة فأتاها الأفرنج وحاصروها نيفاً وأربعين يوماً وعانوا صعوبات شديدة نأتى على أجلها.

١- قلة الماء: فإنهم كانوا ينقلونه من البيرة وعين كارم ولقتا.

٢- نفاذ الذخيرة: إنا قد شهدنا أثناء الحرب العامة ما كان مجموعاً لتأمين المجاعات ومع ذلك فقد شكا الجند الجوع والعطش وكانت الحكومة المحلية تحرسهم والشعب يوزرهم فكيف بجماعات غرباء فى بلا يعقتهم أهلها ويقبحون أعمالهم وينكرون فظائعهم.

٣- لوازم الحصار: فإن المحاصر يحتاج إلى أخشاب وأدوات أخرى وهؤلاء الدخلاء لم يحضروا معهم شيئاً من ذلك وكانت البلاد قاحلة والأحراج بعيدة عن القدس ولولا قدوم السفن الإيطالية التى كان معها كثير من الأخشاب لما قدروا على بناء الأبراج ولما استطاعوا التسلق على جدران المدينة ولكنهم ذللوا كل هذه الصعوبات وحاصروا المدينة ودخلها غودفرى من باب الساهرة وهو أول الداخلين ثم فتحت جميع الأبواب

فملكوا القدس عنوة يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ هـ وسنة ١٠٩٩ م ولبت الفرنج يقتلون ويفتكون فى نساء وأطفال وشيوخ ومرضى المسلمين أسبوعاً ويقدر ما قتل منهم فى المسجد الأقصى ما يربو على ٧٠ ألف نفس وفيهم أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم ممن جاوروا بيت المقدس وما ندري لو تجلى السيد المسيح وراهم يرتكبون تلك المخازى والمنكرات ماذا عساه يقول لهم وهو القائل "أحبوا أعداءكم" ولو انا قايسنا بين دخول عمر بن الخطاب البدوى وبين دخول غودفرى الأفرنسي الذى عاش فى القرن الخامس بعد عمر لنجل الفرنج من سيرة قائدهم وفضائعه وأفتخر العرب بعدل خليفتهم ومآثره.

فلما رأى المسلمون ما حل بهم استجاشوا لجموع لمحاربة الفرنج واسترجاع بيت المقدس فهتف الأبيوردي بقصيدة عصماء منها:

وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فليها بنى الاسلام إن وراءكم	وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دُمى	توارى حياء حسننها بالمعاصم
ولك حروب من يغب عن غمارها	ليسلم يقرع بعدها سن نادم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدى	رماحهم والدين واهي الدعائم
فليتهم إن لم يذودوا حيلة	عن الدين ضنوا غيرة بالغمارم

فهاجت نفوس المصريين وحشد الأفضل أمير الجيوش عساكره وسار إلى عسقلان وأنكر على الفرنج ما فعلوه وتهددهم فعاجلوه وهزموه وقتلوا من جيشه كثيراً وغنموا ما فى المعسكر من مال وسلاح فانسحب إلى عسقلان ومنها إلى مصر فحصر الفرنج عسقلان وأخذوا من أهلها ٢٠ ألف دينار قطيعة لهم وعادوا إلى القدس متخاذلين فأسسوا مملكة لاتينية صغيرة على شكل الاقطاع الأوروبي القديم واختاروا غودفرى أميراً عليهم وشرعوا يفتحون ما بقى من مدن فلسطين فعاجل غودفرى أجله ودفن فى كنيسة القيامة على يمين الداخل ويوجد هناك سيف يزعمون أنه سيفه ولا يعمل حقيقة ذلك الزعم وانتخب بعده أخوه بلدوين ففتح مدينة أرسوف أماناً وحيفاً وقيسارية وقتلوا أهلها.

ثم فتحوا كافة مدن الساحل خلاً صور وعسقلان وظلوا فى حروب مستمرة مع الفاطميين وبوريي دمشق فلم يظفر أحدهم بالآخر وعجز المسلمون عن رد غاراتهم لأن بلادهم كانت منقسمة إلى إمارات وملوك عديدة واتفق أن استحکم الخلاف بين السلاجقة فشغلوا عن مقاومة الأجانب بمحاربة بعضهم بعضاً حتى إن بكتاش بن تتش أخو ملك سورية وايتكين الحلبي صاحب بصرى حالفاهم فاطمأن الصليبيون وظنوا أنهم ملكوا البلاد فبنوا قلعة الشوبك والكرك وحصون عثليت وصفد وطبرية. وفى سنة ٥١٩هـ انضم أمير العرب ديبس بن صدقة إلى الفرنج وحارب معهم العرب والمسلمين وفى سنة ٤٩٦هـ سیر الأفضل أمير الجيوش مملوك أبيه سعد الدولة لمحاربة الفرنج فلقبهم بين الرملة ويافا وبعد قتال عنيف كبا به الجواد فقتلوه وهزموا جنده

وملكوا ما فى خيامه فأرسل الأفضل ابنه شرف المعالي فى جمع كثيرا وصادمهم قرب يازور وهزمهم واثخن فيهم وأسر كثيرا من زعمائهم وأرسلهم إلى مصر وفتح الرملة وعزم أن يذهب إلى فتح القدس فجاءت نجدة صليبية من البحر فثبت عزمه وخارت قوته فانسحب إلى عسقلان واحتوى بها فحاصروهم ثم قفلوا راجعين إلى القدس.

وفى سنة ٥٠٢هـ سار طغتكين إلى طبرية فحارب ابن أخت بلدوين وانتصر منه وأسرهم ثم هادن بلدوين أربع سنوات. وفى سنة ٥٠٧هـ نزل طغتكين بجيشه الأقحوانة وحارب الفرنج فخذلهم وغرق منهم خلق كثير فى البحيرة ونهر الأردن فاستغاثوا بالأفرنج طرابلس وناطكية فأنجدوهم وأعادوا الكرة ولكنهم جنبوا والتجأوا إلى جبل غرب طبرية فحصرهم طغتكين ٢٦ يوماً ثم سار إلى بيسان فذهب بلاد الفرنج بين عكا والقدس. وفى سنة ٥١٢هـ خف طغتكين لمحاربة الفرنج فلقبهم بين دير أيوب وكفر بصل (فى حوران) ودخل طبريا ونهبها وما حولها وقصد عسقلان واتفق مع الجيش المصرى المربط فيها ثم عاد إلى دمشق وهكذا ظل المسلمون والصليبيون فى كروفر حتى سنة ٥٤٧هـ وسنة ١١٥٣م فانقض الفرنج على مدينة عسقلان وفتحوها ونزعوها من يد الفاطميين فاستراحوا من غزواتهم وغاراتهم.

ثم قام بعد بلدوين الأول بلدوين الثانى والثالث والرابع والملك أمورى ولكن هممهم أخذت تضعف وتفتر وهمم الوطنيين تقوى وتستعر لأن حماسة الصليبيين تلاشت وانطفت حرارتها فزال المحرك الذى ساقهم لانقاذ البلاد

والقبر المقدس مما رأوا من فساد الرهبان وأطماع الأمراء الذين رجعوا إلى
سيرتهم الأولى فاختلفوا وانشقت كلمتهم وانصرف كثير منهم إلى بلادهم
وتخاصم الباقون على التاج والألقاب والسلطة والأموال وتفاقم بينهم الخلاف
والانقسام ووجبت شمسهم بقدوم بطل الشرق السلطان صلاح الدين فذك
عرشهم ونكس أعلامهم.

الفصل الحادى عشر

صلاح الدين الأيوبى

مؤسس الدولة الأيوبية

(٥٢) حالة العالم الاسلامى

قبل أن نشرح سيرة السلطان صلاح الدين نمهد للقارئ الأسباب التى ساعدته على بلوغ هذا المقام العالى فنقول: كان العالم الاسلامى فى سبات عميق فالاشراف يتنازعون الخلافة حتى لا يكاد يمر عام إلا ونسمع أنه خطب لفلان على منابر اليمن أو الحجاز أو مصر وآخر فى شمال أفريقية والعراق أو طبرستان إلخ.. والأمراء والملوك اقتسموا البلاد فاقتطع بنو زنكي "ممالك السلاجقة" ولاية الموصل وامتدوا إلى سورية واشتهر منهم نور الدين بمناهضته للفرنج فامتلك دمشق سنة ٥٤٩هـ واختار أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين قائداً عاماً لجنوده.

فلما اختلت أحكام مصر وغلب الخلفاء على أمرهم تواتب الأمراء وطمعوا فى الوزارة فتولاها فى سنة واحدة أربعة ونهض أمير الصعيد ضرغام وغصبها من شاور الذى التجأ إلى دمشق وطلب إلى نور الدين أن يساعده بقوة عسكرية لاسترجاع منصبه بشرط أن يعطيه ثلث حاصلات البلاد خلاً أقطاعات العساكر ويظل شيركوه بعساكره فى مصر "احتلال عسكري"

فأرسل معه أسد الدين شيركوه فدخل مصر وقتل ضرغاماً وعين شاوراً محله فنكث وعده واستعان الصليبيين على إخراج أسد الدين من بلاده فأجابوه وردوا الجيوش الشامية.

وفي سنة ٥٦٢هـ سار أسد الدين ثانية إلى مصر بجيش مجهز ففتح ثغر الاسكندرية واثخن في الصليبيين وعساكر مصر وفتح الصعيد وجبى أمواله وأخيراً اتفقوا على أن تبحر جنود نور الدين والصليبيين مصر بشرط أن يدفعوا إلى شيركوه خمسين ألف دينار سوى ما جباه من الأموال فتمت المعاهدة ورجع إلى الشام. لكن الصليبيين نقضوا وتواطأوا مع المصريين على أن يكون لهم بالقاهرة شحنة تحرس أبواس المدينة ويعطى لها معاشاً سنوياً مائة ألف دينار من واردات مصر فتجاوزوا هذا الحد وتجبروا وطمعوا في استملاك البلاد وأرسلوا جنداً للاستيلاء على مدينة بليس وافحشوا فيها وحاصروا القاهرة فاستغاث الخليفة العاضد بنور الدين واستنجده فلباه بإرسال أسد الدين مع جيش كبير مجهز بالمهمات وأعطى لكل جندي علاوة على راتبه عشرين ديناراً فساروا حتى قاربوا مصر فرحل الفرنج عنها واستمر أسد الدين في سيره حتى قدم القاهرة فدخلها ورضى عنه العاضد لكن شاور أخذ يماطل في اقطاع الجند وثلث البلاد ففرغ صبر صلاح الدين وفتك به فخلع العاضد على شيركوه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور. وبعد شهرين وخمسة أيام من تاربخ وزارته توفي "حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة" فهب أمراء الأجناد يطالبون منصبه وكل منهم جمع أصحابه ليغالب عليه فاختر العاضد يوسف صلاح الدين ابن أخى أسد الدين وولاه الوزارة وخلع عليه مراسيمها ظاناً انه صغير

السن قليل الاختبار والدربة فيتمكن منه بما يريد ويستميل الجند ويخرجه من بلاده ويسترد استقلاله.

وطمع الفرنج في صلاح الدين وحاولوا امتلاك مصر فساروا إلى دمياط وحاصروها سنة ٥٦٥هـ وسنة ١١٦٩م فقاومهم صلاح الدين وأغار على بلادهم السامية وناوأ الكرك فخافوا العقبي وارتدوا على أعقابهم فاقتفاهم وكبس عسقلان والرملة ونهب ربض غزة وفتح فرضة أيلة "العقبة" ثم أرسل أخاه شمس الدولة إلى اليمن ففتحها وتوغل هو في السودان وضمه إلى مصر. فدبت الغيرة في صدر نور الدين وخشى أن يتفق صلاح الدين والفاطميّين ويخلعوا طاعته فطلب إليه أن يقطع خطبة العاضد ويخطب إلى المستضيّ العباسي ابتغاء جمع الكلمة فتزدد صلاح الدين قليلاً ثم أمر سنة ٥٦٧هـ وسنة ١١٧١م بلبس السواد شعار العباسيين وخطب في الجوامع للمستضيّ وقطع خطبة الفاطميّين فانقرضت الخلافة الفاطمية بعد أن دامت ٢٦١هـ سنة فلم تطب نفس نور الدين وخاف العقبي فاستوحش صلاح الدين وسعى ليبقي الفرنج حاجزاً بينهما وكم حاول نور الدين الاجتماع به فلم يتوفّق لأنه كان إذا ما اقترب منه قفل راجعاً إلى مصر متعللاً بالأعذار وظلا يراوغ أحدهما الآخر حتى توفي نور الدين واستخلف بعده ولده الملك الصالح إسماعيل فخطب له صلاح الدين وضرب السكة باسمه وتربص مترقباً حصول فتنة أو خلاف في بيت زنكي فلما حدث أسرع إلى دمشق وفتحها وهو يظهر الطاعة إلى الملك الصالح الذي كان يخاطبه بالملوك ثم فتح قلعة حمص وبعلك وحماه وغير ذلك.

وفى سنة ٥٧٣هـ سار صلاح الدين إلى ساحل الشام فوصل عسقلان
وبث السرايا للغارة والارهاب وانفرد بثلة قليلة من الجند فباغته الفرنج على
نهر روبين وفتكوا بجنده فرجع مخذولاً وأرسل إلى أخيه توران شاه يقول:

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر
نجونا من الموت الوحى غير مرة وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر

وفى سنة ٥٨٠هـ بنى الفرنج حصناً منيعاً بمخاضة الأحزان "جسر
بنات يعقوب قرب صفد" فعز على صلاح الدين فواقعهم وبعد معركة شديدة
أسر فيها حكام الرملة ونابلس وطبرية وجنين فتح الحصن وهدمه وكان فخر
هذا النصر إلى فرخشاه ابن أخى صلاح الدين الذى غشى الوغى وهو يتمثل

فان تكن الدولات قسماً فانها لمن يرد الموت الزؤام تؤول
ومن هوّن الدنيا على النفس ساعة وللبيض فى هام الكماة صليل

إن الحركات الحربية بين الصليبيين والوطنيين كانت تدور شرقى
القدس على الكرك والشوبك لأنهما فى طريق الحج وجسر اتصال بين الشام
والحجاز ومصر ومن جهة غربها على عسقلان لأنها محطة الارتباط بين مصر
ودمشق فمن كان يملك هذين المركزين كان يقطع المواصلات ويعيق الحركات
وقد أدرك الصليبيون مكانة هذه النقط فامتلكوها واحتفظوا بها وحصنوها
فحجزوا ما بين مصر والشام وضيقوا مجرى تنفسهما بل داخلهم الغرور
وطمعوا فى مهاجمة مكة والمدينة المقدستين للقضاء على الدين الإسلامى فسار
البرنس ارنا "رينو" Renaud صاحب الكرك إلى تيماء فى سنة ٥٧٧هـ وسنة

١١٨٢م مستطعاً فسمع بذلك عز الدين فرخشاه والى دمشق وسار مجدأ إلى الكرك فنهب بلادها وصد أرناط عن التقدم ولكن فى سنة ٥٧٨هـ نضجت فكرة فتح الحجاز فى دماغ البرنس ارناط وعزم على خضد شوكة المسلمين فعمل أسطولاً وجمع قطعه مفككة وحملها إلى بحر إيلة ثم ركبها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فى البحر الأحمر وحصر من فى إيلة ومخر من معه بحر عيذاب وأفسدوا السواحل فعرف الملك العادل وأمر قائد أسطوله لؤلؤاً بمطاردته فسار وبلغ إيلة وقتل من عليها وتبع من فى البحر بمراكبه وجنده فادركهم فى ساحل الجوزاء وأوقع بهم فاعتصموا بشعاب البر فأخذ خيلاً من الأعراب وأركبها جنده ومازال يقاتلهم حتى ظفر بهم وأسر منهم كثيراً ونحرهم وسار صلاح الدين من دمشق إلى طبريا فخيم فى الأقحوانه ونزل الفرنج طبريا فشد فرخشاه على بيسان وفتحها وغنم ما فيها ثم أغار على جنين واللجون ومرج عكا.

وعاود الكرة ثانية فغزا بيسان وخربها وأغار على الكرك لما صدر عنها نهب مدينة نابلس وأحرقها ونهب كل ما على طريقها ونهب سبسطية وجنين وفى سنة ٥٨٢هـ انحاز كونت "قُصص" طرابلس إلى صلاح الدين فوعده بالمناصرة وضمن له أن يجعله ملكاً مستقلاً وأطلق من عنده من أساءه. وقد طاش سهم البرنس أرناط فغدر بعهده بعد الهدنة وأغار على قافلة عظيمة كان فيها أخت صلاح الدين فنهبها وأسر رجالها. فغضبت الأفضل بن صلاح الدين وغزا بلاد عكا وحارب الأعداء فى قرية صفورية فكسرهم وقتل عدداً من شجعانهم ولكن جميع هذه المواقع مع الفرنج لم تكن سوى مناوشات ومقدمات

لمعركة فاصلة أما أن تكون له أو عليه.

(٥٣) معركة حطين(*)

رأى صلاح الدين أن الفرنج قد أسسوا أربع مقاطعات فى داخل مملكته: الأولى مقاطعة القدس والثانية طرابلس الشام والثالثة أنطاكية والرابعة الرها وارفأ وأن تلك المقاطعات كانت بؤرة ثورات وفساد فى قلب مملكته. وكان أشدهن تنكياً برجاله وأثقلهن عليه مقاطعة فلسطين وأعظم أبطاهم واعندهم البرنس أرناط صاحب الكرك الذى حاول احتلال الحجاز وتعرض لاخت صلاح الدين وكرر نكته للعهد مما أسخط المسلمين وأحفظهم على صلاح الدين فأطالوا ألسنتهم فوقوا إليه سهام السباب واللعن وقالوا ترك قتال الفرنج وأقبل على المسلمين يقاتلهم ويفتح بلادهم. فتحركت لذلك غيرة صلاح الدين واستفز الناس للجهاد وجمع جيشاً عرمرماً وعسكر فى سهل الأقحوانة واستشار قواده فأشار عليه بعضهم بترك مناضلة الأعداء والاكتفاء بشن الغارات وأشار عليه الآخرون بملاقاتهم ومناجزتهم فعزم على المناجزة والدخول مع الفرنج فى ملحمة كبرى فسار إلى طبرية وفتح المدينة دون القلعة وأحرق مافيها من الذخائر الفاضلة عن حاجته واحتفظ بمنايع المياه ولما أحس الفرنج بعمله استخفوا به وبجيشه وساروا إلى ملاقاته فى ٢ تموز الموافق ٢٤ ربيع الآخر فاشتد عليهم العطش من حمارة القيظ وتقابل الفريقان فى سهل قرية لوبيا وعزم الفرنج على ورود الماء فأدرك صلاح الدين مرادهم وصدهم

(*) قرية صغيرة واقعة فوق تل يشرف على غرب بحيرة طبريا.

عنه وأمر باحراق العشب والأشواك فأخذ منهم الظمأ كل مأخذ وحملوا حملات عنيفة كادوا يزيلون بها المسلمين لولا ثبات أبناء فلسطين الذين استماتوا في حومة الوغى حتى هب عليهم ريح النصر وكسروا الفرنج وركبوا أقفيتهم وطحنوا جيشهم حتى لم تقم لهم بعدها قائمة وتقدر قتلهم في حطين بثلاثين ألفاً خلا الأسرى فقد أُسر وكثير من أبطالهم منهم الملك (Guy) غاي ورنو "أرناط" صاحب الكرك وبعد أن فرغ المسلمون من القتال فائزين جلس صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج ورنو صاحب الكرك وأجلس الملك إلى يمينه وأعطاه ماءً مثلوجاً فشرب وأعطى فضله البرنس أرناط فغضب السلطان وقال للملك أن هذا الملعون لم يشرب باذني فينال أمانى ثم التفت إلى البرنس وذكره بذنوبه وعدد عليه عوراته وقام إليه بنفسه وضرب رقبتة وقال كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت به الأولى حينما أراد السير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القافلة غدراً ثم أمر به فسحب إلى خارج المكان وباسط الملك وأمنه.

كانت معركة حطين من المعارك الفاصلة التى ختمت بها الحروب الطويلة بين الشرق والغرب وجدير بأهل فلسطين أن يجعلوا يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ عيداً سنوياً وتذكاراً ورحياً عظيماً فإن فيه خضدت شوكة الجيش الصليبي وفلّ حده وقويت جهود الوطنيين وانتعشت نفوسهم فعادوا إلى طبريا وتسلموا قلعتها من زوجة صاحبها أماناً ووفى لها صلاح الدين ثم سار إلى عكا وامتلكها وجاء الملك العادل من مصر وفتح حصن مجدل يابا "مجلد الصادق" ويافا وساحت عساكر السلطان فى البلاد

ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا فالشقيف وغيرها من البلاد المجاورة ثم سبسطية ونابلس واجتمع عسكر الملك صلاح الدين بجنود أخيه العادل وساروا إلى عسقلان وفتحوها وبثوا السرايا فى أطراف البلاد المجاورة ففتحوا الرملة واللد وغزة والخليل وبينه وبين لحم وبيت جبرين. وأمر قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤاً أن يقطع طريق البحر ويتصيد مراكب العدو ويمنعها أن ترسو على سواحل البلاد وأرسل رسلاً لمفاوضة أهل القدس كى يسلموا المدينة فرفضوا فنهد إليهم بجنده وخيم على النكفورية بين المخططة وبركة ماملا وظل خمسة أيام يطوف حولها لينظر أى الجهات أسهل للمهاجمة ثم انتقل بجيشه إلى الشمال الغربى جهة المسكوبية وباب العمود وباب الساهرة وشدّد الحصار فسلمت المدينة يوم الجمعة فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ وفى ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧م على شروط منها:

أن يؤخذ عن كل رجل ١٠ دنانير والمرأة خمسة والولد دينارين فدية ومن لم يدفع حتى أربعين يوماً يصبح مملوكاً للعرب فبذل باليان عن فقراء قومه ثلاثين ألف دينار ووضع صلاح الدين على أبواب البلدة أمناء ليأخذوا ما ضرب على الفرنج وأظهر من العدل والعظمة ما شهد له به الأعداء فسمح لنساء المملوك والأميرات بحشمهن وخدمهن ولم يأخذ من البطريق إلا عشرة دنانير ولم يشره إلى ما كان معه من الأموال والذخائر وعامل نصارى العرب معاملة حسنة وترك لهم أموالهم وأملاكهم وسمح لهم أن يشتروا متاع الأفرنج وقد وهب لمظفر الدين كوكبورى ألف مملوك من الفرنج فأعتقهم ووهب أيضاً لأخيه العادل ولكثير من الأمراء أمثال ذلك ووزع الأموال والدواب على

الضعفاء ورفق بالفقراء فسمح لهم بالخروج من باب العمود وأرسل معهم جنوداً لا يصالهم إلى المدن التي كانت لا تزال في أيديهم فأنكرهم أخوانهم وأبوا قبولهم وأغلقوا الأبواب في وجوههم وأرسلوا خلفهم من نهب متاعهم. فتأهوا في الفياقي وتتنوا في أنحاء البلاد فرثى لهم عدوهم العربي ورحمهم وأغلظ لهم صديقهم الغربي وجفاهم مشايعهم الأفرنجي ولو أنا قابلنا هذا العمل بما أتاه الفرنج قبل ٨٨ سنة لرأينا الأخلاق والإنسانية والمكارم وعزة الملك وكبر النفس جليلة في أعمال صلاح الدين وشهدنا القساوة والفظاعة والتوحش والتعصب واضحاً في أفعال غودفري الذي قضى على ألوف من المسلمين.

أكمل صلاح الدين الأيوبي عمله وشرع ينظم المدينة فأزال كل أثر صليبي في الصخرة والمسجد الأقصى وكسر الصور والتمائيل الصغيرة والصلبان التي نقشوها ونقل إلى المسجد الأقصى المنبر الذي أمر بصنعه نور الدين زنكي في جلب وبالع في اتقانه فاستغرق عمله عدة سنوات، وكان بين صنعه ونقله إلى القدس ٢٠ سنة وأمر بعمارة المسجد الأقصى وتحسينه وترصيفه بالفسيفساء والرخام وغير ذلك مما يحتاج إليه وجعل كنيسة القديسة حنة مدرسة للشافعية "الصلاحية" وأخذ قسماً من منزل البطريك وحوله إلى جامع وخانقاه للصوفية "الخانكي". وفي سنة ٥٨٤هـ فتح الملك العادل قلعة الكرك والشوبك وسار صلاح الدين إلى صفد فامتلكها وذهب من فيها إلى صور وفتح حصن كوكب بعد عناء والتحق فرنجه بصور حتى غصت بالمهاجرين وانقلب أفراط صلاح الدين وتساهله مع الفرنج وبالأعلى عليه حتى

قال ابن الأثير "لم يكن لأحد ذنب في أمر صور غير صلاح الدين فإنه هو الذى جهز إليها جنود الفرنج وأمدّهم بالرجال والأموال من أهل عكا والقدس وعسقلان" فأصبحت مركزاً لحملاتهم ونجداتهم ولكن سورية ومصر أصبحت متصلة بعضها ببعض لا يفصلهما تخم ولا يحجز بينهما عدو.

(٥٤) الحملة الصليبية الثالثة

كان العالم الاسلامى يظن أن الحروب الصليبية قد انتهت ولم يدران وقوع القدس فى يد صلاح الدين أحدث تأثيراً عظيماً وصدى سيئاً فى نفوس الغربيين فقام منهم رجال كثيرون وحرصوا قومهم على استرجاع القدس وانتزاعها من أيدي المسلمين فنجحوا وأجمعت أمم أوروبا وحكوماتها ثانية على محاربة الشرق الأدنى وإعلان النفير العام لاسترجاع القدس فهب ركاردرس البطل الشهير الملقب بقلب الأسد وترك عرشه فى انكلترا رغبة فى انقاذ بيت المقدس ونهد امبارطور المانيا ببروسا "ذو اللحية الحمراء" وآزرهما فيليب أوغسطس ملك فرنسا ففرق ملك الألمان فى نهر سالون قرب أنطاكية ورجع فيليب إلى فرنسا بعد فتح عكا وقام بالمهمة قلب الأسد.

تكاثرت جموع الفرنج فى صور فتحمسوا وجددوا نشاطهم واضطربت النار بغتة فى صدورهم فساروا بجموعهم إلى عكا فخف لصددهم صلاح الدين فسبقوه لأنه كان وقتئذ موعوكاً فمرّ بكفر كنا وخيم على تل كيسان وامتدت ميمنته إلى تل العياضية وميسرته إلى نهر المقطع وأنزل الأثقال فى قرية صفورية واستعرت الحرب بين الفريقين وحدثت موقعة طاحنة انهزم

ففيها قسم من الوطنيين وفاز الباقون وظفروا بعدوهم ثم انتكست صحة صلاح الدين فرحل إلى الخروبة "تل الفخار" حيث توفي أحد قواده ضياء الدين عيسى الهكاري العلمي الحسني فنقل إلى القدس ولما أبلّ صلاح الدين عاد إلى مخيمه القديم "تل كيسان" فوجد الفرنج يجدون في حصار عكا وقد احتاطت بها أبراجهم فاخترع على ابن عريف النحاسين الدمشقي نفطاً أحرق به الأبراج الثلاثة فاطمأن السلطان ورجع إلى الخروبة ونقل أثقال المسلمين إلى قرية الدامون "ميمون" الواقعة على بعد ٣ فراسخ من الخروبة وقد ذكر ابن الأثير أن نصارى العرب كانوا مأموري إعاشة جيش صلاح الدين وخزنة أمواله وكان مركزهم في مدينة حيفا وظل الحرب سجلاً إلى أن قدم فيليب ملك فرنسا فجد في قتال مسلمي عكا وشدد في حصارهم فكان صلاح الدين يركب يومياً من شفا عمرو ويشاغلهم بالقتال ليفرج عن البلد فلما أتى قلب الأسد تحول صلاح الدين ونزل عليهم لئلا يتعب عسكره من الغدو والرواح وفي ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ استولى الفرنج على عكا مسلماً بشروط غدروا ولم يفوا بها وانحدر قلب الأسد جنوباً وعسكر صلاح الدين يحاذيهم من جهة الشرق فالتقوا في مدينة أرسوف "على مقربة من حرم على بن عليم" واضطربوا فهزم جيش المسلمين وأخذ الفرنج يفتحون البلاد الصغيرة حتى أنهم دخلوا يافا ولم يجدوا فيها أحداً. أما صلاح الدين فانه استشار قواده في شأن عسقلان فقرروا هدمها لمكانة موقعها الحرب ولعجزهم عن حمايتها ولأن من يستولى عليها يستطيع أن يقطع الطريق من مصر ودمشق وقد ذكرنا سابقاً أن صلاح الدين كان يرسل نجداته وجيوشه عن طريق البادية

خيفة هجمات الحصون الساحلية فهدم صلاح الدين مدينة عسقلان وباع أهلها كل ١٢ دجاجة بدرهم وانقلب إلى الرملة فحرب حصنها وهدم قسماً من اللد وخرب قلعة الأطرون فأخذ المريكز كونراد قلب الأسد على تمكين أعدائه من هدم وتخريب عسقلان ولكن قلب الأسد لم يعبأ بتقريعه ومال إلى عقد هدنة وفاوض الملك العادل وكان يدخل معسكر المسلمين ويطرب إلى موسيقى العرب ويعجب بنغماتها وبعد المذكرات اتفقا على شروط وهى:

أن يتزوج الملك العادل أخت قلب الأسد أرملة ملك صقلية وتكون القدس وما فى أيدي المسلمين من بلاد الساحل للملك العادل وعكاً وما فى أيدي الفرنج من البلاد لأخت قلب الأسد مضافاً إلى إقطاعها فى بلادها وواقق على ذلك صلاح الدين إلا أن القيسيين والأساقفة حالوا بين ذلك ومنعوه فانقطعت المفاوضات وعادت البلاد إلى الحرب فهاجز صلاح الدين الفرنج حتى الشتاء ثم انسحب إلى القدس فتبعوه إلى الأطرون ففزع منهم وأمر بعمارة سور بيت المقدس وتجديد ما رث منه وكان ينقل الحجارة بنفسه مع العمال وأحكم إخل الذى ملك منه البلد وأتقنه وقوّاه وأمر بحفر خندق خارج السور وسلم كل برج إلى أمير فرجع الصليبيون إلى الرملة ومضوا إلى عسقلان وشرعوا فى عمارتها لما لها من المركز الحربى والتجارى.

وفى سنة ٥٨٨هـ استولى الفرنج على حصن الداروم^(٣) ورجعوا إلى قرية بيت نوبة ومنها إلى قلونية فردتهم سرايا المسلمين فأغاروا على قافلة بجوار

(٣) بين غزة والعريش ونظنه ثل العجول وفى جنوب غزة محل يدعى باب الداروم يؤدى إلى ذلك التل الذى يبعد فرسخاً عن البحر كما ذكر.

الخليل وأوقعوا بها ونهبوها. فغضب لذلك صلاح الدين وحاصر يافا وملك المدينة دون القلعة ثم تركها وعاد إلى الرملة وفي شهر شعبان الموافق لشهر أيلول من السنة المذكورة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة على شروط منها:

١- أن تظل عسقلان خراباً وتبقى أملاك صلاح الدين في يده وأملاك الفرنج في أيديهم وهي يافا وقيسارية وارسوف وحيفا وعكا واعمالها جميعاً أما اللد والرملة فتبقى "مناصفة" مشتركة بين الفريقين.

٢- وأن تكون الهدنة ٣ سنين و ٨ شهور.

٣- وألا يتعرض الصليبيون لبيت المقدس.

٤- وأن يسمح صلاح الدين لزوار الفرنج بدخول القدس فأتى الزوار إليها وزاروها فعلاً وسمى هذا الصلح "صلح الرملة" وبعد انعقاد الهدنة رحل قلب الأسد إلى عكا ومنها إلى انكلترا فتفقد صلاح الدين القلاع والحصون ثم ذهب إلى دمشق بعد أن أناب على القدس الأمير جورديك ولكن فاجأته المنية في صفر سنة ٥٨٩هـ الموافق شهر شباط سنة ١١٩٣م فدفن في القلعة ثم نقل إلى جوار الجامع الأموي وقبره مشهور ولا بد هنا من أن نذكر صفحة من حسنات هذا البطل العظيم والقائد الكبير فنقول:

إنه وإن كان صلاح الدين كردياً(*) فإنه كان من عظماء رجال الإسلام

(*) ذهب كثير من المؤرخين أن بعض القبائل العربية نزلت إلى بلاد الأكراد فامتزجت بالقبائل الكردية ويرجعون بنسب صلاح الدين إلى الحسن بن علي بن أبي طالب.

وقد خدم العرب خدمات جليلة وأظهر من محاسن الشيم ما خلد ذكره فمنها:

- ١ - معاملته الحسنة الصليبي بيت المقدس مع أنهم من ألد أعدائه.
- ٢ - ملاطفة أسرى حطين وتقديم الماء المثلوج إلى الملك.
- ٣ - اكرام وفادة أرملة رنو صاحب الكرك لما جاءت تطلب ابنها.
- ٤ - حفظه للعهود واستكباره غدر الفرنج ونكثهم بها وعفوه عمن أراد قتله. إلا أنه كان مفرطاً في الحلم وكل شئ تجاوز حده انقلب إلى ضده فإن قواده طمعوا فيه وأخذوا يخالفون أمره.

إن صلاح الدين لم يكن قائداً فقط بل كان رجل أخلاق ودين يغار على الإسلام ويدافع عنه بكل غيرة وإخلاص فقد جمع كلمة المسلمين المتفرقة وألف بين قلوبهم وأخرج الأجانب من ديارهم وأباد الفاطميين وأيد كلمة العباسيين وبنى المدارس والرباطات ومات ولم يترك في خزنته سوى دينار وأربعين درهماً فمن للشرق اليوم بمثل هذا البطل العظيم ينهض به من كبوته وينقذ أهله من براثن الموت والشقاء؟

(٥٥) صلاح الدين ومواسم فلسطين وشئ عن القبائل

فتح الفرنج البلاد فأخذوا يظلمون العرب مسلميهم ومسيحيهم فنزح بعضهم إلى الأقطار العربية الخارجة عن سلطة الفرنج فلما استجاش صلاح الدين الملوك والأمراء والقبائل وصدم الفرنج في وقعة حطين وأزاحهم عن البلاد شغرت أكثر مدن فلسطين فأسكنها القبائل وأقطعها لهم فتوطن القدس

موقتاً قبائل بنى حارث وكانت منازلهم خارج المدينة عند القلعة وحارة بنى مرة من جهة العرب الشمالي إلى سوق الفخر "خان الزيت" وحارة السعدية لبني سعد^(*) ويلى عقبة الشيوخ من جهة الشمال حارة بنى زيد وحارة الجرامنة سوق القطانين ثم وزعهم على البلدان التى حول القدس فأخذ بنى زيد ٩ قرية شمال رام الله وألحق بهم بنى مرة وهم ثمانى قرى وبني سالم وهم فى أربع قرى وعهد إليهم بحماية برج مجدل يابا "مجدل الصادق" وماء نهر الأعوج والطريق بين القدس و نابلس. وأنشأ لهم موسماً فى مقام النبى صالح يقام فى جمعة زفة البياق "الجمعة الحزينة" فى القدس وأعطى بنى حارث ١٧ قرية جنوب بنى زيد وعمل لهم موسماً فى النبى عنبر يوم الجمعة المذكورة واختص الأمراء الجرامنة بساحل يافا والعرق ووادي الصرار وبني عمير وأخذ بنى حمار ١١ قرية وجعل لهم جميعهم موسى النبى صالح فى الرملة وأخذ بنى صعب ٢٨ قرية وألحق بهم الشعراوية وعين لهم موسماً فى أبى العون وعلى بن عليم ثم تحول زمانه واختلف عن المواسم الأخرى وأنشأ بغزة موسم الداروم وعمل إلى بدو غزة موسم المنطار وإلى بدو عسقلان وأطرافها موسم الحسين وعين إلى عرب المساعيد والمشالخة والصقر موسم أبى عبيدة بن الجراح وجعلها جميعها تابعة لموسم النبى موسى الذى جمع له بنى مالك وهم ٢٤ قرية وبني حسن وهم ١٣ قرية وجبل القدس وهم ٢٢ قرية والوادية وهم ٩ قرى وعززهم بجبل الخليل وجبل نابلس الذين يردون متعاقبين إلى القدس. وتتوافد قبائل

(*) منهم دار نجم وغيرهم كان لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه فى يدهم وكان لهم مفاضة فى حبيهم.

شرقى الأردن إلى مشهد النبی موسى فتصادف جميع هذه المواسم عيد الفصح الذى يأتى فيه الأوروبيون لزيارة القدس فتكون آنذاك الأهالى فى نفيـر عام قد تجمـهروا فى شعبان أخذ عسكر نبى صالح بنى زيد ونبى عنبر بنى حارث ونبى صالح الرملـة وروبين يافا وحسين عسقلان ومنطار العريان وداروم غزة وأبى العون بنى صعب وأبى عبـدة الغور ونبى موسى القدس مستعدين بسلاحهم وذخائرهم ومؤونتهم لمفاجأة الطواريى فإذا ما حدث فتق فزعوا لرتقه لأن السلطان صلاح الدين ألف من غدر الصليبيين ونكثهم بالعهود ما جعله يحتاط ويخشى أن هم دخلوا القدس زواراً ينقلبون جنوداً ويحتلون المدينة ويمتلكونها سلماً فأنشأ هذه المواسم موافقة لأيام عيدهم لتكون القدس حينئذ غاصة بأهالى الخليل ونابلس المجاورة وتكون البلاد كأنها ثكنة عسكرية متأهبة لرد كل غارة ودفع كل عداء. وبهذا العمل استطاع أن يأمن غدر الأجانب ويعصم البلاد من التعديات المتكررة ولما جاء الملك الظاهر بـيبرس ومن خلفه من الملوك استحسنوا رأيه ونظموا هذا العمل وهو نظر بعيد وفكر صائب يستحق عليه الشكر الجزيل والثناء الخالد لأنه عيد استقلال البلاد وذكرى خلاصها. وجدير بالأمة أن تستفيد من هذه المواسم الوطنية فوائـد اقتصادية واجتماعية.

(٥٦) فلسطين والدولة الأيوبية سنة ٥٩٠هـ - ٦٤٨هـ وسنة ١١٩٣م

- ١٢٥٠م.

أسست الدولة الأيوبية على عظمة صلاح الدين ودفنت بـدفنه لأنه ألف بين عدة خيوط غير مؤتلفة ولا متفقة فانتقضت من بعده وقد أحس

صلاح الدين بهذا الخطر الذى يتهدد دولته فجمع القواد وانعسك غير مره وأخذ عليهم عهد الطاعة لولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين واقطعه دمشق والساحل وبيت المقدس وبلبك وصرخد وبصرى وبانياس وسورية الغربية فلما توفي صلاح الدين انتكث الغزل وانتشرت جماعاته افراداً وطمع بعضهم ببعض ونسوا عدوهم الغريب فاستقل الملك الظاهر فى حلب وسورية الشمالية وربض الملك العزيز فى مصر واستولى عليها وطمع الملك العادل أخو صلاح الدين فى الكرك والشوبك واحتمى بهما. فأصبحت فلسطين بهذا التقسيم موزعة بين ثلاثة دول الملك الأفضل والملك العادل والفرنج ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً لأن الملك العادل ولع بإغراء بنى أخيه على بعضهم بعضاً وأنساهم عهد صلاح الدين إلى الأفضل ومناهم بالملك فتشوف كل منهم إلى حصر السلطة فى يده والقضاء على ما سواه.

فتنبه لذلك الملك الظاهر وقال للأفضل "أخرج عمنا من بيننا فانه لا يجيى علينا منه خير ونحن ندخل لك تحت كل ماتريد" فرفض الأفضل وظل منصاعاً لدسائس الملك العادل فحقن العزيز وسار إلى دمشق وحصر الأفضل بها فاستنجد عمه العادل واستحثه فأثاه بجند كثيف وترددت بينهم الرسل على أن يضم إلى العزيز القدس وما جاورهم فرضى وقفل راجعاً ولكنه عاد إليها ثانية فلم يحل بطائل. ثم اتفق الأفضل والعادل على فتح مر وضمها للأفضل مع دمشق فسارا وملكا القدس من واليها سنقر الكبير وجاسوا بلاد مصر فانقلب العادل عن الأفضل ونكث عهده. ومالاً العزيز سراً وتوسط فى الصلح على أن تظل البلاد كما كانت بشرط أن يقيم هو فى مصر فنجح

وبعدئذ اقنع العزيز وراوده على فتح دمشق واستخلاصها من الأفضل ففعلاً
وأخذها منه وعوضاه قلعة صرخد فاستوطنها وشكا أمره إلى الخليفة الناصر
فقال:

مولاي أن أبا بكر وصاحبه عثمان قد أخذ بالظلم حق على
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأول
فأجابه الناصر:

غضبوا علياً حقه إذا لم يكن بعد النبي له يثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم وأبشر فناصرك الإمام الناصر
فلما رأى الصليبيون الخلاف مستحكماً بين العرب هاجمهم

فناهضهم العادل وخيم على عين جالوت "بين جنين وبيسان" ثم رحل
إلى يافا وملكها. وبعد أن توفي الملك لعزير سنة ٥٩٦هـ ولى الأفضل الديار
المصرية فخافه الأمير جركس "جهاركس" وفر إلى بيت المقدس وتغلب عليها
ثم انضم إليه ميمون^(٣) القصري حاكم نابلس فقويت شوكته وأرسلوا إلى
العادل فجاء وأخذ البلاد من الأفضل وعوضه ميافارقين وبلاداً أخرى ولكنه لم
يسلمها له.

وفي سنة ٥٩٧هـ حدث زلزال هدم قسماً من عكا ونابلس وفي سنة
٦٠٠هـ تحرك الفرنج ونهبوا قرى الأردن فنهض إليهم العادل وعسكر قرب

(٣) المنتسبة إليه المدرسة "المأمونية"

جبل طور الناصرة ثم عقدوا معاهدة على ما يأتى..

أن يأخذ الفرنج الناصرة ويأفا يتنازل العادل لهم عن البلاد المشتركة
بنيها كاللد والرملة وغيرهما..

ثم فى سنة ٦٠٩هـ خربَ الملك العادل حصن كوكب "قرب طبريا"
ومحا أثره وبنى حصناً على جبل الطور ثم خربه الملك المعظم سنة ٦١٤هـ مخافة
أن يملكه الفرنج لأنهم ثاروا وملكوا بيسان وعاثوا فى البلاد ثم توفى العادل
بعد أن قسم البلاد بين أولاده فجعل الملك الكامل على مصر والملك المعظم
على جميع سورية فسار الملك المعظم وهدم أسوار القدس لعجزه عن حمايتها
وخوفه أن يحتلها الفرنج ويمتنعوا بها وعمل أبواب الخشب التى على باب
المسجد وأوقف لمسجد الخليل حاصلات قريتي دوره وكفر البريك. وفى سنة
٦٢٥هـ سار الملك الكامل بعد وفاة أخيه المعظم وامتلك القدس ونابلس ثم
تأخر إلى تل العجول^(*) مشاقاً لآخوانه فقابله الملك الأشرف وحذره عاقبة
الخلاف فرضى ولكن نفسه كان تحدّثه بامتلاك جميع البلاد غير ملتفت إلى
النجداث والحملات الصليبية المتعاقبة التى حاولت استرجاع القدس ولم تفلح.
فلما استحکم الخلاف وأعلنت المشاجرة بين أبناء العادل تسابقوا إلى مرضاة
الفرنج ابتغاء التفرغ إلى بعضهم البعض فجاء فريدريك امبراطور المانيا سنة
٦٢٦هـ ١٢٢٩م وعقد معه الكامل هدنة على هذه الشروط:

(*) تل يبعد إلى الجنوب من غزة ١٥ كيلو متر تقريباً وربما كان حصن الداروم.

١ - أن يسلم إلى الفرنج بيت المقدس مع بضع ملحقاتها بشرط ألا يعمرورا
السور الذى خربه الملك المعظم ولا يتصدوا لقبة الصخرة ولا للجامع
الأقصى.

٢ - أن تظل "الرساتيق" الخليل ونابلس وطبريا والغور فى يد المسلمين.

فتم هذا الاحتلال السلمى الذى لم يصادف قبولاً من الفرنج لأن
الامبراطور فريدريك كان محروماً من البابا وغضب المسلمين على الكامل لأنه
سلم القدس للفرنج بلا داع يستند عليه إلا ليتقوى بهم على إخوانه وأبناء
عمه. وفى سنة ٦٣٥هـ توفى الملك الأشرف ملك دمشق وعهد بها إلى أخيه
الملك الصالح إسماعيل. وفى سنة ٦٣٦هـ أعطى الصالح أيوب سنجار والرقعة
إلى الملك الجواد وأخذ منه دمشق فطمع بمصر وسار بعساكره ليأخذها فغدره
الملك الصالح إسماعيل والملك المجاهد "صاحب حمص" وهجما على دمشق
وأخذها فلما بلغ الصالح أيوب الخبر وهو بالغور تفرق عنه جنوده فقصده
نابلس ونزل بها فسار إليه الملك الناصر صاحب الكرك وأمسكه فاعتقله فى
الكرك وأكرمه ثم جاء القدس فحصرها وفتحها وخرب قلعتها التى بناها
الفرنج وخرب برج داود وعاهد الصالح أيوب وتحالفا على الصخرة بأن
تكون مصر للصالح وسورية للناصر إذا هما امتلكاهما فتوجها إلى مصر
وفتحاها فنخاف الصالح إسماعيل وسلم الفرنج سنة ٦٣٨هـ صفد والشقيف
وفى سنة ٦٤١هـ اتفق الصالح إسماعيل والناصر داود مع الفرنج واعتصدا
بهم وسلما إليهم طبريا وعسقلان فعمروا قلعتيهما ثم أباحا لهم القدس

فغضب الصالح أيوب واستدعى الخوارزميين المنتهزمين من وجه المغول
وجنكيزخان.

(٥٧) الخوارزمية

ينتسب هؤلاء القوم إلى بلاد خوارزم شرقى بحر قزوين وهم تتر كانوا
أصحاب حكومة ودولة فلما طم عليهم سيل المغول وأباد حكومتهم ساحوا
فى البلاد يقتلون وينهبون كل من اعترض طريقهم بلا تفريق بين دين ومذهب
وصدف إن كان الناس فوضى قد انقسموا على أنفسهم وتفرقت كلمتهم
فأصبح كل زعيم لايهمه سوى الاستئثار بالسلطة ولو بهدم أهله وذويه
فمصلحته الشخصية فوق كل شئ إذا زاحم قريبه استعان عليه بعدوهم الذى
يجهر عليه بعد القضاء على ابن عمه فيكون بذلك كالباحث عن حتفه بظلفه
قد طعن نفسه وهدم عشيرته وأهله الأقربين بمعول حب الذات والنفوذ.

ظل جنكيز خان المغولى يدحرج الخوارزميين وهم ينحرون أمامه ولم
يعقبوا حتى إذا وصلوا العراق جمعوا فلولهم ونظموا صفوفهم وأخذوا
يتوسلون إلى الملك الصالح أيوب بقربى الدين لظنهم أنه أقوى الملوك
فاستدعاهم اليه لمحاربة الفرنج وبنى عمه فاتفقوا معه على شرط أن يقطعهم
الاقطاعات ويسكنهم البلدان فساروا إلى غزة سنة ٦٤٢ هـ وانضموا إلى أمير
العساكر المصرية وقاتلوا الفرنج وعسكر الشام بظاهر غزة فهزموهم واستولى
الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل وفتح القدس وقطع رؤوس الكهنة
ونحرّب القبر المقدس وألقى الرعب فى قلوب الأهلين.

ثم بدر الصالح إلى دمشق وحاصرها. وفي سنة ٦٤٣هـ فتحها وخاس بعهد مع الخوارزميين فنقموا عليه وحالفوا الملك الصالح اسماعيل عم الصالح أيوب وانضم إليهم أمراء المصريين والملك الناصر داود صاحب الكرك وحاصروا دمشق فقلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة ولكن واليها حسام الدين قام في حفظها خير قيام فانخذل المتحالفون ورُدوا على أعقابهم خاسرين فهاجم الصالح أيوب شرقي الأردن واستولى على مدنه وتسلم الكرك سنة ٦٤٧هـ وفي سنة ٦٤٥هـ استعاد المسلمون عسقلان وطبريا من الفرنج فتحمس أهالي أوروبا وجردوا حملة صليبية سنة ١٢٤٨م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا فعرجت على مصر وحاصرت دمياط فغلبهم المصريون وشتوا شملهم ففروا أكثرهم إلى فرنسا والبعض الآخر إلى عكا ومكث لويس ملك فرنسا ٤ سنوات في فلسطين وهو يحصن قيسارية ويافا مخافة أن يأخذها منه الوطنيون ولم تحدّثه نفسه بمهاجمة القدس وأخيراً رجع إلى فرنسا مخذولاً ولم يقيم للصليبيين بعد ذلك قائمة لأنهم مكثوا في البلاد أذلاء غرباء ضعفاء حتى سنة ١٢٩١م وسنة ٦٩٠هـ فسلموا عكا وصور وصيدا وبيروت وعثليت وانطردوس وتركوا فلسطين وودعوها الوداع الأخير بعد ن دامت حروبهم قرنين وهم القوم الأشداء البواسل الذين عضدتهم أمم أوروبا أجمع فلم يظفروا بما أملوا وظلت البلاد عربية وانتهت روايتهم بالخسران.

(٥٨) أضرار الحروب الصليبية بفلسطين وفوائدها

هل أفادت الحروب الصليبية فلسطين أو اضررتها؟

ليس من السهل الجواب على هذا السؤال لأنه يفتقر إلى تفصيل ولكننا نجمل البحث فنقول:

تضرر الشرق عامة وأهل سورية وفلسطين خاصة بالحروب الصليبية أكثر مما استفادوا ولكن الفرنج جنوا منها نفعاً أرجح من أضرارهم. وهذه نبذة من مضارها الجسيمة ..

١ - أنها أشعلت نار التعصب الدينى بين المسلمين والمسيحيين وزرعت النفور بين الأهالى ونظن أن مداخله الفرنج فى أحوال سورية وفلسطين اضررت ببعض المسيحيين الوطنيين فأفسدت عقيدتهم الوطنية ومنتهم بأحلام جميلة فإذا هى سراب. وقد رأوا بأم أعينهم أن مسلمى العرب قد أحسنوا ورفقوا بمسيحيي العرب فى حين أن الفرنج قد أساءوا إليهم وأنكروهم.

٢ - أن هذه الحروب الطاحنة أضعفت روح القومية العربية فى نفوس نصارى الشرق وزادوا ولاءً لبنى دينهم الأجانب وأكرم بنصارى فلسطين العرب الذين حافظوا على جنسيتهم ولغتهم ونبذوا التعصب الدينى وراءهم ظهرياً ولزموا إخوانهم مسلمي العرب وأثبتوا أنهم من أبناء غسان وطي وتغلب الذين هم من صميم العرب.

٣ - فظاعة الحرب وسفك الدماء وتخريب البلدان والمدن وقطع الأشجار وتعطيل الأرض وانتشار الوباء وهدم المنافع العمرانية وبعبارة أخرى القضاء المبرم على الحركة الاقتصادية ولذلك ارتفعت أسعار الحاجيات ستة أضعاف ما كانت عليه سابقاً.

٤ - تلطيخ الدين المسيحى والازدراء بتعاليمه ومبادئه لأن مسيحيي الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم. وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين تقيّدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الانسانية أكثر من الفرنج الناكثي العهود والقاتلي الأسرى والذين أفحشوا في سفك الدماء لما دخلوا القدس وحقروا الديانة المسيحية في مهدها ولكنهم ذهبوا وخلفوا بقايا كثيرة من جنسهم مما سنوضحه في تاريخ قبائل وأسر فلسطين. فبعض الألقاب الموجودة في بيت لحم والناصره والقدس وبيت جالا وغزة ويافا تدل على أن حاملها ليسوا عربا ولكن اصطبغوا وطبخوا في معمل العربية وتزوجوا بنساء شقيقات عربيات وتوطنوا في البلاد واندغموا في أهلها وكذلك يوجد قبيلة بدوية خلف الجوف تدعى "صليبة" شقر الوجوه لايتزوج العرب منهم ويدعون أن أصلهم صليبين كما ورد في تاريخ سينا والمقتطف.

أما الآثار الصليبية فلم يبق إلا قليلها: منها كنيسة الصلاحية وبقايا كنيسة البيرة والدير في الرملة وحصن عثليت وقلاع صفد وطبرية والشوبك والكرك. ولم يؤثر على لغة السكان ولهجتهم بل ظل العرب عرباً يخاطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة انترجمة ولم يتعلم أحد الفريقين لغة الآخر لما بينهما من سابق العداوة المتأصلة فكان إذا تغلب فريق على مدينة نزع عنها الآخرون ولكن لما طال بهم الأمد امتزجوا قليلاً فخف الكره والبغض كما ورد في رحلة ابن جبير الأندلسي ومما قاله عن مدينة بانياس أثناء زيارته لسورية:

"هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهي صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يفضى إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للفرنج يسمى "هونين" بين الفرنج والمسلمين ولهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ويتشاطرون الغلة على السواء ومواشيها مختلطة ولا حيف يجرى بينهم .. إلخ. ثم جاء إلى تبين فى عجلون حيث يقدمون فيه والضرائب "جهارك" فقال والضريبة دينار وقيراط سورية ولا اعتراض على التاجر ثم مرّ بضياح كثيرة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون يؤدون للفرنج نصف غلتهم وديناراً وخمسة قراريط جزية على كل رأس ونزل بضیعة من ضیاع عكا الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الفرنج فأضاف القافلة ضيافة حافلة وزار مدينة عكا ونزل بالخان ووصف كتاب الفرنج والسفن والمرفأ ومركزها التجارى وكثرة سكانها ثم ذهب إلى صور ومنها إلى الأندلس.

أما ابن بطوطة فجاء إلى فلسطين بعد ختام الحروب الصليبية من مصر عن طريق الساحل فقال أنه قدم قطية حيث تؤخذ فيها الزكاة وتفتش أمتعة التجار "جهرك" وهناك كتاب ومجاها كل يوم ألف دينار ذهب ثم جاء غزة فوصف عمارتها وأسواقها ومساجدها وعلماءها ومنها عطف على خليل الرحمن فقال أنها مدينة صغيرة الساحة وذكر مسجدها وموقعها الطبيعى وعرج على تربة يونس عليه السلام ثم زار بيت لحم وقال أنهم يضيفون الغرباء وأتى القدس فوصف قبة الصخرة ودهش بها وذكر فضلاء القدس وعلماءها وروى أن الأمير سيف الدين تنكيز حاكم دمشق جر الماء إلى القدس وسافر

ابن بطوطة إلى عسقلان فوجدها خراباً بيباً [ولا ندري لماذا لم يزر عسقلان لما كان في غزة] ثم سافر إلى الرملة فقال أنها كثيرة الخيرات حسنة الأسواق وبها الجامع الأبيض وذكر بعض علمائها منهم مجد الدين النابلسي. ثم خرج منها إلى نابلس وقال أنها مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً ومنها يحمل الزيت والصابون إلى دمشق الشام وبها تصنع حلواء الخروب ثم ذهب منها إلى عجلون فوصفها واجتاز غور أبي عبيدة ومر بمدينة عكا ومنها إلى صور فمكث في سورية مدة ورجع إلى زيارة الحجاز فركب بصحبة الأمير محمد بن رافع شيخ قبيلة العجارمة فمر بذراعاه ثم بصرى وزياء "جيزة" واللجوم وحصن الكرك ووصفه وبالغ في مناعته.

(٥٩) فرسان مار يوحنا "الاستاليون"

أسس الصليبيون هذه الفرقة وألفوها لتمرير الجرحى والمرضى وخدمة الانسانية البحتة "كالصليب الأحمر" فأتخذوا اسمة خاصة وهي رسم صليب ذي ثمانى نقط على جنب لباسهم الأيسر وجعلوا دير مار يوحنا فى سوق افيميموس جنوب كنيسة القيامة مستشفى لموآساة الضعفاء ثم تغيرت مهمتهم أثناء الحروب وأصبحت عسكرية محضة حتى أنهم كانوا أشد الجنود الصليبية على صلاح الدين وأكثرهم نكاية بجنده وأثبتهم امامه ولما خرج الفرنج من القدس تحولوا إلى صور ثم إلى عكا وهناك استماتوا فى الدفاع عن الصليبيين ولكنهم جلوا وسكنوا جزيرة رودس حتى أخذها منهم العثمانيون فنزحوا إلى مالطة ولايزال منهم جماعة تمثلهم وتحى ذكرهم فانهم أنشأوا فى

القدس مستشفى عيون فى البقعة واقعاً بين بركة السلطان والمخطة ولا أحد ينكر ما له من الخدمات والأيدى البيضاء على سكان البلاد بمعالجة عيونهم مداواتها ويؤمه فى عهدنا هذا ألوف من الناس للاستشفاء. ولهم أيضاً مضافة (Hospice) فى آخر شارع الخانقي بالقرب من سوق خان الزيت.

(٦٠) فرسان الهيكل

تألفت فرق صغيرة أخرى غير فرسان مار يوحنا أهمها فرسان الهيكل (الداوية) وكانت مهمتهم حماية الزوّار وإيصالهم إلى القدس وحراستهم من تعدي المسلمين غير أنهم تحوّلوا إلى فرقة عسكرية شديدة البأس والشكيمة واتخذوا الجامع الأقصى مقراً لهم وجعلوه مخزناً لطعامهم وأسلحتهم وبنوا فيه محلات أخرى فاستبدوا وظلموا وولعوا بالنهب والسلب ولذلك أنذرهم صلاح الدين بأنه لا يأسر أحداً منهم إلا قتله ونقم عليهم البابا والناس أجمعون فتلاشوا وانقرضوا.

أتى الصليبيون ففتحوا البلاد وتمكنوا بها إلى أن قيض الله للشرق البطل الكبير صلاح الدين رأس الأسرة الأيوبية فقضى عليهم وفتح معظم البلاد العربية ثم أورثها أخاه وأبناءه وتداولوها حتى سنة ١٢٥٠م. وسنة ٦٤٨هـ حيث ضعفت شوكتهم وتقلص نفوذهم ودالت دولتهم فقتل الملك الظاهر بيبرس توران شاه سنة ٦٤٨هـ وانتخب بعده "شجرة الدر" وهي الملكة الوحيدة التى توجت فى الممالك الإسلامية العربية وضربت السكة باسمها وخطب لها فنفر أمراء دمشق وانضموا إلى الملك الناصر يوسف صاحب

حلب فأعلنوا طاعته ودخلت جميع بلاد سورية فى حكمه فعظم الخبر على المصريين وخلعوها وولوا أمرهم عز الدين أيبك "المملوك" ولقبوه بالملك المعز فتزوج شجرة الدر ليرضى الشعب ولكنه لم يرق لهم هذا العمل واختاروا الملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن وقرروا أن يكون أيبك أتابك جنده فغضبت دولة دمشق الأيوبية وسار الملك الناصر يوسف إلى مصر وحاول الاستيلاء عليها ولكنه فر منهزما واحتدم الخلاف بين مصر الأيوبية تحت إمارة المماليك ودمشق الأيوبية البحتة إلى أن أصلح بينهم الخليفة العباسى على أن يكون الحد الفاصل بينهما نهر الأردن ثم ثار أيبك سنة ٦٥٢هـ وخلع الأشرف واستبد بالملك فشق ذلك على المماليك ورحلوا إلى دمشق وأطمعوا صاحبها فى ملك مصر واستحثوه فسار إلى غزة وهناك اتفقوا على أن يكون حد الدمشقيين العريش. وفى سنة ٦٥٧هـ قدمت عساكر هولاكو التتري وملكوا الشام وقتل الملك الناصر ابن الأشرف سنة ٦٥٩هـ فانقرض ملكهم من الشام كما انطفى من مصر.

الفصل الثانى عشر

فلسطين فى حكم الممالك

(٦١) الممالك البحرية

الممالك جمع مملوك وهم الجماعة الذين دخلوا خدمة الملوك والأمراء فترقوا من خادم إلى ملك ومن أجير إلى أمير ويرجع أصلهم إلى الأسرة المغولية من سكان أواسط آسيا. فالسلجوقيون والخوارزميون والمماليك والعثمانيون من فصيلة واحدة بعضهم نزع بعياله ومواشيهِ إلى حدود المملكة العربية خشية بطش جنكيز خان أو غيره وبعضهم كان يجلب ويباع فى العواصم أو يقدم هدايا للملوك والأمراء فمن كان منهم قوياً ذكياً كان يقدمه جده ومقدرته فيلبس التاج ويؤسس مجداً باسقاُ ومن كان منهم ضعيفاً عاش خاملاً ومات خادماً ومن يتصفح تاريخ الحكومات العربية ويستقصي حوادثها يدرك لأول وهلة سرّاً خطيراً وهو أن جميع الدول كانت تستكثر من الخدم "الممالك" وتكرمهم وتقربهم وترقيهم وتمنحهم القاب الأمراء وتقطعهم البلاد فيستبدون ويتحكمون ثم يؤسسون حكومات تكون فروعاً للجذع الذى نبتوا عليه فإذا ما عظموا قطعوا عنه وأصبحوا وهم العبيد أصحاب البلاد. وما من دولة إلا ارتكبت هذه الغلطة فانقرضت وتلاشت جميعها عن أيدي ممالكها وخدمها ولم تتعظ واحدة منها بالأخرى وليس هذا بعجيب لأننا معاشر الشرقيين بسطاء

القلوب مخلصون سمحون متساهلون لا توفظنا عظة الادهار ولا تبهنا حوادث
الأعصار شأننا فى جميع أمورنا وأعمالنا ولو انا طفنا بيوت الأسر الكبيرة
لكشفنا ذلك السر ولا طلعنا على أمور توضح لنا أسباب رقي أولئك الممالك
ونجاحهم وإليك أيها القارئ الكريم مثلاً.

يأتى السيد العربي بخادم أو خادمة إلى بيته فيجعله فرداً من العائلة
ويشركه فى أمره ويد الله ويطلعه على أسرار البيت وعورات أهله ودخائله
فيعرف فقره وغناه ومقامه الحقيقي والظاهري ويتدخل بينهم فيجدهم أحزاباً
يستعين به أحدهم على الآخر ويتقوى به أضعفهم ويستند عليه أعجزهم
فيحترم ويكرم ويتنافسون فى استمالته إليهم حتى يصبح مستشاراً لا خادماً
فيخالفهم ويخاشنهم. أما الغربيون فيظل خادمتهم خادماً لا يعرف من أمرهم
شيئاً وليس له عليهم من سبيل؛ وربما طردوه لأقل ذنب اقترفه أو خطأ جناه
ولو كان طفيفاً.

تشعبت الدولة الأيوبية وطمع بها كثيراً وأصبحت البلاد لمن غلب
فاستكثر الملك الصالح المماليك وقربهم منه وولاهم الإدارات فاستفحل أمرهم
وقويت شوكتهم وسطع نجمهم وأيدهم السلاح الذي بين أيديهم فنالوا
المناصب العالية وأصبح الحل والربط منوطاً بهم فاحتقروا آخر ملوك الأيوبيين
وخلعوه واستبد بالملك أيك الجاشنكير أول ملوك المماليك البحرية الذين لقبوا
بهذا اللقب لأن مقرهم كان فى جزيرة النيل عند نقطة سميت بالبحر لاتساعها
تميزاً لهم عن المماليك الجراكسة.

(٦٢) قطز الملك المظفر

ولى السلطان قطز الملك سنة ٦٥٧هـ وهو الثالث من ملوك المماليك البحرية ولم يدم سلطانه سوى أحد عشر شهراً لأن هولاءكو زحف بجموع كالجراد المنتشر فدخل بغداد "دارالسلام" وقضى على حضارتها ومدنيتها الباهرة وانا نسطر هذه الفاجعة الأليمة المحزنة فنقول: كان هولاءكو تترياً من أحفاد جنكيز خان وله حكومة قوية فاستدعاء مؤيد الدين العلقمي وزير المستعصم لفتح بغداد فلباه وهاجم البلاد العربية وكان لا يأتي إلى بلد أو مدينة إلا وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً فلا يترك رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً إلا قتله فوصل بغداد وحصرها وضيق عليها فخرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمي [مسبب هذه النقمة] إليه وتوثق منه لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال له ان هولاءكو سيبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم في "الأناضول" ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر وحسن له استقباله فخرج المستعصم في جمع من أكابر أصحابه ونزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأمثال فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسين وظلوا يخرجون إلى التز طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا وكان منهم محيى الدين بن الجوزي وأولاده فأمر بقتلهم جميعاً ثم مدوا الجسر ودخلوا بغداد واعملوا السيف في أهلها وهجموا على دار الخلافة وقتلوا من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا الصغار ودام القتل والنهب نحو أربعين يوماً وقتل الخليفة ولم يعرف طريقة اغتياله ثم نودى بالأمان.

هكذا ختمت الخلافة العباسية البغدادية التي أجلها واحترمها وهابها

السلاطين والملوك فداسها هؤلاء البرابرة بأرجلهم القذرة سنة ١٢٥٧م و٦٥٦هـ بعد أن عمرت خمسة قرون ونيفاً وتركت من المآثر الجليلة ما برزت بها على الأولين وبذت السابقين.

انقضت هذه الصاعقة أو الفاجعة بل الطامة على العرب فذعروا واستسلموا أو تمرد هولاء فاستولى على العراق وتقدم غرباً وجنوباً إلى سورية ففر الملك الناصر من دمشق بأولاده ونسائه وأتباعه ونفائس ذخائره إلى بركة الكرك "زيزاء" فجاء نائب هولاء القائد كتبغا وتسلم دمشق بأمان ثم بحث عن الناصر حتى عرف مقره فأمسكه وبعث به إلى هولاء فقتله وانقرضت به الدولة الأيوبية الدمشقية ثم زحف التتر إلى عجلون وفلسطين وقدموا غزة وامتلكوها فالتقاهم الملك قطز وصحبته المنصور صاحب حماة والتحم الجيشان في الغور على عين جالوت بين بيسان وجنين فكانت موقعة كبرى قتل فيها كتبغا وأسر ابنه ثم قتل وتأثر فلولهم ببيرس ومازال يفتك بهم حتى أخرجهم من البلاد ورجع فقتل الملك المظفر قطز واستوى على العرش.

(٦٣) الملك الظاهر ببيرس البندقدارى

لاريب أن السلطان ببيرس هو أعظم الممالك وأشدّهم بأساً فإنه حكم فلسطين وحارب مابقى فيها من الصليبيين وانتزع منهم الشوبك والكرك وفتح قيسارية وأرسوف وصفد وذبح أهلها وفتح يافا واهتم بالأماكن المقدسة ورمم قبة الصخرة وزاد في أوقاف الحرمين الشريفين الأقصى والخليل وفي سنة ٦٦٨هـ سنة ١٢٦٩م عمّر النبي موسى وزاد فيه ورتب موسمه وحسنه وقاوم

الفرنج.

(٦٥) محمد قلاوون

ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أن خلع مرتين وعمر فى القدس المساجد وأنشأ المآذن وصد هجمات ملك التتر قازان الذى أوغل فى البلاد وتجاوز حدود فلسطين فوجس الناصر وجهازه سلاسل وبيبرس الجاشنكير بجيش محاربتهم فاجهزوا عليهم وردوهم على أعقابهم منقلين.

ولاحاجة للافاضة فى هذا المختصر عن سيرة كل ملك من المماليك البحرية لأنه لم يحدث بفلسطين شئ جدير بالذكر غير خلع الملك هذا وتعيين ذاك مما لا يهم القراء معرفته.

(٦٦) المماليك الجراكسة أو دولة المماليك الثانية

كانت منازلهم فى سيرا حول بحيرة بيكال فهجروها واستوطنوا بلاد الجركس وقفقاسية وما وراءها فاستقدمهم الملوك والأمراء واصفطوهم واستكثر منهم العباسيون وبنو أيوب والمماليك البحرية فقضوا على سلطتهم بأسلوبهم العجيب وهو تنصيب الأحداث والضعفاء من أبناء الملوك على سدة السلطنة لسهولة نزعها منهم ثم يكفله أحدهم ويدير شؤون المملكة فيستبد بالسلطان ويتربص له ويخلعه وأول ملوك المماليك الجراكسة.

(٦٧) أبو سعيد برقوق "الظاهر"

هو أحد موالي بنى قلاوون النابهين ساعده جده فبرز على قرانه ونال

التتر وصد هجماتهم عن سورية وفلسطين.

(٦٤) انتقال الخلافة العباسية إلى مصر

ومن الأعمال الجلييلة التي قام بها الملك الظاهر بيبرس نقله الخلافة العباسية من العراق إلى مصر فانه لما استأصل هولاء شأفة الأسرة العباسية المالكة في بغداد ذهب إلى مصر رجل بغدادى أسمه اللون اسمه الإمام أحمد وادعى أنه عباسي فقبله بيبرس لغرض سياسي ودعا إليه القضاة فى مصر فاثبت نسبه إمامهم وبايعوه بالخلافة ولقبوه المستنصر وكانت العامة تلقبه بالزراطيني ثم ثم أرسله إلى بغداد فقتله التتر قبل وصوله. ومات الملك الظاهر بيبرس فى دمشق ودفن بالقرب من الجامع الأموى.

بدأ شأن الخلافة فى الضعف منذ عهد الراضى سنة ٣٢٢هـ الموافق سنة ٩٣٤م عندما فصلت عنها السلطة الزمنية واستبد الملوك والأمراء وأصبح الخلفاء شيوخ زاوية يتبرك بهم بل هدفاً للسجن والقتل فجاءهم هولاء وأبادهم وثل عروشهم فنقلوا إلى مصر وزادوا ضعفاً فوق ضعفهم حتى بلغ من الملك الناصر أن نفى الخليفة المستكفى إلى قرية قوص ومن ملوك هذه الدولة السلطان الملك المنصور قلاوون الذى فتح طرابلس الشام واستردها من الفرنج بعد أن مكثت فى أيديهم ١٨٥ سنة ثم خلفه ولده السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذى هدم قبور خلفاء الفاطميين فى مصر وبنى مكانها خاناً دعاه الخان الخليلي بقرب مشهد الحسين وفتح عكا وقتل أهلها وخربها وتسلم عثليت وفى عصره سنة ٦٩٠هـ خلت سورية وفلسطين من

حظوة عند أسياده فاغدقوا عليه نعمهم وأحلوه صدر مناصبهم وأعلاها فجنحت نفسه للعرش ونهج منهج أسلافه المماليك فاختر حاجي الصغير ابن السلطان شعبان وكفله وناب عنه في المملكة وما زال به حتى خلعه واستوى على عرشه فانتقض عليه الأمراء وبعد عراق شديد تغلب عليهم وشردهم فالتجأ أحدهم منطاش إلى آل الفضل عرب الأمير محمود الفاعور واحتفى بهم فدافعوا عنه وحاربوا معه وأخيراً أخذوا له الأمان وسلموه فخاس برقوق بعهدده وفتك به فصفا له الجو وقرت عينه بالملك. وفي سنة ٧٩٦هـ كان ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس شهاب الدين الأمير أحمد بن اليعموري "وله أسيرة في الخليل والشام" فأبطل المظالم والمكوس التي عملها سواه ولما زار الناصر فرج بن برقوق القدس رأى على نيابتها ونظارة الحرمين حاكماً واحداً فلم يستحسن ذلك وجعل لكل منهما مأموراً خاصاً فتعين الأمير ناصر الدين النشاشيبي ناظراً للحرمين فقط وأسرته في القدس كبيرة ومشهورة.

(٦٨) مجيئ التتر

اشتهر من التتر ثلاثة ملوك عظام الأول جنكيز خان مؤسس الدولة والثاني هولاكو مبيد مجد العرب وطافى سراج مدينتهم ومحرق مكباتهم ومدارسهم في بغداد والثالث تيمورلنك ملك سمرقند الذي اجتاحت البلاد وفتح خراسان وتركستان والهند وفارس واخترق الأناضول وأسر السلطان العثماني بايزيد ثم انقلب إلى سورية سنة ٨٠٣هـ فأمر فرج بن برقوق سائر النواب

بالتوجه إلى حلب ليمنعوها منه ففعلوا ولكنهم عجزوا عن رده وصد غاراته فحاربهم وانتصر عليهم وفتح حلب وأمعن في النهب والفتك وسفك الدماء البريئة وسار إلى الشام فامتلكها وأحرقها ونكل بأهلها وأحرق الجامع الأموي وفتك بالأهالي وعاث في الأرض فسادا.

ولما ولي السلطان الملك الظاهر خشقدم عمر قناة السبيل وأجرى بها ماء العروب إلى القدس ومن ملوك هذه الدول السلطان قايتباي الذي عمر كثيراً وطالت سلطنته وقد حدث في عهده وقائع عمومية نذكر بعضها باختصار مفنها:

أنه في سنة ٨٧٨هـ نشبت فتنة في الخليل بين الأكراد "الحموريين" وبين الداربية "التيمة" المتشعب منهم سكان قریتی النبی صالح ودير نظام وتممو نابلس فقتل من الفريقين ثمانية عشر رجلاً. ومنها الفتنة التي حدثت بسبب كنيسة اليهود وتشدد متعصبو المسلمين إلى أن تفاقم الخطب. وفي سنة ٨٨٠هـ خيم السلطان على بركة الجاموس قرب الرملة فسرق له اللصوص بقجة قماش من الخيمة التي كان نائماً فيها فاستدعى شيخ بني صعب حرب الجيوسي وحبسه ثم غرمه مالاً.

ومما يدل على ضعف الحكومة وقتئذ أن حاكم القدس قتل جماعة من بني زيد فهجم عصبتهم وأعوانهم ونهبوا المدينة ودخلوا المسجد شاهري السلاح وهرب من وجههم الحاكم فتمردوا وكسروا باب السجن وأخرجوا منه المساجين.

وسنة ٨٨٨هـ اختلف السلطان قايتباي والسلطان بايزيد العثماني
فجمعوا من فلسطين الجنود "تجريدة" وصرفوا لهم المعاشات فاخذوها ونكلوا
عن الحرب.

وفي سنة ٨٩٤هـ حضر أبو العويس أمير عرب الجرامنة "جد
العويسات في بيراما عين والبرج" وطرح مظلمة على الفلاحين فعارضه نجم
الدين ابن جماعة "من أجداد دار الخطيب" واسترحم من الدوادار(*) أن يمنعه
فلبى طلبه.

وفي ١٩ ربيع الأول لسنة ٨٩١هـ الموافق ٧ كانون أول تساقط
الثلج في القدس من يوم الثلاثاء حتى يوم الخميس فتراكم كثيراً مثل ثلجة سنة
١٩١٩م وفي هذه السنة حدث خلاف بين حاكم غزة وحاكم القدس وتداخل
بينهما السلطان وأصلح ذوات البين وظلت البلاد في انحطاط حتى التهمها
الأتراك العثمانيون.

(*) هو الدمدار "قائد المؤخرة" والبيشدار "قائد الطليعة".

القسم الثالث

فلسطين إيالة عثمانية

الفصل الثالث عشر

(٦٩) تمهيد

ان دولة حكمت فلسطين وخفقت راياتها على ربوعها أربعة قرون لجديرة بأن يخصص لها باباً ندوّن فيه أعظم المواقع وأشهر الحوادث التي جرت في أيامها ولا بأس من أن نبدأ بحثنا بذكر خلاصة عن أصل هذه الدولة وما وفق إليها من الأعمال الجليلة دون سواها من الدول الأخرى.

أ - حاول العرب فتح القسطنطينية ودك عرش الرومان والقضاء على مملكتهم فسلخوا جزءاً كبيراً من جسم امبراطوريتهم ولم ينفذوا إلى قلبها فبقيت ذات حول وقوة تكافحهم وتنازعهم البلاد ثم طمع سلجوقيو الأناضول في القسطنطينية وتلاههم التتر فهاجموا الرومان من الشمال والشرق والجنوب وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً فلم يقدرُوا عليهم فلما نجم الأتراك العثمانيون فتحوا الأناضول وتولوا في أوروبا وحاصروا الأستانة من كل الجهات وبعد حروب طويلة دامية دخلوها عنوة سنة ٨٥٧هـ وسنة ١٤٥٣م واستولوا على ممالك الرومان في أوروبا وآسيا.

ب - أصلهم

كان وسط آسيا مهد القبائل التركية ومصدراً للأمم التي كانت تبدو صغيرة ثم تنتشر فتزداد عظمتها كلما نأت عن بلدها الأصلي كحجر يلقي في بركة ماء فتتسع دائرته كلما بعدت عن مركزها أو كصخر انحط من علٍ فكلما طال في جريه زادت سرعته واشتد انحداره، أما الأتراك العثمانيون فهم من جيل التتر "القبيلة الطورانية" الذين سكنوا حدود الصين ثم زحفوا إلى تركستان فتجنبهم الأكاسرة وهابوا صولتهم فلما فتح العرب إقليمهم احتك الأتراك بهم واقتبسوا مدنيتهم ودانوا بالدين الاسلامي في القرن الحادى عشر وأشهر هذه القبائل السلاجقة الذين ينتسبون إلى جددهم سلجوق والعثمانيون الذين ينتسبون إلى السلطان عثمان الغازي وهو الحجر الأول فى أساس دولتهم.

ج - تكونهم

فى سنة ٦٨٧هـ وسنة ١٢٨٨م بدأت نواة الدولة العثمانية تتكل فى الأناضول على أصل الدولة السلجوقية ومازال يمتد جذرهم ويسق فرعهم حتى تغلبوا على اخوانهم واحتازوا الملك دونهم ومدوا ظلهم إلى البلقان وفينا عاصمة النمسا وامتلكوا العراق وسورية ومصر وإيران وشمال البحر الأبيض ولم يقفوا عند هذا الحد كأسلافهم السلاجقة أو الدول الاسلامية الأخرى بل تعدوا طورهم وضمنوا على العرب بالخلافة "السلطة الروحية" وتطلعوا إلى اغتصابها منهم. فإن العرب قبلوهم همجاً وهذبوهم وصقلوهم وربوهم

وعلموهم الدين الاسلامي الحنيف وعرفوهم عبادة الله عوضاً عن عبادة الأصنام ولقنوهم اصطلاحات علمية وفنية فلم يرع الأجانب لهم هذا الجميل وغلبوهم على تلك المملكة الواسعة التي فتحوها بجدهم ونشاطهم وروحهم الدينية وسلبوهم أياها وهذا يشبه ما حدث للرومان مع برايرة الألمان الذين ظهروا من أحراج أوروبا الشمالية فسطوا على مدنيّتهم وانتزعوها من أيديهم.

فاز الترك على العرب بيد أنهم سلكوا شريعة نبيهم ﷺ ودخلوا في دينهم واقتبسوا تقاليدهم فأصبح الأتراك وهم الغالبون مغلوبين لارتباطهم باللغة العربية الدينية وزيارة البلاد العربية لأداء فريضة الحج فهذه العلائق المتينة ربطت الأتراك بالعرب وأخضعتهم إليهم إلى أن قام الحزب الوطني في أنقره وقرر أن تتلى خطب الجمعة في البلاد التركية بلغتهم فدفنوا بهذا الحكم لغة محمد ﷺ.

(٧٠) نشوء الدولة العثمانية حتى فتحها فلسطين

مؤسس هذه الدولة أرطغرل بن سليمان شاه التركماني سلطان بلاد ماهان قرب بلخ نفر من جنكيز وارتحل إلى بلاد الروم ببعض قبائل الترك فلما انتهى إلى الأناضول رأى جيشين يلتطمان ويتحاربان فعلاً نشراً من الأرض حركاتهما الخربية ولما آنس من أحد الفريقين ضعفاً وخذلاناً هب بفرسانه لنصرته وأعمل السيف في الجيش المنتصر فهزمه وبدد جيشه وبعد أن انكشف الغبار علم أن من أنجده كان الأمير علاء الدين سلطان قونية^(*) الذي شكره

(*) إحدى الامارات السلجوقية المتجزئة من مملكتهم بعد انجلائها.

على نجدته وصنيعه واقطعه عدة مدن واتخذة ركنه وعماده فى حروبه وغاراته وأغدق عليه النعم ومنح قبيلته لقب "مقدمة السلطان" ولما توفى أرطغرل خلفه ولده عثمان وأخذ لقب بك مثل، أمير، لورد، فيكونت، وأجيز له ضرب النقود وأن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة فعرج إلى قمة الرقي تدريجاً حتى قدم التتر وقتلوا الملك غياث الدين السلجوقي فاتسع المجال لعثمان ولقب نفسه "بادشاه آل عثمان" واتخذ مدينة بكيش هر عاصمة له وخلفه ابنه أورخان فاستولى على جزء من أوروبا الجندية بمشورة وزيره خير الدين باشا الذى جمع الباب من أسرى الحرب فرباهم تربية أنستهم أصلهم وجنسيتههم وباركهم يخ طريقة البكطاشية المقيم فى أماسية وسماهم (بكى جاري) "الجيش الجديد" فتحرف الاسم إلى انكشاري فكان هذا العمل من أكبر العوامل لتثبيت دعائم هذه الدولة الفتية وقد سلك هذه الخطة فردريك الكبير ملك الألمان إذ نظم الجيش فرفع شأن برونسيا وارهب ممالك أوروبا.

ارتقى جيش العثمانيين الجديد "بكى جاري" وزاد عدده فاخترق قرب البلقان ومكدونيا وفتح الأستانة.

وفى عهد السلطان سليم تحالف ملك مصر قنصوه الغوري وشاه إيران إسماعيل واتفقا على محاربة العثمانيين فسار السلطان سليم بجيش إلى بلاد العجم وفتح بعض ولاياتها وأقاليمها ثم انشئ إلى محاربة الملك الغوري فتصادف الجيشان فى مرج دابق "قرب حلب" ولم يصبر المصريون على مدافع الأتراك وانهزموا فقتل ملكهم وأسر الخليفة واستولى السلطان سليم على مدن

سورية ثم تقدم إلى فلسطين فالتقى بجيش طومان باى قرب اللجون فحمل عليهم بجيشه وردهم على أعقابهم واستولى على فلسطين وفتح مصر ف قضى على آخر ملوكها وضمها إلى ملكه فى سنة ٩٢٣هـ وسنة ١٥١٧م وقسم مصر إلى أقسام إدارية ووزع النفوذ بين الأمراء فكان كل منهم رقيباً على الآخر وقفل راجعاً إلى الأستانة مستصحباً محمد المتوكل آخر خلفاء بنى العباس الذي تنازل للسلطان سليم عن الخلافة وسلمه الآثار النبوية البيرق والسيف والبردة وأعطاه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين فصارت الأستانة من ذلك الوقت مقر الخلافة الإسلامية وأصبح كل سلطان عثمانى خليفة لرسول الله وأميراً للمؤمنين فجمع السلطان سليم السلطين الزمنية والروحية وحصرهما فى نفسه وفى أحفاده من بعده ولم يك عمله هذا حرصاً على الدين أو حماية للإسلام وحسب ولكن أراد أن يستأصل منازعيه ويوحد كلمة المسلمين ويجعل لهم امبراطورية عظمى.

(٧١) السلطان سليمان وما بعده من الأحداث

لو تتبعنا تاريخ هذا الخليفة لوجدناه مملوءاً بالأعمال الجسيمة والمآثر الجليلة الخالدة ولكننا نقتصر على ذكر ما يتعلق بفلسطين فمن مآثره فيها: وأعماله الحميدة سور القدس الذى أنشأه سنة ١٥٤٢م وسنة ٩٤٥هـ ولا يزال اسمه منقوشاً على صفحاته ومنها عمل باب قبة الصخرة الغربى وفتح باب السيدة مريم وسد الباب الذهبى "شرقي الحرم" ومنها عمارة بركة السلطان الواقعة على طريق المخططة من باب الخليل وهو الذى نظم القوانين

فلقب بالقانوني وكان سلطاناً عظيماً وادارياً حازماً وبطلاً قديراً وصلت تركيا في أيامه إلى ذرى مجدها حتى أنه هدد انجر واستريا وملك سائر بلاد البلقان وأصبح البحر الأسود بحيرة تركية تحيط به الأقاليم العثمانية من كل جهاته ودخل في طاعته خير الدين باشا بارباروس فولاه قيادة الاسطول وأوقع الرعب في دول أوروبا البحرية. وفي عهده خرج حاكم سورية وفلسطين جان بردي الغزالي فاستولى على قلعة دمشق وأعلن العصيان فأرسل إليه السلطان أحد قواده فرحات باشا وعاجله فأخذ تلك الفتنة وقطع رأس الغزالي.

وفي أواخر القرن السادس عشر فشى استعمال التبغ في سورية ومصر وأقبل الجميع على تدخينه. وفي ذلك القرن استولى الأمراء المعنية على نابلس وأطرافها وعينوا عليها ولاية من قبلهم وسار الأمير فخر الدين إلى نهر العوجاء وحارب بدو الساحل وبدد جموعهم ولكن أهل بلاد حارثة(*) حاصروه في قلعة جنين وأخرجوه منها.

وفي هذا القرن عظم شأن الأنكشارية وأستبدوا بالملوك فأخذوا يخلعون من شاءوا ويولون من أرادوا وفي سنة ١٧٦٤م عصى أمراء جبل نابلس الحكومة فاستنجدوا إلى الشام عثمان باشا الكرجي بالأمير يوسف الشهابي فأمدّه بجيش كثيف من أهالي لبنان وحاصروا عاصمتهم "قلعة صانور" فلم يستطيعوا فتحها فقال شاعر جرار:

(*) ناحية مؤلفة من ٣٥ قرية تابعة إلى جنين

عرب ودروز أجونا صايلينا _____
من العرقوب أجونا صايلينا _____

وقال شاعر اللبنانيين

جينا بلاد جدي ماوصلها _____
عرب ودروز والدولة تصلها _____
عربستان يارب نصلها _____
بحق البيت أو ما زاره صحابة _____

(٧٢) خروج الأمير على بك المصري والشيخ ظاهر العمر

فى أثناء الحرب الروسية العثمانية أرسلت روسيا اسطولاً إلى البحر المتوسط وأثارت الشيخ ظاهر العمر وعلى بك المصري الملقب بشيخ البلد فخرجوا على الدولة وحشد على بك الجنود وأرسلها مع محمد بك المكنى "بابى الذهب" إلى الحجاز فاحتل جدة وطرده الشريف من مكة ودعى له على المنابر وضرب السكة باسمه. أما الشيخ ظاهر العمر فأن أصله من الحجاز جاء أجداده الزيدانية فى الفتح الإسلامية الصلاحى وكانت اقطاعاتهم خمس قرى وهى: بيت أكسا والنبي صموئيل والجيب وبيت نابالا وبيت حنينا فسكنوا فى القرية الأولى ثم رحل جده زيدان ونزل فى شفا عمرو فأكرمه محافظ القلعة وظل يتقدم إلى أن تعين ولده عمر على عكا ثم خلفه ابنه ظاهر المشهور فاتفق مع المتأولة حكام صور وبلاد بشارة وخالف الدولة فسير إليه والى دمشق جنداً فاستصرح زميله على بك المصرى وزين له الخروج على سورية والاستيلاء عليها فجهز إليه عشرة آلاف مقاتل مع القائد إسماعيل بك وأمره بطاعة

الظاهر فساروا إلى فلسطين وقابلهم أبناء الظاهر في يافا باحتفاء وأتوا بهم إلى عكا فحاول ظاهر العمر أن يوجههم إلى طريق الحج ليقعوا بوالى دمشق فأبوا وعاد بهم قائدهم إلى يافا فاشخص على بك المصرى عسكرياً آخر بقيادة أبى الذهب وانضم إليه عسكر ظاهر فكانوا ستين ألف مقاتل وحاربوا والى الشام فلم يثبت أمامهم وولى هارباً فاستولى أبو الذهب على دمشق واعتزم على أن يمتلك بقية البلاد غير أن القائد الأول اسماعيل حول عزمه وأفسد إخلاصه فرجع إلى مصر موالياً للدولة مغاضباً على بك ومزاحمه فغلبه على أمره والجاه أن يفر إلى ظاهر العمر فى عكا ومن هناك استنجدوا الأسطول الروسى فساعدتهما من البحر وامتلكا صور وصيدا وطرذا الوالى درويش باشا^(*) ..

ثم اتفقا على محاربة أبى الذهب ودلفا إلى مصر فقابلهم قرب غزة وحاربهم فكسروهم وجرح على بك فى وجهه وأخذ أسيراً فلاطفه أبو الذهب ولكنه مات من جرحه. ولما رجع الظاهر إلى عكا مخدولاً عفا عنه السلطان وولاه إيالة صيدا وعكا فلم يخلص نيته فخرج إليه أبو الذهب من مصر بعسكر كثيف وخيم حول غزة وحاصر كريم بن ظاهر العمر فى يافا ٦٠ يوماً ففتح المدينة عنوة ونهب أموالها وقتل من كان فيها وأقبل على عكا ففر ظاهر منه ملتجئاً إلى عرب عنزة.

ولما مات أبو الذهب رجع الشيخ ظاهر إلى عكا واحتلها فسير إليه السلطان العثمانى الأميرال حسن باشا فهدد ظاهراً بالحرب إن لم يؤد ما عليه

(*) من أجداد آل رضوان فى غزة الذين تحدر منهم أكثر من عشرة باشاوات وصدور عظام.

من الأموال فلم يلتفت إلى طلبه بل رده رداً قاسياً فحاصره وضيق على المدينة وضبطها وأسره واحتز رأسه وأرسله إلى السلطان ومن آثار ظاهر العمر سور عكا وسراية شفا عمرو وبعض مساجد وعمارات أخرى.

إن من استقصى حوادث هذا المختصر وجد أن البلاد كانت مضطربة فتارة في حالة سلم وهدوء وطوراً تهيج فيها نار الحرب والثورة وتكثر فيها الخوارج وما السبب إلا تنافر الأمة والحكومة فإذا تفاهما ساد السكون وأمن الناس وإن ساء ظن الأمة بحكومتها اختل الأمن وثار الفتن ونشأ عن ذلك ما لا يحمد عقباه من سفك الدماء وقتل النفوس البريئة.

كانت حكومة سورية في القرن الثامن عشر حكومة لامركزية أى إقطاعات أو حكومة أمراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقته فكان مشايخ أبو غوش أو البراغشة يحكمون بنى مالك وبنى حسن وبنى زيد وبنى مرة وبنى سالم فإذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ "العدلية" ويقبلون حكمه لامحالة. ومن خالف عادات البلاد أو أخل بتقاليدهم يسجن فى سجنهم وكان الشيخ أو الأمير يجبى الضرائب ويقدم المقطوع عليهم للوالى ويأخذ الزيادة وإذا حدثت فتنة أو خيف من وقوعها كان يطلب الوالى المعاونة من أمراء منطقته فيخرجون بأنفسهم ومن ورائهم رجالهم وفرسانهم. فالشيخ أو الأمير يحكم مقاطعته كما يحكم الأمير إيلاته وكثيراً ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الأمراء والولاة فأدّى هذا النظام إلى انتشار الفوضى واختلال الأمن وسبب للحكومة خسراً كبيراً فى الأموال والرجال وقد

تنبّهت الحكومة لهذه الأضرار الناجمة فعمدت إلى إضعاف قوة المشايخ والأمراء وأيدت الجزار في عكا وأشارت إليه بآبادة المتفذين ونصر ولايتها المخلصين لكنها لم توفق إلى إنجاز هذا العمل إلا سنة ١٢٨٧هـ وسنة ١٨٧٣م حيث ألغت الإمارات ومناطق النفوذ وإدارات البلاد بموظفيها. وهذا الأسلوب يشبه ما فعله لويس الحادي عشر في فرنسا فإنه مازال بالأمراء والنبلاء حتى قضى على سلطتهم وخلص من نفوذهم الذي كان حاجزاً بينه وبين الشعب.

(٧٣) أحمد باشا الجزار

هو رجل بشناقي الأصل من بلاد البوسنة كانت نفسه نزوعة إلى الأعمال الجليلة وتذليل الصعاب فبعثت به الحكومة إلى مصر ليستأصل شوكة المماليك الذين كانوا شبيحاً في حلقها فاتبع سياسة القاء بذور الفساد والفتن بين المشايخ والأمراء وفاز بامنيتهم وكان طائش السيف ظالماً بطاشا استحل الموبقات وولغ في النفوس فسخط عليه عامة الشعب والحكام ففر ملتجئاً إلى الأمير يوسف الشهابي ليتبع أمراء سورية بمماليك مصر.

وفي سنة ١٧٧٠م أنيطت به المحافظة على مدينة بيروت فحصنها ومنع أهل الجبل من دخولها وأزمع على العصيان ففطن لذلك الأمير يوسف وباغته وهم أن يبطش به فقابلته الجزار بالخضوع والطاعة واستمهله ٤٠ يوماً ثم جاهر بالكفران فغلب على أمره ولم يفلح. وحدثت بينه وبين علي بن ظاهر العمر وقعات خذل فيها علي وفرّض من البلاد فقتل وزالت إمارة أهله واستحوذ الجزار على ما كانوا يملكون من المقاطعات واتخذ عكا عاصمة له

وبنى عليها سوراً ثانياً وجامعاً كبيراً هو خير حسناته وآثاره.

وما فتئ الجزار يقتل ويذبح ويثير بعض المشايخ على بعض حتى أصبح من أكبر ولاية وأبطال سورية فزادت ثقة الدولة به واعتمدت عليه فى تنفيذ غاياتها وتكثير وارداتها فازداد بطشه وصنع وتداً "خازوقاً" كان يجلس عليه من خالفه لو عانده فأرهب الناس وأخاف أهالى البلاد لأنه كان لا يثبت على حال مع صديق أو عدو فبينا نراه اليوم يحسن إلى رجل ويعطف عليه إذا به غداً قد أصبح فريسة لسيفه وهدفاً لسهام انتقامه. فيروى أنه ذهب لأداء فريضة الحج فبلغه ما جعله يرتاب فى أهل بيته فلما رجع شواهن فى النار ومات الجزار سنة ١٨٠٤م بعد أن بلغ من العمر ٨٤ حجة ودفن فى عكا فى الجامع الذى بناه.

مرّ على فلسطين قرنان ونصف وهى نائمة لم يحدث فيها شئ سوى ما انتابها من الحوادث الداخلية البسيطة فأغفلها التاريخ وجاءت عرضاً فى أخبار غيرها وهيئات أن تكون فلسطين الصغيرة عضواً فى جسم مملكة واسعة الحدود ولها نصيب فى صفحات التاريخ لاسيما إذا خلت من الحروب أو الانقلابات السياسية وتجردت من النهضات الأدبية كظهور نوابغ وعظماء فى العلم والشعر والأدب.

الفصل الرابع عشر

فلسطين فى القرن التاسع عشر

(٧٤) بونابرت فى فلسطين

ظلت فلسطين منذ فجر التاريخ والأرياح الآسيوية تقذف إليها أمواج القبائل المتلاطمة غير أن تلك الريح تبدلت وهب عليها من الغرب ريح عاصف فرماها بالاسكندر وبومى وغودفرى وقلب الأسد ونابليون بونابرت أكبر القواد وأشهر نوابغ الحرب الذى ترقى من ضابط بسيط إلى قائد "جنرال" وامبراطور عظيم فحارب ايطاليا والنمسا وروسيا وأسبانيا وزلزل عروش ملوكهم واستولى على كثير من بلادهم وممالكهم ولم يبق أمام دولة فرنسا إلا انكلترا التى ظلت تناصبها العداة وتحرك عليها الدول فأثارت غضب الفرنسيين وأخذوا يفكرون بالقضاء عليها فلمعت بارقة أمل إلى نابليون وخطر له أن ينشئ حكومة شرقية يزاحم بها انكلترا فكتب مافى نفسه وطلب لزملائه أن يجهزوا له جيشاً ليحتل به مصر مجرى تنفس الانكليز ويسد عليهم طريق الهند ويجز ناصيتهم فجهزوا له جيشاً وأسطولاً واستصحب معه ١٢٢ رجلاً من الاختصاصيين فى جميع العلوم لدرس القطر المصرى وتسليل خلصة وهبط مصر فأخذها ونظم إدارتها فاستشاط الأنكليز غضباً وشجعوا الدولة العثمانية على محاربة الفرنسيين واسترجاع مصر ووعدوهم بالمناصرة فأمر العثمانيون الجزار والى عكا بأن يتقدم إلى مصر فذهب وامتلك العريش فاغتاظ نابليون

من ذلك وجعل يعد حملة ليفتح بها فلسطين وسورية وينقض على الهند فاسترق بعضاً من علماء الدين الاسلامي ليستعين بمركزهم الديني على تنفيذ مآربه السياسية وفي سنة ١٧٩٩م سار الجنرال كليبر Kleber إلى فلسطين فقابل قائد جيوش الجزائر قاسم بك خارج العريش وحاربة وشتت جمعه وأخذ ذخائره ولحقه نابليون باثني عشر الف مقاتل فاحتل العريش وأمن أهلها ثم سار إلى غزة^(١) مفتاح فلسطين الجنوبي فتسلمها بلا حرب وأتى بعد ذلك إلى الرملة^(٢) فأرسل فرقة من جيشه لمهاجمة يافا الغاصة بجنود الجزائر المؤلفين من عرب وأتراك ومغاربة وأرنؤوط وأكراد وجركس فحاصروا المدينة مدة ثم فتحوها فانسحبت الحامية إلى بعض الخانات وأبوا التسليم قبل أن يؤمنهم على حياتهم فأجابهم إلى طلبهم القائد الافرنسي فاستأمن له أربعة آلاف شخص فساقهم إلى المعسكر ولما رآهم نابليون سأل قائده عن هذه الجموع المحتشدة فأخبره أنها حامية المدينة التي سلمت إليه أماناً وقبلهم حقناً للدماء فبهت وحار في أمره وقال ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد؟ أعندكم زاد يكفيهم الكم مراكب تنقلهم لمصر أو فرنسا؟ ومن يتول خفارتهم إذا أرسلناهم؟ يجب أن تعطوا الأمان إلى الأطفال والنساء والشيخ لا للرجال الأشداء المقاتلين ثم استشار ضباطه في قتلهم فخالقوه ولكنه أصر على رأيه وأمر بهم فقتلوا رمياً بالرصاص في ١٠ آذار سنة ١٧٩٩م.

(١) ومكث مدة في بناية آل رضوان "مأوى الدرك" اليوم.

(٢) كان مركز أركان حربه دير اللاتين وقد دخلنا غرفته فوجدناها بسيطة.

وأمر بقتل مرضى جنده وجرحاهم ولم يوار سواتهم ولعمري أن هذا لمن أفضع الفظائع التي تنسينا همجية الأشوريين وقساوتهم مع أسراهم وتذكرنا ببربرية جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك وإتايلا الذين كتبوا تاريخهم بمداد أحمر وسطروا صفحات أيامهم بأسوأ الذكرى وأوحشها ومهما اعتذر عنه التاريخ وسرد له حجباً قاطعة تبيح له قتلهم ليتخلص من مؤونتهم أو لأنه أسر بعضهم في غزة والعريش وأطلقهم بشرط أن لا يحاربون ثانية فان كل هذه الأعذار لا تبرر عمله.

١ - لأنه عاش في القرن التاسع عشر عصر المدنية كما يقال لا في أيام الهمجية.

٢ - ولأنه جاء من فرنسا مهد المدنية وأم الحرية ذات العواطف البشرية الرقيقة.

٣ - ولأنه ظهر في الثورة الفرنسية وكان غصناً من دوحة دعائها الذين كان شعارهم الحرية والمساواة والعدالة والأخوة.

ولكن ليس من السهل أن نقسو في الحكم على نابليون فقط فأنا لو وضعنا في مركزه لودندورف وجوفر وفوش والنبى ولم يجدوا من يسوق الأسرى إلى مصر ولم يكن لديهم طعام يكفيهم لجؤزوا لانفسهم قتلهم واعدامهم وما قتل ٤٠٠٠ شخص في حكم الطبيعة إلا كجمل دب على سرب غل فداسه وحطمه وأباده.

(٧٥) نابليون والقدس:

عجب رجال الدين من نابليون كيف أهمل القدس ولم يبال بها مع أنها البلد التي يجلبها المسلمون والمسيحيون وغاب عنهم أن نابليون ما كان ينظر إليها إلا من الوجهة العسكرية ولذلك لم يجوز لنفسه أن يركب بجيشه الأهوال قبل أن يمهّد السبل ويقضى على الجزار عدوه العنيد فطلب من حامية القدس تسليمها فأجابته بأن مدينة القدس تابعة لعكا فمتى فتحتها تسلم إليك فتركهم وشأنهم وانصرف لحصار عكا عاصمة فلسطين وحصنها المنيع وبعث بمنشور إلى أهلها مصر نرويه بالحرف الواحد كما ذكره زيدان ونلفت أنظار القارئ إلى أسلوب بوناپرت الذى اتخذ لارضاء المصريين والمسلمين وهيئات أن يتجح ساسة الغرب بتملقهم بعد أن أدرك الشرقيون نياتهم ومقاصدهم.

(٧٦) منشور نابليون^(*)

بسم الله الرحمن الرحيم سبحانه مالك الملك يفعل فى ملكه ما يريد هذه صورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساويين لبندر يافا من الأقطار الشامية.

نعرف أهل مصر وأقاليمها أن العساكر الفرنساوية انتقلوا من غزة ثالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة فى ٢٥ منه فى أعين واطمئنان وشاهدوا عسكر أحمد باشا الجزار هاربين بسرعة قائلين الفرار

(*) تاريخ مصر الحديث.

ووجدوا فى الرملة ومدينة اللد مقداراً كبيراً من مخازن البقسماط "الكعك" والشعير ووجدوا أيضاً ١٥٠٠ قرية مجهزة لجهازها ليسيّر بها إلى إقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومراده التوجه إليها مع العربان الأشرار من سفح الجبل ولكن تقادير الله تفسد المكر والحيل وما كان قصده سوى سفك الدماء مثل عادته فى أهل الشام وناهيك ما هو مشهور عنه من التجبر والظلم والجور فإنه تربية الممالك الظلمة المصريين وفاته أن الأمر لله وكل شئ بقضائه وتدبيره.

وفى السادس والعشرين حلت طلائع الفرنسيين بندر يافا من الأراضى الشامية وأحاطوا بها وحصروها من الجهة الشرقية والغربية وأرسلوا إلى حاكمها وكيل الجزائر أن يسلمهم القلعة قبل أن يحل بهم وبعسكرهم الدمار لكنه لخشونة عقله وفساد رأيه وسوء تدبيره لم يرد. وفى ذلك اليوم أى ٢٦ من شهر رمضان تكامل العسكر الفرنسيون على محاصرة يافا وانقسم ثلاث فرق توجهت فرقة منهم على طريق عكا على مسافة أربع ساعات من يافا وفى سبعة وعشرين منه أمر حضرة سارى عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لعمل متاريس متينة واستحكامات حصينة إذ عرف أن سور يافا ملآن بالمدافع الكثيرة ومشحون بعساكر الجزائر الوفيرة.

وفى ٢٩ منه ناهز حفر الخنادق النهاية وصار على مسافة ١٥٠ خطوة من السور فأمر سارى عسكر أن تنصب المدافع على المتاريس وأن توضع أهوان القنابر بأحكام وأمر بنصب مدافع أخرى بجانب البحر لمنع

الصلة بين عسكر البر والمراكب التى أعدها عسكر الجزائر فى المينا للهزيمة والفرار ولما رأى عسكر الجزائر المحاصرون فى القلعة أن عديد الفرنساويين قليل أغراهم الطمع فخرجوا إليه من القلعة مسرعين ظناً منهم أنهم يتغلبون على الفرنساويين فهجم عليهم الفرنسيين وقتلوا منهم كثيرين وأجبروهم على الدخول إلى القلعة ثانية وفى يوم الخميس غاية شهر رمضان اشفق حضرة سارى عسكر وخاف على أهل يافا إذا دخلت عساكره بالقهر والقوة فأرسل إليهم مع رسول خطاباً هذا مضمونه.

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له بسم الله الرحمن الرحيم

من حضرة سارى عسكر برتبة كتخدا العسكر الفرنساوى إلى حضرة حاكم يافا لنخبركم أن حضرة سارى عسكر الكبير بونا برته أمرنا أن نعرفكم فى هذا الكتاب أن سبب مجيئه إلى هذا الطرف هو إخراج عسكر الجزائر فقط من هذا البلد لأنه تعدى بارسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها والحال أنها إقليم مصر التى أنعم الله بها علينا فلا تجوز له الإقامة بالعريش لأنها ليست من أرضه فقد تعدى على ملك غيره.

ونعرفكم يا أهل يافا أننا حصرنا بلدكم من جميع أطرافه وجهاته وضيقنا عليه بآلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقنابر وفى برهة ساعتين يخرب سوركم وتبطل آلات حربكم ونخبركم أن حضرة سارى عسكر لمزيد رحمته وحنوه خاف عليكم من سطوة عساكره المحاربين فانهم إذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر أهلكوكم جميعاً ولذلك أمرنا أن نرسل

اليكم هذا الخطاب تأميناً لأهل البلد ولا سيما الضعفاء والفقراء والغرباء وأن
نؤخر ضرب المدافع واطلاق القنابر ساعة واحدة وأنى لكم لمن الناصحين
وهذا آخر خطاب بيننا".

فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة
الحمدية والقوانين الحربية فتميز سارى عسكر من الغيظ وهاج وأشدت غضبه
وأمر باطلاق المدافع والقناير ولم يمض إلا اليسير حتى خرست مدافع يافا
وانقلب عسكر الجزار فى وبال وخسران وعند الظهر انخرق سور المدينة
وارتجع له القوم ونقب من الجهة التى ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله
ولا مدافع وفى الحال أمر حضرة سارى عسكر بالهجوم وفى أقل من ساعة
ملك العساكر الفرنسية البندر والأبراج ودار السيف فى المحاربين وحى
الوطيس وكثر القتل. وفى يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من
حضرة سارى عسكر الكبير ورق قلبه لاسيما على من كان فى يافا من أهل
مصر فأعطاهم الأمان وأمرهم بالعودة إلى الأوطان وكذلك أمر أهل دمشق
وحلب بالرجوع إلى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمته ومزيد رأفته وقتل فى هذه
الوقعة أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزار بالسيف أما الفرنسيين فلم
يقتل منهم إلا القليل وسبب ذلك أن سلوكهم إلى القلعة كان فى طريق أمينة
خافية عن العيون وأخذوا ذخائر كثيرة وأموالاً غزيرة واستولوا على المراكب
التى فى الميناء ووجدوا فى القلعة نيفاً وثمانين مركباً وقد فات الجزار وعساكره
أن آلات الحرب لاتدفع مقادير الله فاستقيموا عباد الله وارضوا بقضاء الله
ولا تعترضوا على أحكام الله وعليكم بتقوى الله وأعلموا أن الملك لله يؤتیه

من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله .

وبعد أن أتم بونابرت أعماله وخططه الحربية سار إلى عكا فوصلها في ٢١ آذار وحصرها خمسين يوماً وكان الجزار يتعهد الدفاع البرى والأميرال الانكليزى سدنى سميث يتولى الدفاع البحرى فلم يستفد الفرنسيون شيئاً لأن الجنود العثمانية كانت تفد بكثرة على الجزار حتى غصت بهم عكا واستماتوا فى الدفاع بعد أن سمعوا ما فعله الفرنسيون بحامية يافا فخاب أمل نابليون وجرب أن يستميل إليه الأمير بشير الشهابى أو يؤلف جيشاً من الدروز فلم يظفر بموالاة أحد لأنهم كانوا يخافون بطش الجزار وشدته.

وفى أثناء حصار عكا أرسل نابليون فرقاً إلى الناصرة وصيد وامتلكها وحدثت معركة بين الفرنسيين وجنود الأتراك حول جبل طابور "الطور" فشهد نابليون المعركة بنفسه مع كليبر وهزم العثمانيين هزيمة منكرة.

ذكر المطران الدبس أنه أتى قوم من المتأولة إلى نابليون فولاهم قسماً من هذه البلاد وولى الشيخ صالح بن ظاهر العمر مدينة صفد ولكن ثبات الجزار وعناده وشجاعته الفائقة غرست الخيبة فى نفس نابليون فقذف آخر سهم من كنانته وجمع جنوده وخطب فيهم خارج أسوار عكا كما خطب فيهم تحت ظل الأهرام وعلى ثلوج جبال الألب فقال:

"هذه المدينة هى مفتاح الشرق فاعلموا حرج مركزكم ووطدوا عزائمكم على امتلاكها لأن بامتلاكها تسلمون لدولتكم مفتاح الشرق فندخل

القسطنطينية عاصمة قياصرة الروم وغللك شرقى أوربا وشماليتها فاعلموا ذلك
واخلصوا نياتكم" فألهب حماستهم ونشاطهم وهجموا مستميتين فاقتحموا
الخنادق وثغروا الأسوار وهزموا الحامية ودخلوا البلدة حتى بلغوا سبيل الجامع
الكبير وانتزعوا طاسة من طاساته وهى (موجودة فى متحف باريس) فظهر
الجزار بنفسه وأخذ يحرض جنوده على الثبات وكان يفتك بكل من يعمد إلى
الفرار فاستبسلوا وكافحوا نابليون وجنده وردوهم خائبين بعد ما لمع لهم
النجاح وكادوا يظفرون بأمنيتهم. وفى ٢٣ آيار سنة ١٧٩٩ فك نابليون
الحصار عن عكا وقفل راجعاً إلى مصر بعد أن اعتذر إلى جيشه بأنه قهر العدو
عند جبل طابور وشتت شمل الأتراك وأخذ كل مدافعهم ومؤونتهم ولا يرى
من ضرورة لاطالة البقاء فى سورية فعاد خائباً مخذولاً وقد فتك الأمراض
والطاعون بعسكره المغلوب وطفق العربان وبعض الأهالى يتخطفونهم
ويطاردونهم ويقلقون وقد أظهر نابليون من الشفقة والعطف ما جعلنا نذكر له
تلك الشيمة السامية فإنه أركب بعض جنوده حصانه الخاص ومشى على
قدميه. وقد وصل مصر ولم يمكث به طويلاً وبرحها إلى فرنسا وترك القائد
كليبى وكيلاً عنه فظلت الجنود الفرنسية تكرر وتفر حتى أوائل سنة ١٨٠١م
وجلت عن البلاد.

(٧٧) ثور نابلس

كانت مناطق فلسطين الإدارية منذ إبتداء القرن التاسع عشر كما

يأتى:

القدس وملحقاتها تابعة لآيالة عكا، ونابلس وبلادها ملحقة بالشام
فاتفق أن فرض والى الشام ضريبة جسيمة على أهل نابلس فرفضوا دفعها بجرأة
وقوة فلم يأبه الوالى لهم بل شرع فى تحصيل الأموال غصباً
فثار أهالى جبل نابلس سنة ١٨٢٩هـ وقاموا سلطة الوالى وامتنعوا عن دفع
الأموال فطلبت الدولة إلى والى عكا عبد الله باشا أن يمدّ واليها فصدع بالأمر
ولقى النابلسيين شمالي فلسطين مستعدين وقد تحصنوا فى قلعة صفد فحاربهم
عبد الله باشا وعجز عن اخضاعهم فاستنجد بالأمير بشير الشهابى اللبنانى
فأتى برجاله وانضم إليه وحاربوا النابلسيين وردوهم على أعقابهم فاعتصموا
بقلعة صانور الواقعة بين جنين ونابلس وحاصروهم عبد الله باشا وضيق عليهم
فكانت النساء تغمر اللحف بالزيت وتشعلها وتقذف بها ليلاً خارج السور
كى يبصر رجالهن العدو ويرموه بالرصاص .

وفى أثناء ذلك هجمت طائفة من عرب الصقر على عسكر عبد الله
باشا لتمنعهم الاستقاء فطاردهم الأمير بشير وهزمهم إلى قرية عجة شمالي
صانور وأحرق كثيراً من القرى وأخيراً ضعف المحصورون وذاقوا من العناء
والتعب ما زهدهم فى القتال فسلموا . وليس من المعقول أن شرذمة قليلة غير
منتظمة ولا مدربة تقدر أن تعصى وتقاوم ولاية عكا التى كانت تمدها
وتساعدوا الدولة العلية بكل قوتها ولا غرو فان قسماً كبيراً من أهالى البلاد
انضم إلى عبد الله باشا وحارب رؤساء الثورة أسرة جرّار الذين لم يكن معهم
سوى حزبهم وحسب . ولم يرح عبد الله باشا البلدة حتى خرب القلعة وقسماً
كبيراً من السور ليأمن ويطمئن أنه إذا حدثت ثورة أخرى لا يجد الثوار حصناً

القسطنطينية عاصمة قياصرة الروم وغللك شرقى أوربا وشماليتها فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم" فألهب حماستهم ونشاطهم وهجموا مستميتين فاقتحموا الخنادق وثغروا الأسوار وهزموا الحامية ودخلوا البلدة حتى بلغوا سبيل الجامع الكبير وانتزعوا طاسة من طاساته وهى (موجودة فى متحف باريس) فظهر الجزار بنفسه وأخذ يحرض جنوده على الثبات وكان يفتك بكل من يعمد إلى الفرار فاستبسلوا وكافحوا نابليون وجنده وردوهم خائبين بعد ما لمع لهم النجاح وكادوا يظفرون بأمنيتهم. وفى ٢٣ آيار سنة ١٧٩٩ فك نابليون الحصار عن عكا وقفل راجعاً إلى مصر بعد أن اعتذر إلى جيشه بأنه قهر العدو عند جبل طابور وشتت شمل الأتراك وأخذ كل مدافعهم ومؤونتهم ولا يرى من ضرورة لاطالة البقاء فى سورية فعاد خائباً مخذولاً وقد فتك الأمراض والطاعون بعسكره المغلوب وطفق العربان وبعض الأهالى يتخطفونهم ويطاردونهم ويقلقون وقد أظهر نابليون من الشفقة والعطف ما جعلنا نذكر له تلك الشيمة السامية فإنه أركب بعض جنوده حصانه الخاص ومشى على قدميه. وقد وصل مصر ولم يمكث به طويلاً وبرحها إلى فرنسا وترك القائد كليبر وكيلاً عنه فظلت الجنود الفرنسية تكرر وتفر حتى أوائل سنة ١٨٠١م وجلت عن البلاد.

(٧٧) ثور نابلس

كانت مناطق فلسطين الإدارية منذ إبتداء القرن التاسع عشر كما

يأتى:

القدس وملحقاتها تابعة لولاية عكا، ونابلس وبلادها ملحقة بالشام
فاتفق أن فرض والى الشام ضريبة جسيمة على أهل نابلس فرفضوا دفعها بجرأة
وقوة فلم يأبه الوالى لهم بل شرع فى تحصيل الأموال غصباً
فثار أهالى جبل نابلس سنة ١٨٢٩هـ وقاموا سلطة الوالى وامتنعوا عن دفع
الأموال فطلبت الدولة إلى والى عكا عبد الله باشا أن يمدّ إليها فصدع بالأمر
ولقى النابلسيين شمالي فلسطين مستعدين وقد تحصنوا فى قلعة صفد فحاربهم
عبد الله باشا وعجز عن اخضاعهم فاستنجد بالأمير بشير الشهابى اللبنانى
فأتى برجاله وانضم إليه وحاربوا النابلسيين وردوهم على أعقابهم فاعتصموا
بقلعة صانور الواقعة بين جنين ونابلس وحاصروهم عبد الله باشا وضيق عليهم
فكانت النساء تغمر اللحف بالزيت وتشعلها وتقذف بها ليلاً خارج السور
كى يبصر رجالهن العدو ويرموه بالرصاص .

وفى أثناء ذلك هجمت طائفة من عرب الصقر على عسكر عبد الله
باشا لتمنعهم الاستقاء فطاردهم الأمير بشير وهزمهم إلى قرية عجة شمالي
صانور وأحرق كثيراً من القرى وأخيراً ضعف المحصورون وذاقوا من العناء
والتعب ما زهدهم فى القتال فسلموا . وليس من المعقول أن شرذمة قليلة غير
منتظمة ولا مدربة تقدر أن تعصى وتقاوم ولاية عكا التى كانت تمدها
وتساعدوا الدولة العلية بكل قوتها ولا غرو فان قسماً كبيراً من أهالى البلاد
انضم إلى عبد الله باشا وحارب رؤساء الثورة أسرة جرّار الذين لم يكن معهم
سوى حزبهم وحسب . ولم يرح عبد الله باشا البلدة حتى خرب القلعة وقسماً
كبيراً من السور ليأمن ويطمئن أنه إذا حدثت ثورة أخرى لا يجد الشوار حصناً

واتفقوا على محاربتيه ومقارعتيه فنكت جماعة منهم مالوا مع ابراهيم باشا فساعدوه ودلوه على الطريق والمياه فعاجل المخالفين قبل أن ينظموا حركتهم وفتح طول كرم ثم نابلس وعطف على القدس فاحتلها وقد تهافت الأهالي على قتاله من كل جانب فهاجمهم وكسر جمهور القبائل الشمالية عند شعفاط ولكن أهالي الخليل هزموه عند برك سليمان وحصلوه في القدس فاستعاد نشاطه وقارعهم ثانية فظفر بهم ودوخ البلاد وقتل من قتل وشنق من شنق وتزلف اليه البعض وهابه السكان فأصبحوا خاضعين لدولته وأوامره يقدمون الجنود ويدفعون الضرائب بلا ممانعة فبنى قشلاق باب الخليل واتخذ القدس له عاصمة ومكث يحكم في البلاد ١٠ سنوات وفي سنة ١٨٤٠م سنة ١٢٥٦هـ خذلت فرنسا وضغطت عليه دول التحالف فاضطرته للتخلي عن جميع فتوحاته وسمحت له بمصر ولاية ممتازة يتعاقب عليها نسله من بعده بشرط أن تظل خاضعة للاستانة فقبل مكرهاً وتقدم أحفاده إلى أن صاروا ملوكاً.

(٨٠) حرب القرم

طارت شرارة من فلسطين فأذكت حرباً ضروساً بين الدول الكبرى وسلمت هي منها كقنبلة انبعثت من فوهة مدفع فلم تضربه وانفجرت في شرق أوروبا وقفقاسية فخربتهما. وأسباب هذه الحرب كثيرة منها التنافس المستمر بين قسس الأرثوذكس واللاتين وتسابقهم إلى حيازة الأماكن المقدسة في فلسطين ومن خلفهم روسيا تؤيد الأرثوذكس وفرنسا تعضد اللاتين لا لشفقة انسانية أو عاطفة دينية ولكن لبسط نفوذهما في الشرق وللتدخل في

شئون الدولة العثمانية فرجحت كفة فرنسا سنة ١٧٤٠م وفازت بعقد معاهدة مع الدولة العثمانية نصت على أن لفرنسا الحق بحماية مسيحي الشرق فاشتد أزر الكاثوليك واستولوا على الكنائس وتصرفوا بها تصرف الممالك المستقل فاستاء الأرثوذكس وغضبت حاميتهم روسيا وأخذت تسعى بنشاط لالغاء هذه المعاهدة ومحقق هذا النفوذ . فلما شغلت فرنسا بحروب الثورة الأهلية دفعت روسيا قسس الأرثوذكس وكهنتهم إلى التحرش بالكاثوليك فتعدوا على حقوقهم وسلبوهم إياها فامتعضت فرنسا وصبرت كارهة إلى أن تعين نابليون الثالث وفاوض الدولة العثمانية وكاشفها برد حقوق أهل ملته المغصوبة فألف الباب العالي لجنة من أشخاص مختلفي المذهب وأناط بهم فصل هذا الخلاف بمقتضى المعاهدات الدولية القديمة فاجتمع الأعضاء وتذاكروا مرات ثم قرروا فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٦٨هـ و ٤ شباط سنة ١٨٥٢م أن للكاثوليك الحق فى امتلاك بعض الأماكن المقدسة دون غيرهم فعارضت روسيا وحالت دون انفاذ هذه الاتفاقية وهددت الباب العالي بالحرب إذا هو لم يعدل عن رأيه. وأصررت فرنسا على التمسك بحقوقها فترددت الدولة حيناً ثم جازمت ونفذت مضمون قرار اللجنة الأخيرة. فاتخذت روسيا هذا العمل ذريعة لتطبيق وصية بطرس الأكبر "الاستيلاء على أستانبول والمضايف" وأرسلت البرنس منشيكوف سفيراً غير اعتيادى إلى الأستانة ليخبر المابين فى شأن الأماكن المقدسة فذهب وياشر مناوراته السياسية وطلب بالحاح شديد احترام معاهدة خونكار القاضية بأن يكون لروسيا الحق بحماية جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية فمأطله الباب العالي ثم خاشنه فقطع علاقته من حكومة الأستانة

وهددها باحتلال امارتى الافلاق والبغدان "رومانيا" فتوترت السياسة وتحزبت انكلترا لفرنسا وعضدتا الدولة العثمانية فأعلنت روسيا الحرب واجتاز عساكرها نهر البروث واحتلت الولاياتين فعلاً فحشدت الدولة العثمانية جنودها وجمعت جمعاً كبيراً من البلاد العربية^(*) وبعثت بهم إلى حدود روسيا واشترك معهم جنود الانكليز والفرنسيين واحتدم القتال فنال الفريقان مائناً المحارب ولكن روسيا خذلت وتركت حصونها ومعقلها.

وفى سنة ١٣٢٤هـ وسنة ١٩٠٦م اختلفت الحكومة العثمانية والدولة الانكليزية على تعيين حدود مصر وفلسطين ثم اتفقتا على أن يختار كل منهما لجنة تنوب عنها فى فض الخلاف فاجتمع الأعضاء وخططوا الأرض وضبطوا الحدود وأصلحوا ذات البين.

(٨١) نقود وموازين ومكايل فلسطين

ما عرفنا حكومة كانت معرضاً تجارياً لسلع وبضائع دول أوروبا مثل البلاد العثمانية فانها كانت مقيدة بسلاسل الامتيازات الأجنبية مغلولة بأغلاف المذاهب الدينية حتى لعبت بها الأهواء وطوحت المنازع وقذفت بها من عل إلى درك الاستعمار. ومن الدلائل الواضحة على فوضى الحكومة العثمانية واستعمار أوروبا الاقتصادى لها أنها كانت عاجزة عن نشر نقودها فى مملكتها

(*) كان أهل المدينة أو القرية يذهبون بعيداً وراء الجنود المجندة فيودعونهم بالبكاء والنحيب وحينما يعودون من غيبتهم يعملون لهم الأفراح والولائم والمهرجانات.

ضعيفة عن توحيدها وترويجها بسعرها القانوني فلذا أخذ يتداولها كل بلد كما يريد وتفاوتت الأسعار وتعددت النقود وتباينت الموازين واختلفت المكايل وهذا جدول يدلنا على أسعار النقدين الليرة الأفرنسية والريال المجيدى "التركى" فى أسواق فلسطين.

المدينة	الليرة الأفرنسية	الريال العثمانى "المجيدى"	البشك
القدس	١٠٩	٢٣	٣
نابلس	١١٨	٢٥	٣،١٣
يافا	١٢٤	٢٦	٣
غزة	٢٢٢	٤٧	٦
لواء عكا	١٠٨	٢٣،١٢	٣،١٦
الناصره	١٣٠	٢٧	٣

وزد على ذلك أنه كان فى بعض القرى أسعار خصوصية للنقود غير داخله فى ما ذكرناه مما يدل على أن الحكومة فى واد والناس فى آخر لا يأتمرون بأمرها ولايسرون سيرها حتى أن الليرة الأفرنسية راجت أكثر من الليرة العثمانية فكان إذا باع أحد دابته أو ساوم على سلعته بليرات انصرف الذهن إلى الليرات الأفرنسية ومن أراد غيرها لزم عليه التعيين وحسبنا شاهداً المتليك الأسود وما أحدثه من الشعب فى القدس فإن بعض التجار امتنع عن قبضه فسرى ذلك إلى الجميع ورفضوا استعماله والتداول به فنقصت ٧٠ فى

المائة فأدركت الحكومة هذا الخطر الاقتصادي وخشيت تفشيهِ في البلاد الأخرى فتلافتهُ. وضرب اليهود لهم نقداً "تنكة ببارتين ونصف" فراجت بين أهالي القدس وشاعت بين الجميع.

أما المكاييل فليست بأحسن من النقود فانها مختلفة الحجم متعددة النوع وهي: ثنية، سدسية، ربعية، صاع، طبة، كيل، كيلة، مد، مسحة فبعض البلاد تستعمل بعض هذه الأنواع وبعضها لايعرفها وقد اتخذت عيارات أخرى والبلاد التي تشترك في مكيال واحد تختلف في كبره وصغره فطبة نابلس ثلاثة عشر رطلاً وثلاث رطل وطبة القدس ثمانية أرطال وصاع بنى صعب ثلاثة أرطال وصاع بنى زيد ستة ونصف ثم لكل بلاد إصطلاحات واعتبارات أخرى من حيث الكيل فبعضها يهز الصاع ويلبدها ويتفنون في سمله وطنطرتة وبعضها يستعمل كيل المرسل^(*) وكذلك الموازين فأنها متباينة جد التباين فالرطل المشهور في أكثر المدن ١٢ أوقية ولكنه في عكا وبلادها أقتان فقط وامتاز بعض البلدان بأرطال خصوصية لبعض أنواع المبيعات فرطل الدخان ١٦ أوقية والعسل ١٨ واللحم ١٦ أو ١٨ أو ٢١ والقطين ١٨ أو ٢١ وغير ذلك وجرة الزيت متفاوتة أيضاً فهي في نابلس غيرها في القدس وفي يافا غيرها في حيفا وعكا وللقرى عيارات خاصة فجرة الزيت تتراوح بين سبعة أرطال إلى تسعة و ١٠ و ١١ و ١٦ و ١٨ وهلم جرا فالمسافر الذي يطوف فلسطين يفتقر إلى درس طويل واختبار كبير لمعرفة النقد وأسعاره وفهم

(*) بلا هز ولبد بل كما يسع الصاع.

الموزونات والمكيلات فكيف به إذا ساح فى جميع الأقطار العثمانية.

(٨٢) بعض أسواق فلسطين

كان للعرب منذ جاهليتهم أسواق ينتجعونها ويرتادونها فيستبضعون منها ما يحتاجون ويعرضون ما كانوا مستغنين عنه وهناك كانوا يتطارحون الأشعار ويتناشدونها فإذا ما انقضى زمن الموسم انصرف بعضهم إلى البوادي والمنازل واستأنف البعض الآخر السير حيث المواسم الأخرى وقد أخذ سكان فلسطين أسواقهم عن تلك المواسم الكبيرة وقصروها على عرض المبيع فقط "أسواق تجارية" فترى الأقوام يتوافدون إليها من الصباح زرافات زرافات إلى أن تغص بالجماهير الطالبة والعارضة فيجول الشارى ويتردد بين البائعين وينتقى منهم ما يعجبه ويروق له فيسومه ويشتره ثم ينصرفون قبيل العصر واشهر هذه الأسواق: سوق اللد وتقام يوم الاثنين من كل أسبوع، أسواق الناصرة الرملة وبئر السبع وتقام يوم الأربعاء وسوق بنى صعب وتقام يوم السبت، أما أسواق القدس وغزة ومجدل وعسقلان ويافا والخليل ونابلس فكلها تقام يوم الجمعة من كل أسبوع فلو اعتنت الحكومة بهذه الأسواق الطبيعية ووسعتها ونشطتها وحولتها إلى معارض تجارية وأدبية لاستفادت منها كثيراً.

(٨٣) أقسام فلسطين الادارية

مر بفلسطين أطوار شتى كانت تنفرد بنفسها أو تقتسمها مصر أو سورية ثم لا تلبث أن تنضوى تحت جناح أحدهما أو تنضم سورية ومصر إلى العراق وتصير جميعها كتلة واحدة وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم أما فى القرن

التاسع عشر فقد انتاش فلسطين تقلبات ادارية كثيرة نلخصها كما يأتي:

كانت عكا حاضرة فلسطين الادارية الوحيدة ثم اقتطعت صيدا قسماً منها وبعد حين أخذت الشام نابلس وبلادها وظلت البقية تابعة لعكا ثم التحقت جميعها بالشام مركز الحاكم العام "باشا الدورة" أما النظار والمسلمون "حكام البلاد" فكانوا وطنيين من فلسطين يحكمون مقاطعاتهم ويجبون الضرائب ويجمعون الجنود ويطوف عليهم "باشا الدورة" فيأخذ منهم ما تعهدوا به. فلما اعتزم السلطان محمود على الاصلاح الغى فرق الانكشارية^(*) وأبادها ومحا الطوائف الأخرى كالسلاحدارية والعلوفجية واستبدل بها فرقاً منظمة وغير العمامة بالطربوش الرومي وتزى بالزى الأوروى وأمر باتخاذ زياً رسمياً وعسكرياً. ثم جاء من بعده من الملوك فأدركوا أنهم غرباء فى البلاد العربية وتهجموا على فلسطين فنفوا بعض النظار "أمراء الأقطاع" إلى طرابزون وحولوا النظارات والمتسلميات إلى مديريات على رأسها وطنيون ثم ألغيت المديريات وتجرد المشايخ من الوظائف المحلية الاقطاعية واستولى الأتراك على البلاد فعلاً فأمروا بتحرير النفوس وطوبوا الأرضين ونظموا إدارة الأمن العام "البوليس والجنדרمة" وأسسوا العدلية فكانت محاكم فلسطين تستأنف الحكم إلى عدلية الشام ثم تحولت إلى عملية بيروت وأمتازت القدس فصارت متصرفية مستقلة تخابر الأستانة مباشرة فى الأمور الإدارية وفى ابتداء القرن العشرين تأسس فيها محكمة استئناف فانضم إليها لواء نابلس وظل لواء عكا

(*) له بقية فى فلسطين عائلة أبى جعفر فى الرملة ويوجد عائلات أخرى فى القدس ونابلس وعكا وغيرها.

ملحقاً ببيروت.

ومن ثم حكم العثمانيون البلاد بلا واسطة فأرسلوا مأموريهم الأتراك وقبضوا دفعة الإدارة واتصلوا بالشعب ولكنهم تقربوا من أصحاب النفوذ وراعوا امتيازاتهم القديمة لاستمالتهم فتمادوا في غطرستهم واستعانوا بقوة الحكومة وأخذوها آلة لتنفيذ مآربهم فتسابقوا إلى تقديم الطاعة وترويج أوامر الحكومة ابتغاء الحزوة عند المأمورين وكان يعد سعيداً من كسب ثقتهم وظفر بودهم لأنه يستفيد من صحبتهم بغض أبصارهم عن أعماله مهما كانت فيطش ويستبد بالضعاف والفقراء ويغتصب أملاكهم ويمتص دماءهم ويبتز أموالهم ويعلو علواً كبيراً.

(٨٤) قيس ويمن وشيئ عن الاقطاع

هذا بحث جليل وددنا لو أن في الكتاب متسعاً فنفيه حقه ونأتى على تاريخه بالتفصيل ولكن صدر الطرس ضيق والموضوع محصور في فلسطين فلذلك نجمل ما خرج عنها وندججه في أخبارها لئلا ينبتر البحث وتضيع الفائدة.

إن هذا الانقسام ظهر بين العرب قبل الإسلام وظل إلى يومنا هذا مصطبغاً بصبغات عديدة وأسماء مترادفة منها: العدنانية والقحطانية والحجازية واليمانية في الجزيرة. والقيسية واليمانية في جميع الممالك الإسلامية خلاً الأناضول وغربها. اليزبكية والجنبلاتية في لبنان والفقارية والقاسمية في مصر. أما أسباب هذا الانقسام فإن أهل اليمن كانوا يدعون أنهم أشرف

عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسي واليمنى.

أما بلاد الخليل فأكثر سكانها قيسية وأمرأؤهم دارو عمر مركزهم فى دورة وعائلة العزى فى بيت جبرين وأما دار اللحام فانهم يمنيون. وأمرأء اليمنية فى مقاطعة القدس هم دار أبو غوش فى بنى مالك ومركزهم قرية العنب ودار على شيخه فى بنى حسن ومركزهم المالحه ودار عريقات فى الوادية ومركزهم أبو ديس والقرعان فى البيرة والزيادنة "دار الخطيب" فى بيت أكسا والدباونة فى دير دبوان والبيتونى فى بيتونية ودار عقل فى بنى حمار "حمير" ومركزهم نعلين أما أمرأء القيسية فدار سمحان من بنى حارث ومركزهم راس كوكر والعويسات فى بنى عمير ووادى الصرار ومركزهم البرج والبراغثة فى بنى زيد وبنى مرة وبنى سالم ومركزهم دير غسانه ودار الطويل فى البيرة. ثم كان فى المقاطعات الأخرى أمرأء ينضمون إلى هذه الأحزاب سياسة ففى ساحل يافا عرب الجرامنة ومقابلهم أبو كشك وفى بنى صعب الجبوسى ومركزهم كور ويقابله البرقاوى فى الشعراويات ومركزه شوفة أما قاسم وريان فكانا يقتسمان بلاد جماعين وجورة عمرة ومركز الأول بيت وزن ومركز الثانى مجلد يابا وفى مشاريق البيتاوى دار الحاج محمد ومركزهم بيت فوريك ويقابلهم بنو شمس فى بيتا أما غور الفارعة فكانت تقتسمه عرب المسعودى والفاعور وكان أمير نصف بلاد جنين "مشاريق الجرار" جرّار وهو قيسى ومركزه صانور ومناظره الأمير الحارثى فى بلاد حارثة وقبره فى جنين فلما انقرضت ذريته خلفه دار طوقان ونازعوا جرار السيادة وبعد أن جاء إبراهيم باشا استعلى دار عبد الهادى "قيسية" وشطروا البلاد فانضم إليهم

جوب كبير وهم وجوار من فصيلة واحدة. وكان أمراء غور بيسان عرب الغزاوية والصقر وفي ساحل حيفا دار ماضى وبجانهم أهالى صبارين ودار الشبلى فى طيرة حيفا أما فى بلاد عكا فكانوا عرب الحواسى "الهنادى" ومركزهم غابة شفا عمرو ولم يكن لغيرهم هناك عصيات قوية مجتمعة ولا عائلات كبيرة بل كلما عظم شأن رجل انساق إليه حزبه وسيطر على ما جاوره.

هكذا كانت تقسم البلاد وهؤلاء هم زعماء الأحزاب فكان إذا شجر خلاف داخلى فى منطقة واحدة انضم أبناء الحزب إلى بعضهم بعضاً وقاوموا الحزب الآخر ومن أحس فى نفسه الضعف استمد من الحزب المجاور له واستنصر بنى قومه على عدوه وقد تفاقم الخطب فى القرن التاسع عشر وتنازع الحزبان فما كان أحدهم يجرؤ على المرور ببلاد الآخر معلناً شعار قومه. فكان إذا خطب اليمانية عروساً قيسية لا يذهبون إلى جلبها إلا "بفاردة" جمع كبير مسلح ولا يجوز لهم أن يرفعوا أعلاماً بيضاء أو يلبسون العروس حلة (هدماً) بيضاء "شعرا اليمينين" حتى أنهم أخذوا عروساً يمنية من بلاد يمانية فلا يسمح لهم أن تجتاز البلاد القيسية وهى لابسة البياض وأن امتنع أصحاب العرس عن ذلك يعلن الحرب ويستطير الشر وكذلك القيسية فانهم كانوا مجبورين على اتباع هذا العرب ولا ينكرون على البلاد سيادتها وعاداتها فإن من يرفع شعاره فى بلاد جاز له أن يتصرف بها.

وآخر حرب نشبت بين قيس ويمن الحرب التى وقعت فى قرية خربشة.

عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسي واليمنى.

أما بلاد الخليل فأكثر سكانها قيسية وأمرأؤهم دارو عمر مركزهم فى دورة وعائلة العزى فى بيت جبرين وأما دار اللحام فانهم يمنيون. وأمرأء اليمنية فى مقاطعة القدس هم دار أبو غوش فى بنى مالك ومركزهم قرية العنب ودار على شيخه فى بنى حسن ومركزهم المالحه ودار عريقات فى الوادية ومركزهم أبو ديس والقرعان فى البيرة والزيادنة "دار الخطيب" فى بيت أكسا والدباونة فى دير دبوان والبيتونى فى بيتونية ودار عقل فى بنى حمار "حمير" ومركزهم نعلين أما أمرأء القيسية فدار سمحان من بنى حارث ومركزهم راس كوكر والعويسات فى بنى عمير ووادى الصرار ومركزهم البرج والبراغثة فى بنى زيد وبنى مرة وبنى سالم ومركزهم دير غسانه ودار الطويل فى البيرة. ثم كان فى المقاطعات الأخرى أمرأء ينضمون إلى هذه الأحزاب سياسة ففى ساحل يافا عرب الجرامنة ومقابلهم أبو كشك وفى بنى صعب الجبوسى ومركزهم كور ويقابله البرقاوى فى الشعراويات ومركزه شوفة أما قاسم وريان فكانا يفتسمان بلاد جماعين وجورة عمرة ومركز الأول بيت وزن ومركز الثانى مجلد يابا وفى مشاريق البتاوى دار الحاج محمد ومركزهم بيت فوريك ويقابلهم بنو شمس فى بيتا أما غور الفارعة فكانت تفتسمه عرب المسعودى والفاعور وكان أمير نصف بلاد جنين "مشاريق الجرار" جرّار وهو قيسى ومركزه صانور ومناظره الأمير الحارثى فى بلاد حارثة وقبره فى جنين فلما انقرضت ذريته خلفه دار طوقان ونازعوا جرار السيادة وبعد أن جاء إبراهيم باشا استعلى دار عبد الهادى "قيسية" وشطروا البلاد فانضم إليهم

جوب كبير وهم وجرار من فصيلة واحدة. وكان أمراء غور بيسان عرب الغزاوية والصقر وفي ساحل حيفا دار ماضى وبجانبيهم أهالى صبارين ودار الشبلى فى طيرة حيفا أما فى بلاد عكا فكانوا عرب الحواسى "الهنادى" ومركزهم غابة شفا عمرو ولم يكن لغيرهم هناك عصبية قوية مجتمعة ولا عائلات كبيرة بل كلما عظم شأن رجل انساق إليه حزبه وسيطر على ما جاوره.

هكذا كانت تقسم البلاد وهؤلاء هم زعماء الأحزاب فكان إذا شجر خلاف داخل فى منطقة واحدة انضم أبناء الحزب إلى بعضهم بعضاً وقاوموا الحزب الآخر ومن أحس فى نفسه الضعف استمد من الحزب المجاور له واستنصر بنى قومه على عدوه وقد تفاقم الخطب فى القرن التاسع عشر وتنازع الحزبان فما كان أحدهم يجرؤ على المرور ببلاد الآخر معلناً شعار قومه. فكان إذا خطب اليمانية عروساً قيسية لا يذهبون إلى جلبها إلا "بفاردة" جمع كبير مسلح ولا يجوز لهم أن يرفعوا أعلاماً بيضاء أو يلبسون العروس حلة (هدماً) بيضاء "شعرا اليمينين" حتى أنهم أخذوا عروساً يمنية من بلاد يمانية فلا يسمح لهم أن تجتاز البلاد القيسية وهى لابسة البياض وأن امتنع أصحاب العرس عن ذلك يعلن الحرب ويستطير الشر وكذلك القيسية فانهم كانوا مجبورين على اتباع هذا العرب ولا ينكرون على البلاد سيادتها وعاداتها فإن من يرفع شعاره فى بلاد جاز له أن يتصرف بها.

وآخر حرب نشبت بين قيس ويمن الحرب التى وقعت فى قرية خرشة.

وقد أخذت هذه العادة فى الخفاء والانمحاء فلا يمضى عليها فترة من الدهر إلا وتنسى ولا يدرى الرجل أهو قيسى أم يمانى.

(٨٥) الحرية فى فلسطين

تكونت الدولة العثمانية بقوة السلاح وبنيت على الحروب وأغفلت كل شئ فتقدمهم من كان متأخراً عنهم وعلاهم من كان دونهم فحاول السلطان محمود الاصلاح فلم يتوفق تماماً ولكنه أزاح عن أعين المفكرين نقاباً وجاء من بعده السلطان عبد المجيد فنشر خط كلخانة سنة ١٢٥٥هـ وسنة ١٨٣٩م ونظم القوانين والمحاكم والإدارة الملكية وغير ذلك مما تتطلبه الحضارة ويلائم حالة الأمة إلا أن إرادة السلطان كانت فوق كل قانون فجاء مذحت باشا بطل الحرية وأبو الدستور ورئيس أحرار العثمانيين وتعهده للسلطان عبد الحميد قبل أن يجلس على العرش أن يمهّد له السبل ليكون سلطاناً بشرط أن يمنح الدستور للأمة ويمتّع البلاد العثمانية بالحرية فوعده بتنفيذ ذلك ولما بويع عبد الحميد بالسلطنة أعلن الحرية ونشر القانون الأساسى وأمر بانتخاب نواب عن جميع البلاد فذهب عن القدس العلامة الكبير يوسف ضيا باشا الخالدى وفتح المجلس سنة ١٢٩٤هـ ولكن لم يطب لعبد الحميد هذا العمل وشعر أنه مقيد ففضّه وأغلّقه سنة ١٢٩٥م وشرط الأحرار وطردهم ونفاهم وبطش بالمتنورين وساس البلاد بالاستبداد والإرهاب فأكبر ذلك الشبهة العثمانية الراقية وأبوا أن يخضعوا لسلطة رجل غشوم فعملوا سراً وعلناً وفازوا بأمنيّتهم فأعلنوا الحرية مرة ثانية فى عهد هذا السلطان وضبطوا الأمور حذرين من

خداع المستبدين واستمالوا الجيش العسكرى واحتلوا المراكز المهمة وأذاعوا الحرية فى طول البلاد وعرضها وكتمت فى القدس حتى جهز بها الحاج راغب أفندى الخالدى والمرحوم حسين أفندى سليم الحسينى وكان شعار الناس قاطبة حرية عدالة مساواة فكثرت الفساد وعم التعدى وضعفت الادارة الملكية وسادت الفوضى وضوءلت هيئة الحكومة وطمح الناس إلى احتقار الحكام وجعلوا معنى الحرية فظنوها الاشتراكية أو الفوضوية فكان الرجل ينهب مال غيره ويستبد بالضعيف وإذا عنفته أو زجرته قال حرية مساواة.

ثم أمر بانتخاب نواب عن البلاد فذهب عن لواء القدس المرحوم روحى بك الخالدى^(*) وسعيد أفندى الحسينى وحافظ بك السعيد (يافا) وعن لواء نابلس الشيخ أحمد أفندى الخماش وعن لواء عكا الشيخ أسعد أفندى شقير وفتح المجلس وبعد حين باغتهم السلطان عبد الحميد وقتك بالأحرار وأعلن ثورة ضدهم باسم الدين وحاول القضاء على الروح الجديدة فداهمه محمود شوكت باشا الفاروقى واحتل الآستانة فاجتمع النواب وقرروا خلع السلطان سنة ١٣٢٥هـ وسنة ١٩٠٨م وأمنوا شر الطاغية الكبرى وجعلوا مكانه محمد رشاد الخامس وهنالك تكبر الاتحاديون وتولوا ادارة البلاد فقال بعضهم باستزك العناصر الأخرى أو إبادتهم ولعبت الأيدى الأجنبية فهب رجال العرب وانضم إليهم متعدلو الأتراك فأسسوا حزب الائتلاف وزاحموا الاتحاديين وحاولوا أن يكثروهم فى المجلس فطافوا البلاد وخطبوا فلم ينجحوا

(*) كان من علماء الأمة العربية وفضلائها تقلب فى مناصب عالية وله مؤلفات جلية بعضها طبع والبعض الآخر جاهز للطبع.

وذهب عن القدس ثانية روحى بك الخالدى وعثمان أفندى النشاشيبي وأحمد عارف الحسينى (غزة) وعن نابلس حيدر بك طوقان وعن عكا الشيخ الشقيرى فلم تطل مدتهم وحل المجلس وأعيد الانتخاب ثالثة فحاز الأكثرية عن القدس راغب بك النشاشيبي وسعيد أفندى الحسينى وفيضى أفندى العلمى وعن نابلس توفيق أفندى حماد وأمين بك عبد الهادى وعن عكا عبد الفتاح أفندى السعدى. فتنبه العرب وأدركوا أنهم مغلوبون على أمرهم والأتراك مسيطرون عليهم فلم يطمئنوا ولم يرضوا عن هذا الجور فهب أهالى سورية مطالبين بالاصلاح على قاعدة اللامركزية أى استقلال داخلى إلى جميع بلاد العرب وجهر بعض النواب والوجهاء بأمنيتهن ونادى طلاب مدارس الأستانة بهذه الدعوة وعقدوا الاجتماعات وأسسوا النوادى والجرائد والمجلات ليدافعوا عن قضيتهم ثم عقدوا مؤتمراً عاماً فى باريس تداولوا فيه أبحاثاً هامة وقرروا قرارات خطيرة وبنوا دعائهم فى سائر الأقطار والأمصار فكان داعيتهم فى القدس أبو حسين النشاشيبي فأشبع روح الشباب بتعاليمه الوطنية حتى عالنوا الحكومة بأمانيتهم وجاهرُوا ونقمُوا سياسة الأتراك ووجهوا نظرهم نحو الجزيرة وعلقوا آمالهم بمنقذ العرب السلطان حسين الهاشمى فاستوحشت منهم الحكومة العثمانية وترضتْهم وهادنتهم واعتزمت على أن تحدث تغييراً فى قوانين وشكل إدارة البلاد العربية وقد نال بعض رجال العرب مناصب عالية وأمرت الحكومة أن تكون اللغة العربية رسمية فى البلاد التى يكون أكثرها عرباً. وبينما هم يستخلصون حقوقهم تدريجياً فاجأتهم الحرب العامة فأخذت الجذوة العربية المتقدة فى الصدور المندفعة والأنوف الحمية.

(٨٦) ثورة حوران والكرك

أشرفت الحرية في البلاد العثمانية فشملت السكان نشوة طيش وتافت نفوس الاتحاديين إلى تجديد دولتهم في سنة واحدة ليضارعوا دول أوروبا العظمى وكادوا يدركون غايتهم لو سلموا من الدسائس الأجنبية وحكموا العقل قليلاً ولكنهم تهوروا وكلفوا البلاد فوق طاقتها فطالبوا البدو بتقييد نفوسهم واجبارهم على التجنيد وأكروههم على دفع الضرائب تماماً فاستاء لذلك دروز حوران وشمخو وتعالوا ونبذوا الأوامر وعصوا الأحكام فانقض عليهم سامر باشا الفاروقى كالصاعقة وأدبهم وأخضعهم ونفى زعيمهم وطرد قادتهم وشيوخهم فأذعنوا مسلمين وسلموا طائعين. وبلغه أن أهالى الكرك قد امتنعوا عن تعداد النفوس وفتكوا بالمأمورين بتحريض عائلة المجالى فزحف اليهم واجتاز شرقى الأردن وأدخلهم فى الطاعة وكتب نفوسهم وعد أغنامهم ونفى زعيمهم توفيق بك المجالى وجعل أرضهم بلاداً عثمانية فعلاً وقسا عليهم ونكل بمن تعدى على المأمورين واستهان بأوامر الحكومة الرسمية ثم عاد راجعاً. وقد حدث فى هذه الفترة أن اكتسحت النمسا بلاد البوسنة والهرسك وانقضت إيطاليا على طرابلس الغرب فاعترضها السنوسى وانضم إليه زمرة من أبطال الاتحاديين فأتعبوها وأشجوها.

واجتمعت دول البلقان وحاربوا الدولة العثمانية فهزموها واغتصبوا بلادها المأهولة بالأتراك والعناصر الأخرى وهوت الدولة التركية من شامخ مجدها.

الفصل الخامس عشر

(٨٧) الحرب العظمى فى فلسطين

هبت عاصفة على العالم فهزت الشرق والغرب وخطفت العقول والنهى وسلبت الألباب والحجى فأصبح المفكرون خاضعين للعاطفة الحيوانية قرمين لسفك الدماء فأعلنت دول أوروبا الكبرى الحرب العظمى والتزمت الدولة التركية الحياد إلا أنها نظمت دوائر الرديف وحولتها إلى شعب أخذ عسكر ووزعت على جميع القرى مغلفات كبيرة مغلقة وأمرت المختار أن لايفضوها إلا متى أذنتهم وفى ٢٨ تموز سنة ١٩١٤م استطار الشر فى الغرب وأعلنت النمسا الحرب على الصرب ودخلت المانيا لوكسمبرج وأنذرت البلجيك فى ٢ آب سنة ١٩١٤م وفى ٤ منه أنذرت انكلترا المانيا ثم أعلنت عليها الحرب وفى ٦ منه أعلنت النمسا الحرب على روسيا وفى ١٠ منه أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا وفى ١٢ منه أعلنت انكلترا الحرب على النمسا وفى ١٣ منه أعلنته فرنسا على النمسا وفى ٢٠ منه احتل الألمان بروكسل عاصمة البلجيك وفى ٦ أيلول سنة ١٩١٤م اجتازوا المارن.

وهناك أمرت الحكومة العثمانية بالنفير العام "سفر برلك" وجمعت كافة جنودها المعلمين وساققتهم إلى البلاد ذوات المياه وسلمتهم سلاحاً وأخذت تترنهم على الأصول العسكرية الألمانى وشكلت لجناً لجمع التكاليف الحربية والمبايعات وأمرتها بمصادرة جميع مايلزم الحكومة ويوجد عند الأهالى من لباس

ومأكل وحيوان ركوب أو عربة نقل فأخفى الأهليون سلعهم وقطعت عن البلاد الواردات الخارجية فتصاعدت الأسعار ودخل السكان فى أزمة لم يكونوا يتوقعونها من قبل فكنا نرى الحالة حالة حرب لكن الحكومة العثمانية كانت محايدة حتى أتاها نبا من السير ادورد غرى وزير خارجية إنجلترا أنه أخذ البارجة "السلطان عثمان" التى تعمل لحسابهم فى مصانع أرمسترانغ الانكليزية فأكدت له تركيا أنها تنوى المحافظة على الحياد التام وما غرضهم من تعبئة الجيش ألا ليكونوا مستعدين للمفاجآت والطوارئ^(*) فأجاب غرى أنهم مضطرون لابقاء جميع البوارج فى مياهم وسيعوضون الأتراك ما لحقهم من الخسارة. وفى ١٠ منه دخل الطرادان الألمانيان غوبن وبرسلو الدردنيل فقبلتهما الحكومة العثمانية وأعلنت فى اليوم التالى أنها ابتاعتهما. وفى ١٦ منه أبلغت دول الاتفاق الحكومة أنهن يحافظن على استقلالها وسلامة أملاكها من طمع كل عدو إذا بقيت معتصمة بالحياد مدة الحرب وفى ٩ أيلول و ١٨ شوال سنة ١٣٣٢هـ ألغت الدولة العثمانية الامتيازات الأجنبية فاستنكر هذا العمل جميع الدول حتى ألمانيا والنمسا وتحول الدردنيل والأستانة والبسفور بسرعة إلى منطقة ألمانية يسيطر عليها الألمان الذين خلقوا الأسلوب الفنى لجر الحكومة العثمانية إلى الحرب وأوعزوا إلى النسافات التركية فسقطت ثلاث منها فى ٢٧ تشرين أول على ميناء أوديسا وأغرقت سفينة وعطلت باخرة

(*) كان الصدر الأعظم العثمانى مصراً على التزام الحياد ويؤكد كل يوم لسفراء الدول أنه لا يقرر بأمته أما وزير الحرب أنور باشا وحزبه فكان همهم حمل قومهم على الانضمام إلى ألمانيا.

أفرنسية فغضت السفراء وقطعوا علائقهم من الاستانة وطلبوا جوازات السفر حالاً ففاز بعض الاتحاديين بأمنيتهم لاسيما أن جيشهم المدرب قد بلغ مجموعه نصف مليون جندي مسلح وربع مليون في معسكرات التدريب فأعلنوا الجهاد العام وضربوا الطبل وامتشقوا الحسام. وانقسمت ساحات الحرب في البلاد إلى أربعة مواضع (١) الدردنيل، (٢) القفقاس، (٣) العراق، (٤) الحجاز وفلسطين. وانا نترك الأقسام الثلاثة لبعدها عن موضوعنا ونتكلم عن فلسطين والثورة العربية الفتية.

تعين أحمد جمال باشا ناظر حربية الأتراك قائداً عاماً إلى البلاد العربية وكان تحت إمرته الفيلق الرابع والجيش الثامن وهو مؤلف من ٤٠ ألف مقاتل فتأخر جمال باشا برهة وجاء البيكباشي ممتاز بك^(١) "قائد الف" فحشد من قبائل بدو السبع الفين ما بين فرسان وركبان ومشاة واخترق الصحراء الجرداء الخالية من البشر لأن الأنكليز تراجعوا إلى ماوراء القنال ثم ورد أشرف بك^(٢) ومعه لفييف من الأفغان والجركس والمغاربة ومتهوسى الوطنية وكان مستشاره الألماني هلدن غورف وبيده أمر من أنور باشا باعطائه ما يريد ثم التحق بممتاز وأوقعوا بطلائع الأنكليز وناوشوهم مرات فلم يحلوا منهم بطائل.

وكانت الأوامر صادرة بتأسيس مداخر الأرزاق "أنابر" وبناء المؤسسات العسكرية وحفر الآبار وجر المياه وتعمير الطرقات وتشكيل

(١) ياور أنور باشا اقتداء بموسى بن نصير لما أرسل مولاه طارق بن زياد إلى الأندلس وفتحها.

(٢) جركسى الأصل ورئيس عصابة في البلقان ومن أبطال الثورة الأنورية والانقلاب العثماني وكان ملبوس عصابته الجلد.

"أقوال" قوافل الجمال وغير ذلك نخص حلاً من هذه المواضيع بكلمة على حدة.

(٨٨) التموين "مداخر الأرزاق"

قبل أن أقدمت الدولة العثمانية على الحرب أخبرت الأمة بإعلان النفير العام وكانت لتوقع العصيان فأطاعها الأهليون ولبوا نداءها فسرت وعينت قومسيونات "لجاناً" لجمع الذخيرة فصاروا يطوفون الحوانيت ويأخذون منها ما أرادوا ويجمعون الحيوانات والدواب والأرزاق ويقدرّون الأثمان ويعطون لأصحاب السلع سندات بقيمتها حتى كثرت لديهم الأرزاق فأمرّوا بتأسيس مداخر لها في كل محل وجعلوا المدخر العام في بئر السبع فكان لا يخلو مركز عسكري أو ملكي من انبار ثم توسعوا فأنشأوها في الصحراء ونشروها من شمال البلاد إلى قرب قناة السويس.

(٨٩) وسائل النقل "النقلات"

تكدّست الأرزاق في مخازن الدولة فاحتاجت إلى ما ينقلها ويوصلها إلى الصحراء حيث الجبهة الحربية وأنى يتم لها ذلك ولا طرق عربات ولا خطط حديدية تشتبك بها البلاد ولتصل بها الصحراء فاحتاطت لتدارك هذا النقص وجمعت ما يربو على ٤٠ ألف جمل غير عجلات النقل وطابور الحمير والبغال والحماله^(*) وقسمتها إلى شعب وطوابير وأقوال مرتبطة ببعضها البعض وربطتها

(*) أشخاص يحملون الأرزاق والأشياء من القدس إلى الخليل والسبع.

بمفتش ورقيب ألماني فكانت تسير هذه القوافل من أقصى بلدان فلسطين إلى جوف الصحراء محملة بالأرزاق والآلات فلم تف بالحاجة واضطرت الحكومة إلى مقابلة المتعهدين لاتمام هذا النقص فقصرت همتها عن ايصال المنقولات في حينها إلى محتاجيها وقد نكبت بموت كثير من جمالها لاهمال الضباط وقلة اعتناء الأفراد بها فكنا نرى أشلاء الجيف ورممها مطروحة على جوانب الطرق متعاطفة على بعضها بعضاً. هنالك أمرت بمد الطرق الحديدية وتمهيد سكك العربات وحصرت مهمة الجمال في توزيع الأرزاق على الجنود داخل الصحراء وورد عليها أوتوموبيلات ألمانية ونمساوية ولكن بعد فوات الوقت.

(٩٠) تعبيد الطرق "العمليات"

عجزت الحكومة بواسطة الجمال أن توصل الأرزاق والمعدات الحربية إلى الجند في وقت الحاجة إليها فأمرت بإنشاء الطرق وجمعت ضعفاء الجنود والعجزة الذين لم يتمرنوا ولم يتدربوا على حمل السلاح "سلاحسز" وأطلقت سجناء القدس وشكلت منهم طوابير "فرق عمال" وجهزتهم بما يلزم من الأدوات والآلات وأمرت عليهم الضباط المتقاعدين وجعلت بعضهم لتعبيد طرق العربات وبعضهم لمد السكك الحديدية والده قويل وإنشاء المؤسسات فمدوا طريق القطار من العفولة إلى بيرين جنوبى الحفير يقطعها الراكب في ثمانية أيام. وأوصلوا طرق العربات بكل مركز عسكري أو نقطة حربية وداومت عملها حتى سئم الجنود وفروا فأجبرت الحكومة أهل القرى على تقديم عمال إليها وكانت تراقبهم بضباطها فنظمت جميع ذلك وهى على

وشك الوداع.

(٩١) المؤسسات "الانشاءات"

لما كانت ساحة فلسطين الحربية منحصرة فى الصحراء الخالية من الموارد الطبيعية كالغذاء والمياه والبناء عزمت الحكومة العثمانية على إيجاد هذه الأشياء فحفرت الآبار وجرت المياه فى القساطل "الأنابيب" إلى مسافات بعيدة وبنت أحواضاً لسقى الحيوانات وصنابير "حنفيات" للشرب وبنوا المستشفيات ومستودعات الأرزاق ومحطات للسكك الحديدية وللبريد والبرق^(*) ومحلات للضباط.

واستغنوا عن كل هذا فى المدن فتبسطت واستولت على جميع المؤسسات الأجنبية وامتلكتها واستعملتها لما يلزمها فأخذت نوتردام والمسكوبية والدومنيكان ومدارس القرير والمطران والصلاحية. وأسسوا دار الصناعة والإصلاح "معامل" فكان إذا ما تخرب شئ يعمر حالاً أو يعطى عوضه وقد اكتسب الأتراك من الألمان جرأة فعبثوا بأوروبا واقتضوا هيبتها واحتقروا عهودها وداسوا معاهداتها وعاملوا دولها معاملة النظر للنظر.

(٩٢) البعثة الألمانية العسكرية

تسلل بعض ضباط الألمان وتجنّد من كان فى سورية وانخرطوا فى الجيش العثماني فرأينا أمرهم وانتظرنا العقبى وسرعان ما رأيناهم قد انضموا

(*) كثرت فى هذه الحرب أسلاك البرق والتلفون والتلغراف اللاسلكى.

إلى قائد الحدود كريس فون كريستين Kress von Kresstein فأعطى كلاً منهم العمل الذى يصلح له وفتح الخواجه فاست مطاعم ومنازل خصوصية لهم يأوون إليها. فلما اتصل الألمان بالأتراك أرسلوا حملات نمساوية وألمانية مؤلفة من طوابير "قطع عسكرية" وفيهم الطيارون المدفعيون والمشاة وسائقو الأتوموبيلات فاستقبلهم القائد العام فون كريس وحاشيته بحفاوة وخطب فيهم على محطة بئر السبع فقال:

أيها الأبطال! أنتم أبناء من احتلوا باريس وشهدوا موقعة سيدان أنتم بأنفسكم قد اخترقتم قلاع البلجيكي ودككتهم حصونها وتغلغلتهم فى أقاليم فرنسا ومزقتم جيش روسيا أنتم الذين جرعتهم جميع أعدائكم اهوان وها أنا قد أتيت بكم لانفذ بعزمكم الألمانى فى شريان أنكلترا عدوة الإنسانية ولتنتزعوا من يدها القتال وتشفوا البشرية المتألمة من ظلم واستعمار أنكلترا ... الخ.

ثم ساروا وقد أعد لهم مخيماً فاخراً فكانوا ينامون على سرر ويأكلون طيب الطعام وأعذب الشراب وكانوا أنى ذهبوا يصحبهم الرخاء وأنى ساروا يوفر إليهم خير المأكول فطمعوا واستطالوا على الأتراك واحتقروهم فحدثت نفرة بين الفريقين كادت تفضى إلى سوء العقبى فأسس الأتراك جمعية فى بئر السبع غايتها مقاومة النفوذ الألمانى فكبحوا جهاحهم وخففوا من غلوائهم وظلت الفرق الألمانية والنمساوية تصحب الجيش التركى حتى الانهزام الأخير.

(٩٣) الجراد

لم يكف الناس ما حل بهم من البلىا حتى فاض عليهم طوفان من

الجراد فأكل الزرع والأثمار ورعى العشب وقشر الأشجار ثم غرس في الأرض وباض وفرّخ فاستعد السكان لدفعه وقاوموه ولكن حاولوا عبثاً فانتشر ثانية زاحفاً على الأرض وطائراً في الفضاء لا يأتي على شيء إلا ذهب به ففزعت الحكومة وعينت جنوداً ومأمورين ملكيين لتلافي ضرره وكلفوا أهل البلاد باتلافه فعجزوا عن رد غائلته. وفي الحقيقة أن من كان يراه ساجحاً على الأرض يتوهم أنها مادت به أو أن هنالك بحراً رجراجاً فتضعضت الحالة الاقتصادية وساءت الحركة التجارية فزاد الغلاء واشتد الفقر وقحطت الأرض وقاسى الفقير الويل والعذاب.

(٩٤) الحركة الاقتصادية

أعلن النفير العام فانقطعت الواردات الخارجية وغلت أيدي أهالي فلسطين ودخلوا في الجندية فأهملت الأرض وقلت الحاصلات لاسيما أن الحكومة أخذت تجبي ضرائبها عيناً فتأخذ من الغلال حصتها وتشتري ثلاثة أضعافها وزاد على ذلك ظلم المأمورين وتقديرهم الجمية بأكثر مما هي ولم تقف أيضاً عند هذا الحد بل صادرت جميع الحاصلات وعينت لكل فرد من الأهالي مؤونته وبذاره فقط واحتكرت البقية فسثم الزارع ومل الصانع وفرغ حانوت التاجر فعمت الطامة وجلت المصيبة وارتفعت الأسعار أربعة أضعافها وتعددت حوانيت بيع الأثاث المستعمل Second hand فصار كل محتاج يعرض ماله لبيعه بثمن بخس يشتري به قوتاً لعائلته والجدائعة وعظمت الرزايا بهبوط أسعار الورق النقدي فإن الليرة العثمانية نزلت إلى ١٨ قرشاً ومع دناءة سعرها

ورخصه فأنها كانت فى جبهة الأسد "وبها تقضى الحاجات".

(٩٥) الصحة العمومية

قلما تحدث حرب إلا ويصحبها الوباء والعلّة أنه يقال الغذاء ويفسد الجو والصعيد فتنشر الميكروبات وتكون الأجسام قد ضعفت عن مقاومتها فتفشى الأمراض وتفتك الأدوية كما شاهدناه أثناء الحرب.

فقد احتاطت الحكومة لمنع وقوع هذا العارض وأسست طوابير تنظيفات "كناسة" وأكثر من الأطباء والصيدالة وأناطت بهم مراقبة الأمور الصحية فهجمت الحميات والأمراض السارية وانتشرت الدُستاريا والكوليرا والتيفوس والتفؤيد فحصلت النفوس ونهبت الأعمار وكنا لا نرى غير وجوه شاحبة وأجسام ضعيفة منهوكة القوى.

(٩٦) الأخلاق العمومية

فى خلال هذا الحرب رأينا من فساد أخلاق بعض الشرقيين مازهدنا فى الحياة فأنهم نحروا الفضيلة وأقاموا الرذيلة وتبدلوا مفتخرين بالعيوب والمساوى فسخط الفضلاء ظانين أن هذا المرض سرى بين بنى قومهم فلم يتعدهم ولم يتجاوز سواهم فلما أتت الجنود الألمان والنمساوية وجدناهم أحط منا وأجرؤ على ارتكاب الموبقات فحولنا ومقتنا أعمالهم وأخلاقهم المنحطة وسلوكهم الحيوانى وتوهمنا أن المرض التركى تمشى فى مفاصلهم وتسرب إلى آدابهم فلما قدمت الجيوش الانكليزية المزيجة من عناصر الأرض وجدناها أدنى وأحط فلا عيب تتوقاه ولا حرام تأباه فعلمنا أن الحرب مفسدة الأخلاق وأى

حرب أعظم من هذا سيما أن سكان المدن ومن جاؤوا معسكرات الجنود كانوا أكثر فساداً من سكان القرى البعيدة عنهم.

(٩٧) الديوان العرفي

أعلنت الحكومة العثمانية الحرب وأمرت بتطبيق الأحكام العرفية في جميع أقطار مملكتهم فكان الديوان مؤلفاً من مجلسين هيئة تحقيقية "اتهام" ومحكمة عرفية فأخذوا مركزه في القدس بيت القسيس سايكس قبالة الكنيسة العربية. فكانت جحيم المحاكم وبلية البشر أعضاؤه ضباط عسكريون تربوا على سفح الدماء فهان عليهم القتل وسهل لديهم احتقار البشرية وآلامها. في حكمه القضاء المبرم والموت العاجل فإذا سبق المتهم إلى الهيئة التحقيقية استنطقه الضرب بالسوط والكي بالنار والتعذيب الشديد فيعترف بالجرم المنسوب إليه وإن لم يكن فاعلاً لأن الموت العاجل أخف من العذاب المتطاوّل فيكتبون إقراره رسمياً ويعتبرونه ويحولونه بأوراقه إلى المحكمة العرفية فإن خالف قوله الأولى نزلوا عليه بالسياط وإن قبله تحكم عليه بأقصى درجات العقاب وتحول قرار الحكم إلى الحاكم المطلق جمال باشا السفاح^(*) الذي يفعل ما يشاء ويختار ما يريد فيبرمه بلا تردد وكم من ذنوب ارتكبوها وخطايا اقترفوها ابتغاء مرضاة السياسة فأنهم اغتتموا هذه الفرصة وأخذوا يطبقون سياسة العسف والقميس فأبعدوا الفرق العربية والجنود السورية عن بلادهم ونقلوها إلى غاليسيا والهردينيل والعراق واستبدلوهم بأترك وألمان ونمساويين وتمردوا

(*) في سنة ١٩١٧ ضيقت سلطته وصار جرم الأعداء لا ينفذ ما لم يصدق عليه الخليفة.

وجاروا فأمر جمال بمحاكمة أعضاء مؤتمر باريس ومن اشتبه بهم من فتيان العرب الناهضين وشبابهم المتورين فنفى البعض وساق البعض إلى عالية وحاكموهم وحكموا على كثير منهم بالاعدام فتشفع فيهم جلالة الملك حسين وطلب العفو عنهم فردت شفاعته ونفذ فيهم الحقكم فاحتقدوها وثأر لهم قائلاً:
إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دماً

(٩٨) الثورة العربية

كتم جلالة الملك حسين غضبه وغيظه واستدعى الفرق المتطوعة^(*) التي قدمها جمال باشا بحجة أن يستبدلها بغيرها ودعا إليه ابنه فيصلاً وقطع علاقته مع الأتراك وأصغى إلى مفاوضات الحلفاء الذين قطعوا له عهداً ومواثيق باستقلال جميع البلاد العربية فأعلن الثورة وعضده قساورة الحجاز وعرب الحويطات فما كاد يبلغ هذا الخبر مسامع العرب حتى انسحبوا من صفوف الأتراك والتحقوا بهم ولم يبق منهم إلا من سدت في وجهه الطرق فانثلمت الثغور وتعطلت الإدارة وألتحق قسم كبير من الضباط والأفراد بجيش الأمير فيصل وقاتلوا وقتلوا وظلوا يتكاثرون إلى أن ضخم الجيش وسرت الشعلة إلى كل الجهات فاعترف أكبر قائد في فلسطين بقوله ان أهالي البلاد العربية أشد عداوة لنا من الانكليز.

(*) كانوا يلبسون ألبة بيضاء وكفاً حمرًا وهم أربعة آلاف شخص صادموا الجيش الانكليزي وكانوا يشدون أهازيجهم العربية ولا يتقيدون بنظام في الحرب.

(٩٩) الحملات الحربية

كان يجب أن نقدم هذا البحث عَلَى غيره لما له من الأهمية ولكننا فضلنا أن نعهده بمعداته الأولية ليتنبه القارئ أن النصر لا يكون بكثرة الجنود فقط بل بما يلزم لها من الذخائر والوسائل النقلية والتغذية والاعتناء الصحى والفن العسكرى.

أعلن الأتراك النفير العام وهم بين عاملين التزام الحياذ أو دخول الحرب فما زالت بهم أنور باشا وحزبه حتى حملهم عَلَى اقتحامها فعصدوا الألمان آملين أن يكون لهم النصر فيسترجعوا إمبراطوريتهم العظمى فاستسلموا لهم وولوهم الأعمال وإدارة الأمور فسيطروا عليهم حتى إن جمال باشا بعظمته كان يخشى فون كريس ولم يستطع أن يرد له طلباً فلما اجتمع القواد للمذاكرة أصر عَلَى مهاجمة القنال بقوة كبيرة لاعتقاده أنه يدخل مصر بسهولة بناء عَلَى استكشافاته أن قوة الانكليز كان ضعيفة فحالفه سعد الله بك رئيس أركان حرب جمال باشا وكان رأيهم أن يرسل بضعة طوابير لمشاغلة الانكليز ومساجلتهم فقط لأنه يرى أن اختراق الصحراء بجيش كبير لايرجى منه نفع فاستشاط فون كريس غضباً وأرغم جمال باشا على اتباع رأيهم ونفذ سعد الله وقوله وفصله من القيادة العامة ثم زحف بقوة مؤلفة من ثلاثين الف جندى مسلح وكان وراءهم فرقة أزمير الممتازة فوصلوا القنال وكشفوه وبعد معركة قليلة فشل العثمانيون وعادوا أدراجهم ولكن فون كريس بقى مخيماً فى "الابن" يتردد على جميع مراكز الصحراء ويغير عَلَى الأنكليز ويشاغلهم بأربعة

طواير فقط وقد استدرج الانكليز مرة وأوقع بهم فى قطية وأسر منهم أميرالاي وضباطاً وجنوداً ولكنه لم يعق سيرهم فتقدموا بطريقهم الحديدية ومياهم النيلية إلى أن بلغوا العريش واحتلوها وأخرجوا الأتراك من الصحراء وانقضوا على غزة فكادوا يمتلكونها ثم خسروا الموقعة واستطال العراك فلم يظفروا بحاميتها وثبتت أمامهم فالتفوا حول جناح الأتراك الأيسر "السبع" وعطفوا عليه فانسحب إلى الوراء وتراجعت القوات إلى الشلالة ثم وادى الصرار وهناك انشطرت إلى شقين أحدهما ارتد لحماية القدس والآخر ساح فى سهول طولكرم فتعقب الأنكليز الشق الأول وأوقعوا به فى بيت عور والنبي صمويل وحصروا القدس ودخلوها فى ٩ كانون أول سنة ١٩١٧م وظلوا يدحرون فلول الجيش إلى أن رسخ على خط متعرج فخندق الانكليز أمامهم من السلط إلى سنجل ودير غسانه ومجل يابا وحرم على بن عليم وطال بالمقاتلين المقام وهم فى سجال حتى اخترق فرسان الانكليز خط طولكرم واكتسحوا الجيش التركى وأسروا أكثره وقابلهم الجيش العربى فى ذرعاه فاشترك معهم وهجموا على سورية يطاردون الأتراك فأخرجوهم من البلاد العربية وتولى الإدارة فى سورية جلالة الملك فيصل وفى الساحل فرنسا وفى فلسطين انكلترا.

انحسر الأتراك عن بلادنا ولم يتركوا لنا شيئاً من المدينة. حكمونا ٤٠٠ سنة فأين ثكناتهم العسكرية؟ وأين طرقهم العمرانية؟ أين مدارسهم ومعاهدهم العلمية؟ أين آثارهم الفنية وإصلاحاتهم المدنية؟ لاشئ من هذا.

سلم الأتراك للحلفاء مطالبهم ف عقدوا المؤتمرات وحكموا عليهم فى مؤتمر سيفر وسان ريمو وفرساي بنزع جميع أملاكهم فى أوربا وإعطائها لليونان وتكون الأستانة والمضايق تحت مراقبة الحلفاء ومنطقة أزمير لليونان ،ضاليا لاطاليا وكليكيافرنسا وسلخت عنها جميع جزر الأرخبيل وسائر البلاد العربية والكردية وأجبرت تركيا على التنازل عن جميع حقوقها فى كل بلادها المحتلة من انكلترا وفرنسا وإيطاليا وقبلوا ذلك إلا أن البطل التركى مصطفى كما باشا أبى أن يقر الذل فى أمته وانسحب إلى الأناضول والتف حوله خيرة قومه وأصبح جيشه على قوة مدهشة وساعدته السياسة على ذلك فأخرج إيطاليا من أضاليا وفرنسا من كليكياف وحارب اليونان وقذف بهم فى اليم واحتل الأستانة وحصن دعوتها وقبل الحلفاء مندوبيه فى مؤتمر لوزان بعد أن رفضوا وألغى المعاهدات الأولى.

(١٠٠) الهجرة

ماقرب الجيش الأنكليزى من بلاد مستحكمة إلا وظن الأتراك أن أهلها يضمرون لهم سوءاً فيفرغونها من السكان يأمرؤنهم بالمهاجرة إلى بلاد قاصية فقد هاجروا غزة ويافا وأكثر القرى التى كانت تقع على خط النار أو بين الخطين خشية اتصال الجواسيس أو نقل الأخبار فلما أتى الأنكليز وجدناهم يعقبون عين تلك السياسة ونفس هذه الإدارة فإنهم ما دخلوا قرية إلا أخرجوا أهلها منها واعتقلوا كثيرين فضاع أثاث الأهالى وفقدت سلعهم وكم من بناء هدم فى سبيل الحرب.

لم نحلم بما كان مخبئاً لنا فى لوح الغيب فقد جاءت الحرب وجاء معها الشقاء ففقد من البلاد الكبريت والكاز والسكر والقهوة والأرز وغير ذلك من الواردات الخارجية فتبرم الناس من ذلك ثم ألفوه واستعاضوا عنه بغيره ولكن قلت الضيافات والزيارات وعذر بعضهم بعضاً وقصر اللسان عن اللوم فبرزت المخدرات إلى العمل وتسابقن فى جلب المعاش وإحراز القوت [إلا أن الفلاح صاحب الحاصلات ظل حاله مستوراً] وقد كنا نرى النعل مرقعة واللباس مرفوفاً والطربوش مقلوباً حتى أن المسافر يخلع نعله توفيراً... ولكن اجتماع الجنود والأهالى ببعضهم البعض أكسبهم فائدة الاقتباس وشاهدوا الألمان واحتكموا بهم فنقلوا عنهم كثيراً وساروا خطوة واسعة إلى الأمام فالقروى الساذج الذى عاشر المدنى قبس عاداته وما حسن لديه وأبناء المدن الصغيرة سرت لهم العدوى لما عاشروا أبناء بيروت ودمشق وحلب واجتذبوا منهم الحسن ودبت فيهم ريح الحركة من الألمان وكذلك الأنكليز ثم أبصروا مساوئ غيرهم فعلموا أنهم بشر ليسوا بخير منهم فلم يفصلوهم على أنفسهم وطمحوا إلى مساواتهم.

الفصل السادس عشر

الاحتلال البريطاني

(٦١) الإدارة العسكرية

فى أواخر سنة ١٩١٧م اكتسح الجيش البريطانى جنوبى فلسطين واخترق منطقة طولكرم فى ١٩ أيلول سنة ١٩١٨م فقضى على الجيش التركى وجلت الحكومة العثمانية عن البلاد وقامت على أثرها حكومة أنكليزية عسكرية دعيت "ادارة بلاد العدو المحتلة" وتعين الجنرال كلايتن Clayton مديراً عاماً لها ثم خلفه الجنرال موني Money فالجنرال وطسن Watson فالجنرال بولز Bols وقد تغيرت هذه الإدارة فى ابتداء سنة ١٩٢٠م إدارة ملكية على رأسها السر هربرت صمويل مندوباً سامياً لجلالة الملك جورج وعهد إليه تنفيذ وعد بلفور بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود كما قرر مؤتمر سان ريمو فى ٢٠ نيسان من سنة ١٩٢٠م فقدم المندوب السامى وتلا أمر "فرمان" جلالة الملك فى الطور يوم الأربعاء فى ٧ تموز وهذا نصه:

إلى مأمور من فخامة جلالة الملك جورج الخامس أن أبلغكم الرسالة

الآتية:

إلى أهالى فلسطين

إن الدول المتحالفة التى نالت الفوز الباهر فى هذه الحرب قد أودعت

بلادى أمر الوصاية على فلسطين لكى تسهر على صوالحها وتكفى بلادكم العمران السلمى الذى طالما كنتم تشدونهُ. أنى أذكر بافتخار العمل المجيد الذى قامت به جنودى تحت قيادة الفيلد مارشال اللورد اللبى بتحرير بلادكم من النير التركى وسأتهل حقيقة إذا وفقت أنا وشعبى أيضاً إلى أن نكون وسيلة لكم لتنالوا السعادة بوجود إدارة حازمة وصادقة. أنى أرغب أنؤكد لكم أن الدولة ذات الوصاية ستنفذ ما عليها من الواجبات بدون محاباة مطلقاً كما وأن فى عزم حكومتى أن تحترم حقوق العناصر والمذاهب على اختلافها فى المدة التى يلزم انقضاؤها إلى أن يصادق مجلس عصبة الأمم نهائياً على أمر الوصاية وفى المستقبل عند ما تكون قد صارت الوصاية أمراً واقعاً.

لا يخفاكم أن الدول المتحالفة والمشاركة قد قررت أن تتخذ التدابير لتضمن تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين بالتدريج وهذه التدابير لن تؤثر قطعياً على حقوق الأهالى الدينية أو المدنية ولن تنقص من الرقى المنوى لعموم طبقات الشعب الفلسطينى: أنى واثق أن المندوب السامى الذى انتدبته لانهاد هذه المبادئ سيفعل ذلك بعزم ثابت ونية صادقة وسيسعى لاستعمال كل الوسائل التى تؤول إلى خير واتحاد طبقات الشعب على اختلاف مذاهبه. أنى أدرك جيداً خطورة الائتمان المخدقة بحكومة البلاد التى يقدسها المسيحى والمسلم واليهودى على السواء وسأحافظ بكل اهتمام وعاطفة حارة فى المستقبل على رقى وعمران البلاد التى ينظر العالم إلى تاريخها باهتمام عظيم.

ثم تلاه مرة ثانية على جبل الكرمل فى حيفا وشرع بتطبيق قرار

الحلفاء فجعل لغات البلاد الرسمية ثلاثاً العربية والانكليزية والعبرية واعترف بوجود القومسيون الصهيوني ووظائفه وحاول أن يقنع العرب بأن الصهيونية نافعة ومفيدة فأخفق في سعيه وخسرت سياسته وهنا نقول كلمة عن تاريخ الصهيونية.

(١٠٣) الصهيونية

تنتسب الصهيونية إلى صهيون أحد التلال القائمة عليه بيت المقدس والذي كان علماً للمدينة ثم أصبح مرادفاً إلى فلسطين.

فالصهيونية حركة يهودية غرضها الأجل الرجوع إلى فلسطين لجمع شتات شعبهم المبدور بين جميع الأجناس والطوائف وفي كل بقاع الأرض وهي منظوية على مبادئ اقتصادية وسياسية ودينية لا محل هنا لاستيفائها.

ان أكبر محرك لإحياء هذه الروح في نفس اليهود هو توالى اضطهادات الأوروبيين لهم ونفورهم منهم لأنهم يميلون إلى الربا الفاحش ولأنهم مستهلكون غير محدثين ولرغبتهم في احتكار التجارة ولتعصبهم الديني وهذه نبذة من صلاتهم اليومية:

" لم يخلقنا الله مثل بقية الشعوب ولم يجعل مقامنا مثل مقام الأمم الأخرى".

وأن رجال الغرب مهما تظاهروا بالتسامح المدني مع اليهود فإنهم غير راضين عنهم اجتماعياً فقد استوحش منهم الروس وافحشوا فيهم سنة

١٨٨١م فقام نفر منهم ونادى بجمع اليهود فى بقعة واحدة فاستحسن هذه الفكرة كثير منهم ولكنهم اختلفوا فى تعيين المحل الذى يتخذونه وطناً لهم فاقترح البارون هرش أن يكون فى جمهورية الأرجنتين، وذهب زنكويل باستيطان شرق أفريقيا أو أوغندا وحذب بعضهم الرجوع إلى العراق ومنهم من فضل طرابلس الغرب أو شبه جزيرة سيناء أو نيكاراغوا فى أميركا الوسطى وظلوا مختلفى الرأى حتى سنة ١٨٩١م إذ نجم من فينا هرزل مؤسس الصهيونية المعروفة الآن وجمع عدداً من كبار مفكرى اليهود وعقدوا مؤتمراً فى بازل "سويسره" وأجمعوا على اتخاذ فلسطين مهجراً ووطناً فذهب هرزل إلى الأستانة وباشر مفاوضة الباب العالى فلم ينجح إلا بأخذ رخصة بتأسيس مدرسة نيتز الزراعية وشرع بإنشاء بعض مستعمرات "قرى" يهودية وكان كلما اعترضه شئ من العقبات والمشاكل اقتحمها. وقد انضم إليه نفر كثير من اليهود بعد حادثة الضابط اليهودى دريفوس فنشط وثابر على جمع الأموال وبث الدعوة "البروبوغاندا" وأسسوا الشركات المالية ونشروا الروح الصهيونية بين اليهود فاستعد فريق منهم لقبولها وفى أثناء الحرب العظمى نجح الزعيم الصهيونى وايزمان وأقنع وزارة لويد جورج بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود فنطق بتصريحه المشهور وهو:

"تنظر حكومة جلال الملك البريطانية بعين الرضى إلى إنشاء وطن قومى فى فلسطين وتبذل الجهد فى سبيل ذلك على أن لايجرى ما يضر بحقوق غير اليهود فى فلسطين الدينية والمدنية أو ما يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسى فى ماسواها من الممالك".

وإننا ذاكرون هنا الأعمال الكبيرة التي تمت على عهد المندوب السامى
وهى: تعيين مجلس استشارى مؤقت مؤلف من العرب واليهود وفتح أبواب
فلسطين لمهاجرى اليهود وتأسيس مجلس إسلامى أعلى يدير الأوقاف والمحاكم
الشرعية الدينية مؤلف من رئيس وأربعة أعضاء.

وأنكر العرب السياسة الصهيونية فأسسوا الجمعيات الإسلامية
المسيحية فى جميع البلاد واحتجوا عليها وتظاهروا وطلبوا إلى الحكومة تعديل
خطتها ثم أرسلوا وفوداً إلى لندن والحجاز وأنقره ولوزان ولندن "ثانية" وقد
وجدوا من لوردات الأنكليز وأشرفهم مناصرة وعطفاً.

وقد بذل المندوب السامى وسعه للتوفيق بين العرب واليهود فلم يفلح
وهو المشهور باللطف وحصافة العقل. وحدث فتتان بين المتنازعين الأولى فى
القدس والأخرى فى يافا قتل فيهما عدد ليس بقليل فهذا تهما الحكومة بالقوة.

فهذا تاريخ فلسطين وجل ما وقع فيها من الحوادث قد طويناها بعد
التنقيح بين دفتى هذا السفر الصغير والله ولى التوفيق ..

* * *

المصادر والمراجع

- التوراة
- التاريخ العام - مير
- التاريخ القديم - بورتر
- تاريخ سورية - المطران الدبس
- فلسطين وتجديد حياتها - حنا صلاح
- أبو الفدا
- ابن الأثير
- الأنس الجليل - الحنبلى
- مروج الذهب - المسعودى
- تاريخ الطبرى
- ابن خلكان
- الواقدى
- مقدمة ابن خلدون
- تاريخ التمدن الإسلامى - زيدان
- تاريخ مصر الحديث - زيدان
- تاريخ دول الإسلام - منقربوس
- تاريخ الدول العثمانية - فريد وجدى
- مشهد العيان فى تاريخ سورية ولبنان - مشاققة

- عمرو بن العاص - حسن ابراهيم حسن
- صلاح الدين - أحمد بيلي
- معجم البلدان - ياقوت
- رحلة ابن جبير
- رحلة ابن بطوطة
- محاضرات الخضرى
- أشهر مشاهير الإسلام - رفيق بك العظم

- The works of Josephus.
- Biblical Geography and History - Kent.
- The House of the Seleueids - Bevan.
- Jerusalem Under the High Priests - Bevan.
- The Philistines - Maealister.
- A History of Civilization in Palestine - Macalister.
- The Rise and Fall of the Roman Empire - Gibbon.
- The Hisotrical Geogrphey of the Holy Land - G.A. Smith.
- Palestine under the Moslems - Guy Le Strange.
- The Encyclopedia Britannica.
- The Orient in Bible Times - Grant.

فهرس الكتاب

<u>رقم الصفحة</u>	<u>اسم الموضوع</u>
٣	مقدمة المؤلف
٥	مقدمة الكتاب
٧	<u>القسم الأول</u>
٧	من بدء التاريخ إلى الفتح الاسلامى
٧	الفصل الأول
٩	تاريخها قبل اليهود
٩	حدودها
١٠	مساحتها
١٠	اسماؤها
١١	تأثير موقعها الجغرافى على تاريخها
١٣	سكانها
٢٥	الفصل الثانى
٢٥	اليهود فى فلسطين
٢٥	دور البداوة
٢٩	عصر القضاة
٣١	اليهوذ كأمة
٣٦	انقسام المملكة وخرابها
٣٧	مملكة اسرائيل
٣٩	السمرية
٤١	مملكة يهوذا
٤٥	بعض أنبياء اليهود

<u>اسم الموضوع</u>	<u>رقم الصفحة</u>
الفصل الثالث	٤٩
من نبوخذ نصر إلى بمبوي	٤٩
فلسطين في يد الفرس	٤٩
اليونان في فلسطين	٥٠
السلوقيون البطالسة	٥٣
المكابيون	٥٤
الفصل الرابع	٥٧
الاحتلال الروماني	٥٧
هيرودس	٥٧
السيد المسيح	٦٠
جلال اليهود ثانية	٦٣
قلعة مسادا	٦٩
هدريان	٧٠
قسطنطين وتنصير فلسطين	٧٢
آثار الرومان واليونان	٧٣
<u>القسم الثاني</u>	٧٧
الفتح الاسلامي حتى عصر العثمانيين	٧٧
الفصل الخامس	٧٧
العرب قبل الإسلام	٧٧
النهضة الإسلامية	٨٠
النبي محمد صلى الله عليه وسلم	٨٣

<u>رقم الصفحة</u>	<u>اسم الموضوع</u>
٨٤	انفاذ جيش أسامة
٨٥	وقعة اليرموك
٩٠	وقعة اجنادين
٩١	فتح بيت المقدس
٩٥	ادارة البلاد وأسباب نجاح العرب
٩٨	الفتح الإسلامى والخلفاء الراشدين
١٠١	نبذة عن القرآن
١٠٣	آثار الخلفاء
١٠٣	ابطال النهضة الإسلامية
١١٢	الفصل السادس
١١٢	فلسطين أموية
١١٦	بناء الحرم الشريف
١١٨	الوقائع الأموية
١٢٣	محدثات بنى أمية وميزاتهم
١٢٥	بعض أبطال الدولة الأموية
١٢٨	الدعوة العباسية
١٣١	الفصل السابع
١٣١	فلسطين عباسية
١٣٧	الفصل الثامن
١٣٧	الدولة الطولونية
١٣٩	الدولة الأخشيديّة

رقم الصفحة	اسم الموضوع
١٤٢	بعض أبطال الدولة العباسية
١٤٧	الفصل التاسع
١٤٧	الدولة الفاطمية
١٥٢	الحاكم بأمر الله
١٥٦	الدولة السلجوقية
١٥٩	الفصل العاشر
١٥٩	الصلبيون
١٦٢	فتح القدس
١٦٧	الفصل الحادى عشر
١٦٧	حالة العالم الإسلامى
١٧٢	معركة حطين
١٧٦	الحملة الصليبية الثالثة
١٨٠	صلاح الدين ومواسم فلسطين
١٨٢	الدولة الأيوبية
١٨٧	الخوارزمية
١٨٨	أضرار الحروب الصليبية
١٩٢	فرسان مار يوحنا
١٩٣	الهيكل
١٩٥	الفصل الثانى عشر
١٩٥	المماليك البحرية
١٩٥	الملك المظفر قطز

<u>رقم الصفحة</u>	<u>اسم الموضوع</u>
١٩٨	الملك الظاهر بيبرس
١٩٩	انتقال الخلافة العباسية إلى مصر
٢٠٠	محمد بن قلاوون
٢٠٠	المماليك الجراكسة
٢٠٠	أبو سعيد برقوق
٢٠١	مجيئ التتر
٢٠٥	<u>القسم الثالث</u>
٢٠٥	عهد الدولة العثمانية
٢٠٥	الفصل الثالث عشر
٢٠٥	تمهيد
٢٠٧	نشوء الدولة العثمانية
٢٠٩	السلطان سليمان
٢١١	الأمير على المصرى وظاهر العمر
٢١٤	أحمد باشا الجزائر
٢١٧	الفصل الرابع عشر
٢١٧	بونابرت في فلسطين
٢٢٠	منشور نابليون
٢٢٥	ثورة جبل نابلس
٢٢٧	ابراهيم باشا
٢٢٨	ثورة أمراء فلسطين
٢٢٩	حرب القرم

<u>رقم الصفحة</u>	<u>اسم الموضوع</u>
٢٣١	نقود وموازين ومكايل فلسطين
٢٣٤	بعض أسواق فلسطين
٢٣٤	أقسام فلسطين الإدارية
٢٣٦	قيس ويعن
٢٤١	الحرية في فلسطين
٢٤٤	ثورة حوران
٢٤٥	الفصل الخامس عشر
٢٤٥	الحرب العظمى
٢٤٨	التموين
٢٤٨	وسائط النقل
٢٤٨	تعبيد الطرق
٢٥٠	المؤسسات
٢٥٠	البعثة الألمانية العسكرية
٢٥١	الجراد
٢٥٢	الحركة الاقتصادية
٢٥٣	الصحة العمومية
٢٥٣	الأخلاق العمومية
٢٥٤	الديوان العرفي
٢٥٥	الثورة العربية
٢٥٦	الحملات الحربية
٢٥٨	الهجرة

<u>رقم الصفحة</u>	<u>اسم الموضوع</u>
٢٦١	الفصل السادس عشر
٢٦١	الاحتلال الانكليزي
٢٦٢	تاريخ الصهيونية
٢٦٧	مصادر البحث
٢٦٩	فهرس الكتاب

٢٠٠١ / ٧٦٩٤	رقم الإيداع
977 - 341 -027 -7	I. S. B. N الترقيم الدولي

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر
ت ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس ٥٩٣٦٢٧٧

To: www.al-mostafa.com